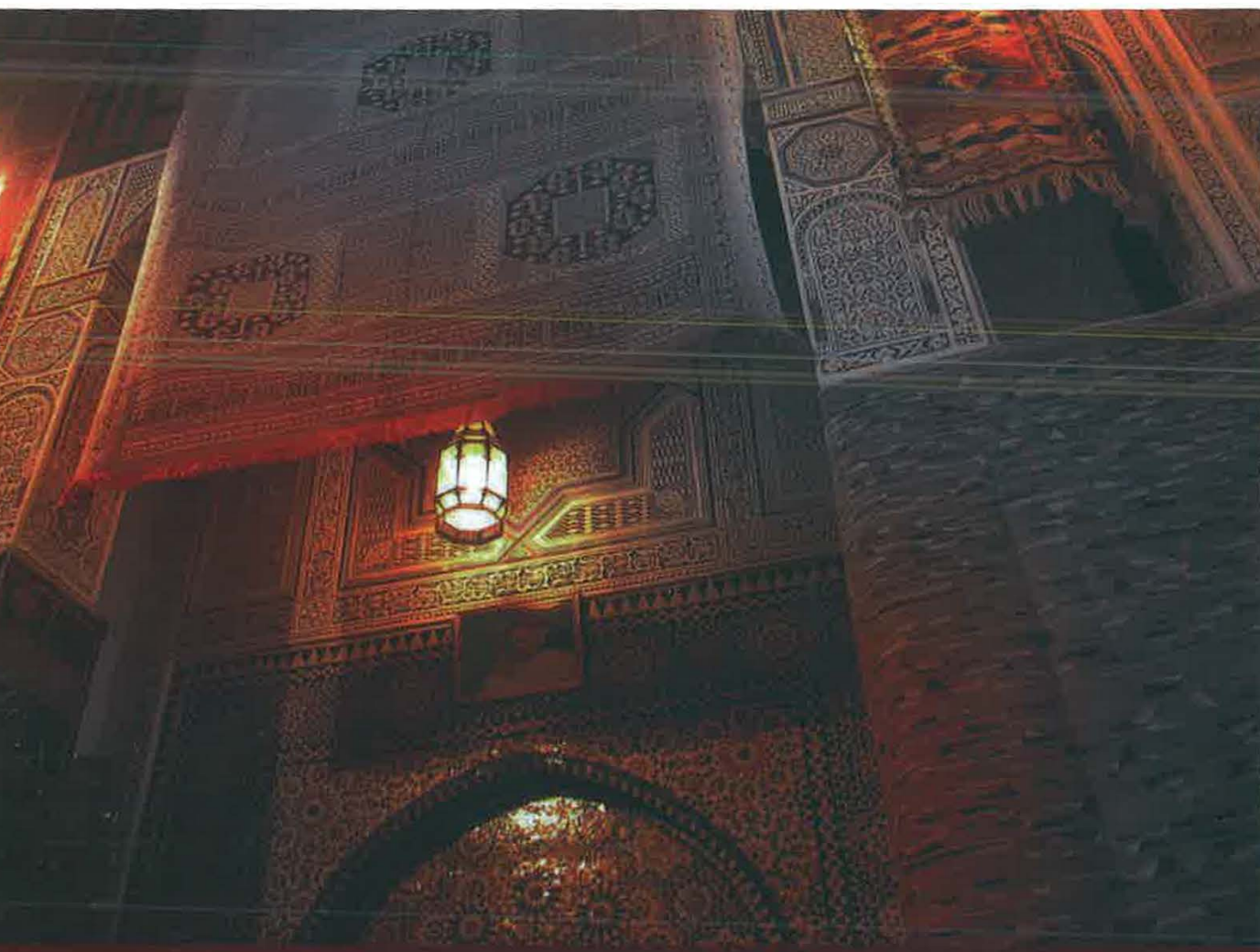

الإشراف على أطراف من المغرب العربي

بقلم
محمد بن ناصر العبودي

دار الثلوثية

https://dawa.center

الإشراف على أطراف من المغرب العربي

بقلم

محمد بن ناصر العبودي

دار الثلوثية للنشر والتوزيع

الطبعة الثانية

1437 هـ / 2016 م

ⓒ دار الثلوثية للنشر ، ١٤٣٧ هـ
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية اثناء النشر
العبودي ، محمد بن ناصر عبدالرحمن
الاشراف على اطراف من المغرب العربي. / محمد بن ناصر بن عبدالرحمن العبودي - الرياض، ١٤٣٧ هـ
ردمك: ٩-٣-٩٠٧٥٦-٦٠٣-٩٧٨
١- الاشراف ٢- آل البيت ٣- المغرب العربي - تاريخ
العنوان
ديوي ٩٢٩،٧ ١٤٣٧/٢٣٢١

ردمك: ٩-٣-٩٠٧٥٦-٦٠٣-٩٧٨ رقم الايداع: ١٤٣٧/٢٣٢١

المقدمة:

أما بعد: فإنني أصدرت الكتاب الأول في الرحلات خاصاً بالقارة الإفريقية خلف الصحراء أسميته (في إفريقية الخضراء: مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين) وقد مضى على تأليفه عشرون عاماً، وكنت عندما ابتدأت كتابته لم أتوقع أن يكون تأليفاً، فقد كان مذكرات يومية قد اعتدت على كتابة مثلها قبل خمس عشرة سنة من ذلك التاريخ في بعض السنين وتوقفت في بعضها، ولكن عندما زرت تلك الأقطار الإفريقية التي كانت تعتبر في ذلك الوقت نائية عن بلادنا العربية، بل هي واقعة خلف ستارين أحدهما: البعد الشديد، والثاني: عدم الاتصال والتعارف، هالني نقص المعلومات عندما زرت تلك البلدان، ولم يكن الهدف في تلك الرحلة إلى إفريقية الحصول على معلومات عامة أو الحصول على ما يخدم الأغراض السياسية الخاصة، وإنما كان ذلك من أجل الحصول على المعلومات المطلوبة عن أحوال المسلمين، وعن كيفية تقديم المساعدات للنهوض بهم على ضوء من المعرفة الميدانية.

لذلك كتبت مذكرات يومية عن تلك الرحلة، ثم كتبت مذكرات أخرى في رحلة ثانية إلى إفريقية تلتها بعد سنتين.

فاجتمع لي من ذلك مقدار كبير من الأوراق كان منها كتاب (في إفريقية الخضراء) الذي أشرت إليه وهو كتاب طبعته بعد أن كنت جمعته وأنا مشفق من ألاّ يشوق قارئاً من القراء، وكنت أيضاً مشفقاً من أن يعتقد كثير من الناس أن الهدف منه هو أن يتحدث المؤلف عن نفسه لمجرد الرغبة في الحديث عن النفس، وذلك لأن كتب الرحلات الحقيقية هي التي يتحدث فيها الرحالة عن أثر ما شاهده من البلاد والعباد في نفسه، وما لاحظه عن ذلك وما أراد أن يكتبه للقراء عما لاحظه، وذلك بطبيعة الحال يقتضي الحديث عن نفسه غير أنني فوجئت بأن قراء العربية الكرام الذين اطلعوا على الكتاب قد استقبلوه استقبالاً فاق في الحسن ما كان يطمح إليه خيال المؤلف لكتاب مثله، وأحسنوا الظن بمؤلفه إحساناً جعلهم يثنون عليه ثناء أخجل تواضعه، لا لكونه كان كاتباً يحب التواضع، ولكن لكونه يعتقد في قرارة نفسه أنه لا هو ولا كتابه في حقيقة الأمر في شيء من هذه المنزلة الرفيعة التي أحلوهما إياها.

وكان كثير من قراء الكتاب يتسألون عن السبب الذي حدا بي إلى تخصيص البلدان الإفريقية بهذه الكتابة المهمة، فأذكر لهم ذلك بأنه المفاجأة التي واجهتني في أننا نحن

العرب كنا لا نعرف كثيراً بل ولا قليلاً يعتد به من أحوال تلك البلاد وبخاصة أحوال المسلمين فيها.

وقد كانت تكررت زياراتي لبعض البلدان العربية بعد ذلك، وأكثرها زيارات عمل، وبعضها زيارة فراغ، ولكنني لم أكتب شيئاً عنها، مع أنني كنت كتبت عدة كتب في الرحلات عن أنحاء أخرى من العالم بلغ عددها حتى كتابة هذه السطور اثنين وثلاثين كتاباً وطبع منها اثنا عشر كتاباً(١)، وليس بينها كتاب واحد عن البلدان العربية إلا ما كان من أمر السودان الذي تحدثت عنه في معرض الكلام على الرحلة الإفريقية.

وكان بعض أصدقائي والذين يحسنون الظن بي يتسألون: لماذا لم تكتب عن البلدان العربية؟ فكنت أقول لهم ما أقوله لنفسي، وهو أن هذه البلدان بمثابة المنزل المعروف لهم، فماذا أجد فيها مما أعتقد أنهم لا يعرفونه وأنهم في شوق لمعرفته؟

وذلك رغم كون البلدان العربية واسعة النواحي، شاسعة المسافات، متعددة العادات، مختلفة الفصول والجواء، بل متشعبة المظاهر والمناظر، غير أن مجرد كونها عربية جعلني أحجم عن الكتابة فيها لا لكون ذلك في حد ذاته مانعاً من الكتابة، ولكن لكونها بلادي وبلاد قرائي.

إلا أنني الآن وقد مضى على أول كتاب في الرحلات عشرون عاماً احجمت فيها عن الكتابة في الرحلات إلى البلدان العربية أجدني قد تغير رأيي بحيث سألت نفسي: عما إذا كانت ا لمعلومات التي يعرفها القراء من العرب عن موريتانيا مثلاً هي أكثر مما يعرفونه عن أوروبا وأمريكا؟

وعما إذا كانت ظفار في جنوب عمان أو جزيرة (سقطره) في جنوب اليمن هما أسعد حظاً في الشهرة عند قراء العربية من مدينة نيروبي مثلاً أو جزيرة (سومطرة) في أندونيسيا التي هي على وزن (سقطره) الجزيرة العربية اليمانية الجنوبية.

وقد كثرت الأسئلة عن نصيب أجزاء مختلفة من البلدان العربية من معرفة الإخوة العرب، فكانت الإجابة في كل الأقوال، أو في أكثر الأحوال هي بالنفي على كل سؤال من هذه الأسئلة.

فقلت لنفسي: ومعذرة من تكرار هذه الكلمة-: ما دام الأمر كما ذكر لماذا لا أقدم إلى قرائي الكرام الذين أحاطوا كتاباتي بالاهتمام شيئاً عن حال أو أحوال من أحوال البلدان

١ كان هذا عند كتابة هذه المقدمة، وقد زاد عددالكتب التي كتبها المؤلف في فن الرحلات على مائة وسبعين كتاباً طبع منها ١١٨ كتاباً.

العربية التي نعتبرها عند جمهورهم من البلاد القصية، التي لا يعرفون عنها شيئاً ذا أهمية من الأحوال الاجتماعية أو اللهجات اللغوية أو الظروف المحلية، وإن لم يقلل ذلك من قيمتها الحقيقية، فهي هي بلادنا العربية العزيزة سوءا أكانت قريبة أم قصية، فاللغة العربية الحبيبة تجمعنا، والدين الإسلامي الحنيف يشدنا إلى أن نشد أزر إخواننا لنكون بذلك في الحقيقة نشد أزرنا.

والثقافة القديمة المشتركة التي لا تزال هي الدعامة القوية لحياتنا هي توحدنا ولو بالعواطف رغم العواصف، والعواطف التي هي الآلام والآمال المشتركة هي أعظم الروابط لأنها التي لا تقوم على نفع مادي، أو عامل اقتصادي، أو لسبب عارض من الأسباب التي تزول بزواله، وتضعف بضعفه كما قال أسلافنا العرب القدماء: (من أحبك لشيء أبغضك عند فقده).

ومع ذلك لكيلا نكون كمن يسعى في الحصول على حاصل أو ينفق وقته وجهده في غير طائل فإننا قصرنا الكلام على البلدان العربية وقصة الرحلات فيها إلى الأماكن البعيدة، أو الأركان من الدول البعيدة.

ولذلك أسميت ما كتبته باسم يدل على ذلك وهو (الإشراف، على أطراف من المغرب العربي).

وكلمة الأطراف لا تدل على نقص في القدر، أو انحطاط في المنزلة، ولكن طبيعة الأطراف في النواحي والمسافات أن تكون أقل حظاً في المعلومات.

وإلاّ فإن الأطراف في اتخاذها منازل هي مفضلة عند بعض الرؤساء من أسلافنا العرب القدماء لذلك جاء في أمثالهم القديمة (الأطراف، منازل الأشراف).

وأياً كان الأمر فإن الهدف واضح، وليس المعول على التسمية وإنما المعول على الحقيقة، وقديماً قال أسلافنا من الأصوليين (لا مشاحة في الاصطلاح).

ولقد بدأت ببلد من بلداننا العربية العزيزة تصدق عليه هذه التسمية فهو طرف من أطراف البلدان العربية وهو عزيز عليها، بل هو يحمل عنها أعباء القيام بنشر الثقافة العربية ورعايتها في غرب إفريقية مطل وب منه ذلك كما تحمل الدعامة الهامة من البناء في الركن الثقيل البارز فيها ألا وهو المغرب الأقصى أو المملكة المغربية.

المؤلف

محمد بن ناصر العبودي

إلى مراكش الحمراء:

من ميزة المغرب وهو المملكة المغربية أن كل مدينة من مدنه لها خصوصية تتميز بها عن المدن الأخرى، وفيها من المرافق كالقصور والقاعات و الفنادق ما يمكن أن يعقد فيها مؤتمر دولي، إضافة إلى السمة المشتركة بين المدن المغربية كلها وهي المحافظة على الآثار القديمة بعدم المساس بها إلاّ بترميم ما يحتاج إلى ترميم منها، وذلك بإعادة الطابع الذي كان عليه قبل الترميم.

ولذلك بقيت المغرب أغنى الدول العربية بالآثار والمباني الإسلامية الباقية على ما كانت عليه، ومنها مثلاً الأسوار والبوابات، بل المدن القديمة التي بقيت على حالها مع احتفاظها بطابعها القديم وسط الأبنية والأحياء التي حدثت فيها، ومن ذلك مثلاً مدينة فاس القديمة التي لا تستطيع السيارات الدخول إلى أزقتها القديمة بسبب ضيقها وقل مثل ذلك عن تطوان والرباط.

وليس معنى قولنا إن المغرب هو أغنى الدول العربية بالآثار مطلق الآثار القديمة فمصر في هذا الميدان لا يدانيها مدان، سواء فيما يتعلق بقدم الآثار التاريخية فيها أو بكثرتها، ومع ذلك فإنه لا توجد فيها مدن قديمة أو أحياء قديمة من المدن بقيت على ما هي عليه من مبانٍ وأزقة وأسوار متكاملة لا تدخلها السيارات مثلما هو عليه الحال في المغرب.

وقل مثل ذلك عن طلاء المنازل فكبريات المدن في المغرب لا تترك الناس و شأنهم بحيث يختارون ما يشاؤن من ألوان البيوت لمدنهم، بل هي تراعي أن يكون ذلك وفق خطة مرسومة محكمة لا يجوز الإخلال بها.

وأكثر الألوان في طلاء البيوت في المغرب هو البياض ما عدا مراكش فإن الطلاء بها يكون باللون الأحمر وذلك سميت (بمراكش الحمراء) وقيل في فاس: إنها المدينة الزرقاء مع كثرة البياض فيها ويقول المغاربة بشيء من التجوز: إن كل المدن المغربية بيض إلا واحدة هي حمراء وهي مراكش.

وبالنسبة إلى العربي القادم من بلاد غير عربية قبل وصوله إلى المغرب فإنه يشعر عندما يصل إلى المغرب بأنه قد وصل فعلاً إلى بلده، وليس هذا قولاً عاطفياً مجرداً، بل إنه حقيقة يعرفها كل من أتيح له أن يجرب ذلك.

وقد جربته بنفسي مراراً وتكراراً ففي هذه المرة كنت قادماً من إفريقية التي يسميها الفرنسيون (إفريقية السوداء) ونحن نسميها (الخضراء) وما وراء الصحراء.

ونعتها بالخضراء صحيح على الحقيقة من كونها خضراء الأرض، ومن المجاز على اعتبار أن أهلها سمر أو سود، والخضرة في ألوان الأناسي والحيوان تعني السمرة الشديدة.

ولكن الراحة التي أحسست بها عندما وصلت إلى المغرب في إفريقية ليس مبعثها اللون – بطبيعة الحال- وإنما مبعثها أنني كنت في جولات عمل في إفريقية، وهي جولات تواصل الليل بالنهار، وطابعها هو التنقل والتسيار، والرجوع إلى المغرب بعد تلك الجولات كالإستراحة بعد الجولات الرياضية.

إضافة إلى ما يجده المرء من طعام شهيٍّ، وهواء معتدل، وارتخاء جسماني لا يكدره مكدر.

ومع ذلك فإنني عندما قدمت من إفريقية وهي هنا مدينة (دكار) التي كنت وصلتها من أعماق القارة الإفريقية لم أشأ أن أقضي وقتي فيما ذكرته، بل أحببت أن أرى من هذه البلاد المغربية التي كان أسلافنا يسمونها المغرب الأقصى ما لم أ ره.

وقررت أن أفتتح ذلك بمدينة مراكش، وأن أختتمه بمدينة أغادير، وذلك لكون الوقت الذي استطيع أن أوفره لهذه الجولة هو قصير لا يتسع لما كنت أملته من قبل من زيارة إلى جنوب المغرب حتى عيون الساقية الحمراء عاصمة الصحراء المغربية، التي هي مغربية قبل أن تزول ميمها الأولى من اسمها ثم تعود إليها.

من الرباط إلى مراكش:

اخترت السفر بالسيارة على السفر بالطائرة لأرى من الطريق بالسيارة ما لا أستطيع رؤيته بالطائرة، و اخترت السفر بحافلة عامة على السفر بسيارة صغيرة حتى اختلط بالإخوة المغاربة وأقف في محطات الحافلة العديدة.

وكنت وصلت من إفريقية بالأمس حيث توجهت من المطار في الدار البيضاء إلى الرباط دون الدخول إلى مدينة الدار البيضاء.

وفي محطة الحافلات كان هناك وجود لتلك الظاهرة غير المحببة في المغرب وهي السؤال والاستجداء، وإن كان بعض السائلين المستجدين يبدون أعذاراً مقنعة بحاجتهم إلى ذلك، وإن كانت غير مقنعة في كون من يريد أن يعطيهم من الصدقة ما يكفيهم أياماً وربما أسابيع بأنهم سيكفون عن الاستجداء، حتى ينفد ما لديهم، لأن أغلب (الشحاذين) قد اتخذوا (الشحاذة) مهنة رأوا أنها تدر عليهم من المال ما لا تدره عليهم أعمال أخرى، وإن كنا لا نستطيع أن نحكم بأن كل الشحاذين كذلك.

كان من بين هؤلاء رجل مقعد وهو معذور لأن عجزه عن العمل ظاهر، وقد سمعته يسأل بعبارات عربية فصيحة، وإن لم تكن مألوفة لدينا في المشرق مثل كثير من الجمل والكلمات الموجودة في اللهجة المغربية، فكان يردد قوله: ها هو أخوكم الزَّحّاف، تصدقوا عليه، والزَّحّاف: المقعد، وامرأة متوسطة الحال والمظهر سمعتها تحلف لأحد الرجال أنه لا يوجد عندها ولا درهم واحد تشتري به خبيزة- تصغير خبزة- والله أعلم بحقيقة الحال.

وكانت أجرة الركوب في الحافلة ٣٤ درهماً، وتسلم الرجل الذي يعمل على إركاب الركاب خمسة دراهم والذي رفع الحقيبة إلى ظهر الحافلة وربطها خمسة دراهم آخرى.

غادرنا الرباط في الثانية ظهراً، وكنت تغديت قبل ذلك، مع أنه تبين أن الحافلة تقف في بعض الأماكن التي يجد فيها المسافر ما يبتاعه من طعام.

لم يكن المرء يسمع في هذه الأمكنة الشعبية الحافلة غير اللغة العربية، الخالية من اللكنة أو الكلمات الأعجمية كلها سواء منها الفرنسية وغير الفرنسية، وتمنيت لو كان الذين ينبزون اخواننا المغاربة بعدم الفصاحة في إيثارهم الفرنسية دون العربية أن يكونوا حاضرين هنا، وفي لغتهم أو في أمثاله من المواقع والمواقف ليصححوا معلوماتهم الخاطئة في هذا المجال.

أما أولئك الذين يرمون اللغة المغربية وهي اللهجة بإصطلاح الكتاب المحدثين فإن ذلك يدل على جهلهم بالعربية، لأن إخواننا المغاربة يستعملون كلمات وألفاظاً عربية أو ذات أصل فصيح ولكن لا نستعملها، ولا تعرفها العامة عندنا، فاللغة العربية واسعة والمعجم

العربي ذو فروع متشعبة منذ القدم، وقد أخذت اللهجات العربية من هذا المعجم ما اغناها ووسع حاجاتها كلها، دون أن تحيط بما في الفروع الأخرى من المعجم.

لاسيما تلك البلاد العربية البعيدة عن مراكز الحضارة العربية الشرقية التي بعد عهدها بلغة تلك المراكز الحضارية بعدين هما بعد الزمان وبعد المكان، وإلا فإنني اعتقد جازماً أن اللغة العربية عند عامة أهل المغرب هي أقرب إلى اللغة العربية المعجمية الفصيحة من لغة بعض الأقطار الشرقية القريبة من مراكز الحضارة العربية، وإن لم تكن أقرب منها إلى اللغة الفصحى (لهجة) قريش.

كان مقعدي في مقدمة السيارة وهو أمر أردته من أجل أن أرى ما نمر به بوضوح.

كانت الأرض ربيعاً مزهراً بزهور برية جميلة أغلبها صفرا، ترعاه الأنعام من أبقار وأغنام بأعداد كثيرة تسترعي الانتباه مما جعلني أقول: إن ربيع أرضنا في صحرائنا قليل سريع الزوال.

الحقول الواسعة:

مررنا بمساحات هائلة الاتساع مزروعة بقمح بعلي لأن المطر في هذا العام وفير أو متواصل وقد زرعوا تلك المساحات قمحا، أو لنقل إنهم حرثواتلك المساحات، لأن عملهم في القمح البعلي الذي لا يحتاج إلى سقي ينحصر في البذر والحرث.

وهذه الوفرة في القمح لا تتأتى كل عام وإنما يمكن ذلك إذا هطلت الأمطار بمقادير كافية، ثم تواصل نزولها.

والحمضيات:

كذلك يرى المرء في المحطات والمواقف التي نمر بها، وحتى القرى التي ليست فيها محطات مقادير ضخمة من الحمضيات ما بين برتقال ويوسفي، وكله رخيص الثمن، بل إنه يباع بثمن بخس، إذا قيس ذلك بأسعاره في البلدان المستوردة للحمضيات مثل بلادنا.

وقد اشتريت شيئاً من اليوسفي بثلث درهم فأكلت منه وتركت باقيه في السيارة لكثرته.

القرى الحمر:

قبل الوصول إلى مدينة مراكش بمائة كيلومتر وصلنا عدة قرى مبانيها ذات طلاء أحمر ولا أدري أذلك لقربها من مراكش الحمراء وأنهم أعطوها حكمها في الإحمرار، أم أن ذلك اختيار من أهلها لذلك اللون.

ولاحظت أن اللافتات في هذا الريف كلها مكتوبة باللغة العربية ليست معها لغة أخرى، إلا ما كان من بعض الأماكن القليلة فتكتب العربية في الأعلى والفرنسية أسفل.

على أن بعض الجمل و الألفاظ العربية غريبة علينا لكونها لا تستعمل عندنا مثلاً (ملبنة) بمعنى حانوت بيع اللبن، و(المقشدة) للمطعم الصغير الذي يقدم الوجبات الخفيفة و أصله من (قشد) الشيء بمعنى قلاه في الدهن، وهذه كلمة مستعملة عندنا في نجد، ومنها القِشْد، وهو التمر يخلط بالدقيق ويقلى في الزبد أو السمن.

ومثل البطائق: جمع بطاقة، ومحج بمعنى شارع طويل مثل محج سيدي الحسن الأول في الدار البيضاء، وإرشادات مكان استعلامات، والأبناك: جمع بنك بمعنى مصرف، وعربيتها الفصيحة (مصارف)، ونحن نقول: بنوك، والأظناء: المتهمون بالجريمة، والتسفير: تجليد الكتب، والضمان أي التأمين، والأطر: الموظفون المؤهلون للعمل، وإشهار، بمعنى إعلان، والشغل: العمل، والشغيلة: العمال، والجهوي: الإقليمي.

وكثرت النخيل:

كثرت النخيل التي ترى من الطريق قبل الوصول إلى مراكش ولكن كثيراً من الذي نراه منها من الطريق مهمل، ربما كان ذلك لطول النخل نتيجة لقدم غراسه، وعدم تجديده، والنخل الطويل نعرف في بلادنا أن أهله كثيراً ما يهملونه، لأنه يحتاج من العناية والرعاية وأجرة الخدمة أكثر من غلته، فالعامل الذي يتولى العناية بالنخلة من حيث التلقيح وقبله (التشييف) وهو جرد الشوك وابعاده عن النخلة، ثم التعديل فضلاً عن خراف النخل بعد إرطابه يطلب أجرة مضاعفة للعناية بالنخلة الطويلة أكثر مما يطلبه للفسيلة وهي النخلة القصيرة، والنخلة الجبارة وهي المتوسطة التي لا يستطيع الرجل الواقف أن يأخذ من تمرها شيئاً بدون أن يصعد إليها.

بلاد الأمجاد:

هذه البلاد المغربية هي بلاد الأمجاد الإسلامية فإضافة إلى محافظتها على كيانها المستقل أو المتميز على مدى القرون كانت قد فتحت الأندلس، والمراد بذلك أن فتح الأندلس انطلق منها ولكن الأمر لم يقتصر على ذلك وإنما أخرت سقوط الأندلس قروناً إضافية عندما كادت تسقط في القرن السادس الهجري، ثم إنها عندما كانت مدينة مراكش التي نحن قادمون إليها هي عاصمتها وصلت بنفوذها إلى نهر النيل، نيل السودان وليس نيل مصر، وهو المسمى الآن بنهر النيجر وحكمت المنطقة كلها لفترة من الزمن.

ذكرت ذلك وأنا أرى مجرى ماء ضيقاً مفعماً بالمياه قادماً من جبال الأطلس التي تجللها الثلوج، وذلك من خلال وادٍ من الوديان قبيل الوصول إلى مراكش، وخيل إليّ أن غبار التاريخ يتطاير من مياه هذا الوادي مع أن الماء لا غبار فيه، وإنما ذلك من وحي الخيال الذي صار يلح عليّ مستعرضاً أمجاد مدينة مراكش ومن خلفها أو من حولها شعب المغرب العريق، وذلك منذ أن اسسها يوسف بن تاشفين إلى ما قبل الزمن الحديث بقليل من السنين.

قبل الوصول إلى مراكش:

رأيت أن أنقل هنا بعض ما وقفت عليه من نصوص قديمة ذكرت (مراكش) أو تكلمت على بعض أحوالها القديمة ولم أتكلم على كل النصوص ولا على ما ورد فيها من أقوال وأشعار لأن هذا ليس من شرط الكتاب الذي هوكتاب رحلة ومشاهدات، وإنما أردت ألا أخليه من ذكر بعض هذه النصوص القديمة.

وهذه النصوص تمثل أحوالاً قديمة لهذه المدينة المغربية المهمة، ولذلك عقبت عليها بنقل نص حديث من كتاب حديث التأليف يتكلم على أحوالها الحاضرة:

قال الإدريسي في (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) بعد أن تكلم على مدينة أغمات الواقعة في جبال الأطلس جنوب مراكش:

وبشمال المدينة وعلى اثني عشر ميلاً منها مدينة بناها يوسف بن تاشفين في صدر سنة سبعين وأربع مائة بعد أن اشترى أرضها من أهل اغمات بجملة أموال و اختطها له ولبني عمه وهي في وطاء من الأرض ليس حولها شيء من الجبال إلا جبل صغير يسمى ايجليز ومنه قطع الحجر الذي بني منه قصر أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين وهو المعروف بدار الحجر وليس في موضع مدينة مراكش حجر البتة إلا ما كان من هذا الجبل وإنما بناؤها بالطين والطوب والطوابي المقامة من التراب وماؤها الذي تسقى به البساتين مستخرج بصنعة هندسية حسنة استخرج ذلك عبيدالله بن يونس المهندس.

وسبب ذلك أن ماءهم ليس ببعيد الغور موجود إذا احتفر قريباً من وجه الأرض وذلك أن هذا الرجل المذكور وهو عبيد الله بن يونس جاء إلى مراكش في صدر بنائها، وليس بها إلا بستان واحد لأبي الفضل مولى أمير المسلمين المقدم ذكره فقصد إلى أعلى الأرض مما يلي البستان فاحتفر فيه بئراً مربعة كبيرة التربيع ثم احتفر منها ساقية متصلة الحفر على وجه الأرض ومر يحفر بتدريج من أرفع إلى أخفض متدرجاً إلى أسفله بميزان حتى وصل

الماء إلى البستان وهو منسكب مع وجه الأرض يصب فيه فهو جار مع الأيام لا يفتر، وإذا نظر الناظر إلى مسطح الأرض لم ير بها كبير ارتفاع يوجب خروج الماء من قعرها إلى وجهها وإنما يميز ذلك عالم بالسبب الذي به استخرج ذلك الماء، والسبب هو الوزن للأرض فاستحسن ذلك أمير المسلمين من فعل عبيد الله بن يونس المهندس وأعطاه مالاً وأثواباً وأكرم مثواه مدة بقائه عنده ثم إن الناس نظروا إلى ذلك، ولم يزالوا يحفرون الأرض ويستخرجون مياهها إلى البساتين حتى كثرت البساتين والجنات واتصلت بذلك عمارات مراكش وحسن قطرها ومنظرها.

ومدينة مراكش في هذا الوقت من أكبر مدن المغرب الأقصى لأنها كانت دار إمارة لمتونة ومدار ملكهم وسلك جميعهم وكان بها أعداد قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة وأزقتها واسعة ورحابها فسيحة ومبانيها سامية وأسواقها مختلفة وسلعها نافقة.

وكان بها جامع بناه أميرها يوسف بن تاشفين، فلما كان في هذا الوقت وتغلب عليها المصامدة وصار الملك لهم تركوا ذلك الجامع عطلاً مغلق الأبواب لا يرون الصلاة فيه وصنعوا لأنفسهم مسجداً جامعاً يصلون فيه بعد أن نهبوا الأموال وسفكوا الدماء وباعوا الحرم كل ذلك بمذهب لهم يرون ذلك فيه حلالاً.

وشرب أهل مراكش من الآبار ومياهها كلها عذبة وآبارهم قريبة معينة وكان علي بن يوسف قد جلب إلى مراكش ماء من عين بينها وبين المدينة أميال ولم يستتم ذلك فلما تغلب المصامدة على الملك وصار لهم وبأيديهم تموا جلب ذلك الماء إلى داخل المدينة وصنعوا به سقايات بقرب دار الحجر وهي الحظيرة التي فيها القصر منفرداً متحيزاً بذاته والمدينة بخارج هذا القصر وطول المدينة أشف من ميل وعرضها قرب ذلك وعلى ثلاثة أميال من مراكش نهر لها يسمى تانسيفت وليس بالكبير لكنه دائم الجري وإذا كان زمن الشتاء حمل بسيل كبير لا يبقى ولا يذر وكان أمير المسلمين علي بن يوسف بنى على هذا النهر قنطرة عجيبة البناء متقنة الصنع بعد أن جلب إلى عملها صناع الأندلس وجملا من أهل المعرفة بالبناء فشيدوها وأتقنوا بنيانها حتى كملت ثم لم تلبث غير أعوام يسيرة حتى أتى عليها السيل فاحتمل أكثرها وأفلت عقدها وهدمها ورمى بها في البحر الزخار وهذا الوادي يأتي إليه الماء من عيون ومياه منبعثة من جبل دون من ناحية مدينة اغمات ايلان.

واغمات ايلان مدينة صغيرة في أسفل جبل درن المذكور وهي في الشرق من اغمات وريكة السابق ذكرها وبينهما ستة أميال وبهذه المدينة يسكن يهود تلك البلاد وهي مدينة حسنة كثيرة الخصب كاملة النعم، وكانت اليهود لا تسكن مدينة مراكش عن أمر أميرها

علي بن يوسف ولا تدخلها إلا نهاراً وتنصرف عنها عشية، وليس دخولهم في النهار إليها إلا لامور له وخدم تختص به ومتى عثر على أحد منهم بات فيها استبيح ماله ودمه فكانوا ينافرون المبيت بها حياطة على أموالهم وأنفسهم.

وأهل مراكش يأكلون الجراد ويباع منه بها كل يوم الثلاثون حملاً فما دونها وفوقها بقبالة عليه، وكانت أكثر الصنع بمدينة مراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصابون والصفر والمغازل وكانت القبالة على كل شيء يباع دق أو جل كل شيء على قدره، فلما ولي النعام فهي في أكنافه سارحة وعلى مراقبه دارجة وهي آلاف لا تحد ولا تعد وأهل تلك النواحي يصيدونها طرداً بالخيل فيقبضون منها جملاً كباراً وصغاراً، وأما بيضها الموجود في هذا الفحص فلا يحاط به كثرة ولا يحصل، ومنه يحمل إلى كل البلاد وطعامها وخيم يفسد المعد وأما لحوم النعام فلحوم باردة يابسة وشحومها نافعة عندهم من الصمم تقطيراً ومن سائر الأوجاع البدنية.

إلى أن قال:

ومن قرية اكسيس إلى مدينة سلا مرحلة ومدينة سلا الحديثة على ضفة البحر، وكان في القديم من الزمان مدينة شالة على ميلين من البحر وموضعها على ضفة نهر اسمير الذي يتصل الآن بمدينة سلا الحديثة، وهناك مصبه في البحر، وأما شالة القديمة فهي الآن خراب وبها بقايا بنيان قائم وهياكل سامية، ويتصل بخرابها عمارات متصلة وزروع ومواش لأهل سلا الحديثة وسلا الحديثة على ضفة البحر الملح منيعة من جانب البحر لا يقدر أحد من أهل المراكب على الوصول إليها من جهته وهي مدينة حسنة حصينة في ارض رمل ولها أسواق نافقة وتجارات ودخل وخرج وتصرف لاهلها وسعة أموال ونمو أحوال والطعام بها كثير رخيص جداً وبها كروم وغلات وبساتين وحدائق ومزارع ومراكب أهل اشبيلة وسائر المدن الساحلية من الأندلس يقلعون عنه ويحطون بها بضروب من البضائع وأهل اشبيلية يقصدونها بالزيت الكثير، وهو بضاعتهم ويتجهزون منها بالطعام إلى سائر بلاد الأندلس الساحلية والمراكب الواردة عليها لا ترسى منها في شيء من البحر لأن مرساها مكشوف وإنما ترسى المراكب بها في الوادي الذي قدمنا ذكره وتجوز المراكب على فمه بدليل لأن في فم الوادي أحجار وتروش تنكسر عليها المراكب وفيه أعطاف لا يدخلها إلا من يعرفها، وهذا الوادي يدخله المد والجزر في كل يوم مرتين، وإذا كان المد دخلت المراكب به إلى داخل الوادي، وكذلك تخرج في وقت خروجها، وفي هذا الوادي أنواع من السمك وضروب من الحيتان والحوت بها لا يكاد يباع ولا يشترى لكثرته وجودته وكل شيء من المأكولات في مدينة سلا موجود بأيسر القيمة وأهون الثمن.

وقال ياقوت الحموي:

مَرّاكُشُ: بالفتح ثم التشديد، وضم الكاف، وشين معجمة: أعظم مدينة بالمغرب وأجلُّها وبها سرير ملك بني عبدالمؤمن، وهي في البرّ الأعظم بينها وبين البحر عشرة أيام في وسط بلاد البربر، وكان أول من اختطها يوسف بن تاشفين من الملثمين الملقب بأمير المسلمين في حدود سنة ٤٧٠، وبينها وبين جبل دَرَن الذي ظهر منه ابن تومرت المسمى بالمهدي ثلاثة فراسخ، وهو في جنوبيها، وكان موضع مرَّاكش قبل ذلك مخافة يقطع فيه اللصوص على القوافل، كان إذا انتهت القوافل إليه قالوا مراكش معناه بالبربرية أسرع المشي، وبقيت مدة يشرب أهلها من الآبار حتى جلب إليها ماءٌ يسير من ناحية أغمات يسقي بساتين لها، وكان أول من اتخذ بها البساتين عبدالمؤمن بن علي، يقولون إن بستاناً منها طوله ثلاثة فراسخ.

إنتهى.

وقال صاحب الروض المعطار:

مراكش: شمال أغمات وعلى اثني عشر ميلاً منها بداخل المغرب، بناها يوسف بن تاشفين أمير المسلمين في صدر سنة سبعين وأربعمائة، وقيل سنة تسع وخمسين وأربعمائة، بعد أن اشترى أرضها من أ هل أغمات بجملة أموال واختطها له ولبني عمه، وهي في وطاء من الأرض، وليس حولها من الجبال إلا جبل صغير يسمى ايجليز، ومنه قطع الحجر الذي بنى منه قصر علي بن يوسف أمير المسلمين، وليس بموضع مراكش حجر إلا ما كان من هذا الجبل، وبناؤها بالطين والطوب والطوابي، ثم استخرجوا مياهها، فكثرت فيها البساتين والجنات، واتصلت عمارات مراكش وحسن قطرها، ثم بنى أسوارها علي بن يوسف بن تاشفين سنة أربع عشرة وخمسمائة.

وعلى ثلاثة أميال منه وادي تانسيفت، ويصب فيه وادي وريكة ووادي نفيس وأودية كثيرة.

ومياه مراكش قريبة من قامتين من وجه الأرض، وبساتينها تسقى بالآبار ينفذ بعضها إلى بعض حتى تخرج على وجه الأرض، وبينها وبين درن نحو العشرين ميلاً، وهي كثيرة الزرع والضرع وبحائرها لا تحصى، كثرة وإنما بناها واضعها ليملك منها جبل درن لكثرة من يعمره.

وكان إسلام قبائل الصحراء في سنة خمس وثلاثين وأربعمائة، ثم ملكها عبد المؤمن بن علي وانقرضت دولة بني تاشفين بعد أن كانت دار امارة لمتونة وقاعدة مملكتهم، وكان بها قصور كثيرة لجملة من الأمراء والقواد وخدام الدولة، وكانت أزقتها واسعة وأرجاؤها فسيحة وأسواقها حفيلة وسلعها نافقة.

وكان بها جامع بناه يوسف بن تاشفين، وهو صاحب الزلاقة، فلما ملكها عبدالمؤمن بن علي تركوا ذلك الجامع معطلاً مغلق الأبواب لا يرون الصلاة فيه، وبنوا لأنفسهم مسجداً جامعاً يصلون فيه بعد أن نهبوا الأموال وسفكوا الدماء وباعوا الحرم، وكان ذلك لمذهب لهم يرون ذلك فيه حلالاً.

وكان علي بن يوسف قد جلب ماء من عين بينها وبين المدينة أميال فلم يستتم ذلك، فلما تغلب عبدالمؤمن على الملك وصار بيده تموا جلب ذلك الماء إلى داخل المدينة وصنعوا منه سقايات بقرب دار الحجر، وهي الحظيرة التي فيها القصر منفرداً متحيزاً بذاته.

والمدينة بخارج هذا القصر، وطول المدينة أشفّ من ميل وعرضها قريب ذلك، وعلى ثلاثة أميال من مراكش نهر تانسيفت، وليس بالكبير لكنه دائم الجري، ويحمل في زمن الشتاء بسيل كبير فلا يبقي ولا يذر.

وكان أمير المسلمين علي بن يوسف بنى على هذا النهر قنطرة عجيبة متقنة البناء.

وعظمت مراكش في الدولتين، فكانت أكبر مدن المغرب الأقصى، وعظمت تجارتها وتنافس الناس في البناء فيها، وبنيت فيها الفنادق والحمّامات، وفيها قيسارية عظيمة البنيان، وهي أكبر بلاد المغرب جنات وبساتين وأعناباً وفواكه، وأكثر شجرها الزيتون، فيها منه ما تستغني به عن غيرها من البلاد، وتمير بلاداً كثيرة، وبها شجر أرقان(١)، ودهنه عندهم مستعمل نافع.

وزيتون مراكش أكثر من زيتون مكناسة، وزيتها أرخص وأطيب، وأجرى المنصور يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن في وسطها ساقية ظاهرة، يخرج ماؤها من قصره فيشق المدينة من القبلة إلى الجوف، فكانت أشرف مدن المغرب وأعدلها هواء، وجعل فيها مارستان للمرضى يدخله العليل فيعاين ما أعد فيه من المنازه والمياه والرياحين والأطعمة الشهية والأشربة المفوهة، فتنعشه من حينه، وكان ذلك سنة خمس وثمانين وخمسمائة.

ثم استدعى العلماء ورواة الحديث وأهل الفنون المختلفة، فجلبوا إليه من الأقطار، فكثر فيها العلماء وامتلأت بوجوه أهل البلاد من كل صقع، وقصدها التجار من كل جهة، وصارت حاضرة المغرب وقاعدة البلاد، وتناهت ضخامتها وانقادت إلى طاعتها أقاليم المغرب وبلاد الأندلس وغيرها، إلى أن أختلّت الأحوال ووقعت الفتن وفشا فيها الظلم والفجور وشرب الخمور والتحامل على الناس، وفي ذلك يقول قائلهم:

---

١ في الاستبصار: الهرجان.

يـطـوف الـتـجـار بمـراكـش ... طـواف الحجيج ببيت الحـرمْ
تـروم الـنـزول فـلا تستطيع ... لشرب الخـمـور وهتك الحـرم

وكان من ملوك بني عبدالمؤمن ما كان، وانقرضت دولتهم بقتل يعقوب بن عبدالحق المشتهر بابن تامطوت المريني صاحب ناهي آخر ملوكهم ادريس بن محمد بن عمر بن عبدالمؤمن الملقب بأبي دبوس في سنة ست وستين وستمائة، وكان ناجزه مراراً كلها يظهر عليه إلى أن ناجزه مرة بظاهر مراكش، فخامرت عليه عربه وأسلمته فقتل، وصارت الدولة مرينية، فسبحان من لا يزول ملكه.

ومع هذا كله ففي مراكش يقول أبو القاسم بن أبي عبدالله بن محمد بن أيوب بن نوح الغافقي من أهل بلنسية:

مـراكـشُ إن سـألـت عنها ... فـإنـهـا في الـبـلاد عـارُ
هـواؤهـا في الـشـتـاء ثلج ... وحـرهـا في المـصـيـف نـار
وكـل مـا ثـمَّ، وهـو خير ... مـن أهـلـهـا، عـقـرب وفـار
فـإن أكـن قـد مكـثـت فيها ... فـإن مكـثـي بـهـا اضـطـرار

وأهل مراكش يأكلون الجَرَاد، ويُباع فيها كل يوم منه أحمال، وعليه قبالة، وكان أكثر الصنائع بمراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصابون وغيرهما، وكانت القبالة على كل شيء يباع، فلما صار الأمر للموحِّدين قطعوا تلك القبالات وأراحوا منها، واستحلوا قتل المتقبلين لها، فلا ذكر لها في بلادهم.

وفي مدينة مراكش يقول قاضيها الإمام التاريخي أبو عبدالله محمد بن عبدالملك الأوسي(٢):

لله مـراكـشُ الـغـراء مـن بلد ... وحبذا أهلها السادات من سَكَن
إنْ حلها نازح الأوطـان مغتربً ... أسلوه بالأنس عن أهل وعن وطَن
بين الحديث بها أو العيان لهَا ... ينشا التحاسد بين العين والأذُنَ

إنتهى.

٢ رحلة ابن بطوطة، ج٢، ص٨٢٧.

وهذا قول حديث عن هذه المدينة قاله الأستاذ الصديق بن العربي في كتابه: (المغرب):

مراكش المدينة الثانية:

مدينة مراكش في المغرب وعاصمته الجنوبية وباسمها اشتهر المغرب في الشرق والغرب، تقع في سفح الأطلس الكبير على بعد ٣٠ كيلومتر منه ويبلغ ارتفاعها عن سطح البحر ٤٥٠م على بعد ٤ ك.م من جنوب الضفة اليسرى لوادي تنسيفت، وهي جيدة المناخ خصبة التربة يشتد بها البرد في فصل الشتاء حيث تتهاطل الثلوج على قمم الاطلس كما تشتد بها الحرارة في فصل الصيف حيث تبلغ في بعض الأيام ٤٥ درجة، وعند مدخلها يوجد جبل جيليز الذي يبلغ ارتفاعه ٥٢٧ متراً في موقع حربي عتيد مشرف على المدينة وما جاورها، وفوقه بنيت التحصينات العسكرية وبداخله خلوة الولي الصالح أبي العباس السبتي الذي اعتكف بها قبل دخوله إلى المدينة في أواخر القرن السادس.

أسسها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اللمتوني في أواسط القرن الخامس واتمها من بعده ابنه علي ، وبلغت عظمتها في عهد عبدالمؤمن الموحدي وخلفائه، حيث أصبحت عاصمة للغرب الإسلامي (المغرب- الجزائر- الصحراء- الأندلس) بعد سقوط الخلافة الاموية بالأندلس سنة ٤٢٢هـ ثم سقوط القيروان سنة ٤٥٠هـ وسقوط طليطلة بيد المسيحيين سنة ٤٧٨هـ.

وبها عدة مآثر من بينها جامع الكتبية الذي بنى منارته الشهيرة الخليفة يعقوب المنصور الموحدي وباب اكناو والقصبة ومسجدها الجامع والمشور ودار المخزن وجامع علي بن يوسف ومدرسته وقبور الأشراف السعديين وقصر البديع الذي بناه المنصور الذهبي وجامع الأشراف وجامع باب دكالة والباهية وهو القصر الذي بناه الوزير أبا احماد بن موسى ودارسي سعيد أخ الوزير المذكور.

أما الآثار المرابطية بها فلم يبق منها سوى بعض أطلال قصر الحجر قرب الكتبية وآثار المسجد المرابطي الأول غرب الكتبية وبقية منار جامع علي بن يوسف والقبة القريبة منه.

واشتهرت مراكش بجامع علي بن يوسف الذي كان مركزاً لحركة ثقافية وعلمية خلال عدة قرون وانجب طائفة من العلماء الأعلام، وهذا المسجد وما يتصل به من مدارس ومعاهد هو الذي يطلق عليه قديماً جامع ابن يوسف.

ومن الآثار التاريخية بها المدرسة المرينية التي توجد قرب جامع ابن يوسف والتي جدد بناءها السلطان الغالب بالله السعدي وهي مدرسة بديعة من نوع المدارس المرينية الموجودة

ببعض المدن المغربية.

ولجامعة القرويين فرع بمراكش هو كلية اللغة العربية التي يوجد مقرها ببناية خاصة في الضاحية قرب جامعة القاضي عياض.

أما خزانة ابن يوسف الشهيرة التي كانت ملحقة بالجامع المذكور فتوجد الآن بقصر الجلاوي وهي غنية عن التعريف لما اشتملت عليه من مخطوطات، ومن البنايات الشهيرة التي توجد بمراكش: قصر البلدية وقصور الجلاوي المعروفة بالستينية.

وتضم مراكش زيادة على مآثرها التاريخية المهمة الأسوار المرابطية والموحدية والأبواب وأضرحة شخصيات بارزة مغربية وأندلسية كضريح الأمير يوسف بن تاشفين قرب الكتبية المتوفى سنة ٥٠٠هـ.

وتمتاز مراكش بحدائقها الغناء كحدائق اكدال والمنارة وعرصة مولاي عبدالسلام بن سيدي محمد بن عبدالله وجنان الحارثي وحديقة ماجوريل- وتحيط بالمدينة الجنان الفسيحة وحقول الخضر والأشجار المثمرة زيادة على غابة النخيل التي تحيط بها من كل جانب والتي تبلغ مساحتها ١٣ ألف هكتار بها نحو ١٠٠ ألف نخلة.

وقد لعبت مراكش أدواراً هامة في تاريخ المغرب منذ عهد المرابطين إلى أوائل القرن الحالي، فكانت عاصمة للمغرب والأندلس وحتى بلاد السودان في أيام المرابطين والموحدين وترك جل ملوك هذه الدول بها عدة آثار ما زالت قائمة الذات.

أما القبائل القاطنة بضواحيها فهي: الرحامنة والسراغنة وزمران وأولاد مطاع وأولاد أبي السباع وأولاد دليم ودوبلال والمنابهة وحربيل والودايا والجيش.

إنتهى.

وقالت النشرة الحكومية التي أصدرتها الحكومة عن المدن المغربية ما يلي:

مراكش: أسس المرابطون مدينة مراكش في آواخر القرن الحادي عشر وتطلق عليها لفظة جوهرة الجنوب، وهي ثانية عواصم المغرب من حيث الأقدمية، غير أن الآثار التي يمكن أن تجلى بها الآن تعتبر من مخلفات الموحدين والسعديين، فالموحدون شيدوا بها جامع الكتبية الذي يعلوه منار مشهور ومدرسة ابن يوسف التي تتيح من خلال حلتها الوردية فرصة الإعجاب بفسيفسائها ومرمرها وأخشابها المنقوشة، وأما آثار السعديين فتتشخص في مجموعة بناءات هندسية من أروع ما يرى ومثل ذات القبور التي تأوى جثث أمراء الدولة وهناك قصر الباهية الذي يستهوى القلوب بما فيه من جنات ذات شكل مغربي وزخارف أندلسية، وقد شيد بالمدينة القديمة باب تعبر بصدق عن أسلوب الموحدين في القرن الثاني

عشر أغرب عيونها عين المواسين وعين (اشرب وشوف).

وتختلف أسواقها بكثير عن أسواق فاس، وفيها فائدة عظمى إذْ يتوجه إليها سكان الأطلس الجبليون وسكان الجنوب تراهم يمشون وسط الحضريين في ظل الأزقة التي يغطيها القصب ومعهم جمالهم وحميرهم، وتشغل كل حرفة من مختلف الحرف والمهن حياً خاصاً بها كارباب صناعة الجلد والخرازين والصباغين والنحاسين والعطارين وفي القيصارية تلفت نظرك منسوجات مختلفة الأشكال، وكثير ما هم باعة المصنوعات القديمة، ويجد السائح عندهم على الخصوص زرابي(٣) شيشاوة مزخرفة بزخارف هندسية غير متناسقة وزرابي آيت واوزكيط ذات ألوان لامعة، وزرابي كلاوة ذات الخطوط المطردة السوداء الداكنة.

ويتنافى مع حركات الأسواق هدوء برك البساتين وأغراس الزيتون الكائنة بأكدال الممتد الأطراف والمنارة، ولنتحدث في الختام عن واحة النخيل التي تناهز ١٠٠,٠٠٠ نخلة ممتدة في مساحة قدرها ١٣,٠٠٠ هكتار وتكتفي جميعها عن سطوح المدينة وتحد ا لبصر في الأفق سلسلة جبال الأطلس الشاهقة المكتسية قممها بالثلوج ويساعد الجبل القريب من المدينة على القيام بجولات مختلفة.

إنتهى.

في مدينة مراكش:

وصلنا إلى (مراكش) في السابعة والنصف والشمس تكاد تسقط في (المغرب) ركبت سيارة أجرة قلت لصاحبها: إنني أريد فندقاً جيداً يكون نظيفاً ولا يكون إفرنجياً خالصاً، فدلني إلى:

فندق الشمس:

وقال هذا الفندق كما طلبت، والحقيقة أنني وجدته كما ذكره مع أنني لم أسمع باسمه من قبل فهو رخيص الأجرة إلى درجة لا تصدق لأن أجرته الأصلية (١٤٠) درهماً خفضوها إلى ١٠٠ درهم من أجل الجواز السياسي فأصبحت تساوي ٤٠ ريالاً سعودياً فقط.

مع أنه من ذوات النجوم الأربع، وفيه كل مرافق فنادق الدرجة الأولى.

ومن أجمل ما فيه موقعه فهو مجاور لمنارة الكتبية التاريخية، وإن يكن بابه من جهة خلفية معاكسة، ولذلك يعتبر داخل مدينة مراكش لكنه ليس في داخلها الشعبي المزدحم.

---

٣ الزرابي: السجاد.

وكنت قد أحسست بالتعب من الجلوس في الحافلة هذه المسافة الطويلة فتناولت العشاء في مطعم للفندق جميل في حديقة ترفرف عليها فروع النخيل: نخيل التمر الباسقة وليس نخيل الزينة العقيم الذي يكثر في الرباط والدار البيضاء.

وهو بجانب بركة واسعة للسباحة، وقد وضعوا الموائد في الهواء الطلق، وكان اللطف في المعاملة، والمبالغة في المجاملة، أو هكذا رأيته وإن كان الإخوة المغاربة ينطلقون في ذلك عن سجية لهم وليس عن تكلف هو السائد.

يوم الأربعاء ١٤٠٥/٥/٩هـ:

صباح مراكش:

رأيت مما حول الفندق في الصباح غير ما رأيته أو غير ما لم أره في الظلام، وذلك من شرفة لغرفتي واسعة فيها مائدة ومقاعد تطل على حديقة الفندق التي ترفرف فيها عسبان النخيل، ويطرد فيها ماء البركة الواسعة، وإن كان بالنسبة لي وأمثالي من الذين ينفرون من الماء البارد أضيع من قمر الشتاء، لأن الوقت وقت الشتاء ومن الذي منا يقترب من البركة في هذا الفصل؟

وكانت أولى التحايا من فتى في الاستقبال رأيته في هذا الصباح، ولم يكن موجوداً عندما وصلت البارحة.

وابتسامات أخرى صادرة عن طبع وليس عن تطبع من فرَّاشات الفندق اللائي بكرن إلى أعمالهن، والإذاعات العربية التي تؤنس العربي إذا كان مثلي قادماً لتوه من بلاد أعجمية، وليس المراد من ذلك تلك الإذاعات الأجنبية التي تذيع بالعربية، يهدف أصحابها إلى التأثير على عقول المستمعين وإن كانت مع الأسف الشديد أكثر صدقاً عن بعض إذاعات المسلمين الرسمية، وإنما مرادي بالإذاعات العربية التي استمتعت بالاستماع إليها هذا الصباح الإذاعات العربية كإذاعات المغرب وإذاعة الجزائر.

ثم (المشراق) الذي استمتعت به ولم استمتع به منذ سنين، وهو الجلوس في الشمس بعد شروقها طلباً للدفء في الشتاء.

وهذا الجو المراكشي اليوم هو شتوي بارد وإن لم يصل برده إلى قسوة البرد في مدينة (بريدة) التي ولدت ونشأت فيها.

وزادني استمتاعاً بذلك أنني أشعر الآن أنني في عطلة بعد أيام العمل الحافلة التي مرت عليَّ في عدة بلدان إفريقية ذكرت العمل فيها في الكتب التي كتبتها عن إفريقية.

ومما أضاف للمجلس في الشمس (المشراق) متعة على متعة أنني أرى من شرفة غرفتي صومعة أندلسية وهي المئذنة أو المنارة تكون مربعة الشكل، وليست مدورة كما هوعليه الحال في مآذن المساجد عندنا، ونخيل باسقة نحيلة ترى على البعد والقرب ذكرتني بالنخل السحوق في بلادنا قبل ٤٠ سنة.

ومع النخيل في هذه المدينة أشجار الرُّمان التي قرن الله سبحانه وتعالى ذكرها بذكر النخل في آية كريمة من سورة الرحمن (ونَخْلٌ ورُمَّانٌ فبأي آلاء ربكما تكذبان).

وتمشية الصباح:

بعد تناول طعام الإفطار في الفندق انطلقت في تمشية عجلى على المنطقة القريبة من الفندق، وكان أكثر ما دفعني إلى ذلك رؤية منارة (الكتبية) التاريخية التي يقع الفندق بجانبها.

ومن الطريف أنني وجدت بجانبها (السَّقَّاء) أو بائع الماء، وهو يحمل معه الماء في قربة طويلة غير واسعة، كما يحمل معه أواني الشرب التي تشبه الأواني التي يحملها بائع العرقسوس في البلدان العربية المشرقية.

وتقع منارة الكتبية أو صومعة الكتبية كما يسمونها في أرض فضاء واسعة كانت كلها مشغولة بأبنية تاريخية لا تزال أساساتها وبقايا من بقاياها موجودة، وقد تناثرت فيها النخيل الباسقة.

ولم تقف بي رجلي عند (الكتبية) ومنطقتها وإنما أطلقت لها العنان مع شوارع وأسواق ملاصقة لها من جهة الشرق فكانت مما أثار استغرابي أن اللافتات التي على المتاجر والمحلات الكبيرة هي بالعربية وحدها أو مقرونة بالفرنسية وليس من بينها ما هو مكتوب بالفرنسية أو بالبربرية إن كانت البربرية تكتب- ومع ذلك هي غريبة على مثلي لأن فيها تعبيرات لم نألف رؤيتها قراءة ولا سماعها لفظاً.

وأما النظرة الأولى إلى الناس في هذه المدينة فإنها دلت على أن سكانها يمكن أن يوصفوا بانهم أخلاط فيهم البيض والسمر وحتى السود على قلة، والسبب في ذلك هو قربها من الصحراء، حيث يوجد البدو من العرب والبربر وبعدهم السود، وقربها من جبال الأطلس الباردة حيث يقطن الشلوح وغيرهم من البربر الذين يتميزون ببياض اللون إلى جانب أهالي مراكش القدماء الذين ازدادت ألوانهم وضوحاً بسبب بعد عهدهم بالتعرض للشمس وقشف البادية.

لا يعدم المرء هنا رؤية شخص أو أشخاص يستجدو ن (يشحذون) ولا رؤية أناس تظهر عليهم علامات نقص التغذية، مما يدل على أنهم لا يجدون الغذاء الكافي أو أنهم ليس لديهم الوعي الذي يحملهم على التغذي تغذية حسنة.

وأمعنت في السير في شوارع المدينة فوصلت إلى قلبها حيث كثر الناس، وزاد الزحام، وتجلت المدينة كبيرة تجارية محافظة على القديم أكثر من غيرها من المدن التي رأيتها من المغرب في هذه السفرة ورأيت المقاهي- جمع مقهاة- كثيرة منتشرة في المدينة، كما لاحظت أن الذين يظهر من حالهم أنهم عاطلون عن العمل كثير، ولا أدري أسبب ذلك عدم

حصولهم على عمل بحثوا عنه فلم يجدوه أم أنهم لسبب من الأسباب قد يكون سبباً من تلقاء أنفسهم لا يبحثون عن العمل أو أنهم لا يرغبون في العمل ايثاراً للراحة.

أما ملابس الناس هنا فإنها تدل على أنهم أكثر محافظة على القديم في اللباس من أهل الرباط والدار البيضاء إذ يكثر فيهم لابسو البرانس- جمع برنس، بل يكاد يكون لابسو البرانس في أكثر الأسواق أكثر من لابسي اللباس العالمي المسمى بالإفرنجي، ولابد هنا من القلنسوة وهي هنا الطاقية أو الطربوش على رؤوس الرجال تحت أعلى البرنس الذي يغطي الرأس ويكون متصلاً به من جهة الرقبة.

والقول كذلك في ملابس النساء اللائي يلبسن أيضاً نوعاً شبيهاً بالبرنس وليس به، يسمونه (الجلابة) كأنها مؤنث (جَلاَّب) بمعنى جلباب.

وبذلك تكون المناظر في هذه البلدة المغربية المحافظة غريبة على النظر، وهي بذلك جديرة بالزيارة، بل إنها بدت في عيني لأول وهلة جديرة بالإقامة فيها للإجازة ونحوها.

ولا أدري لم ألَّح على خاطري شعور بأنني الآن أتذكر الأندلس، مع أن مدينة مراكش هي من أقل المدن التي هاجر إليها الأندلسيون في مدن المغرب العربي.

ويلاحظ المرء أيضاً أن مظاهر الترف هنا أقل منها في الرباط وفي الأحياء التجارية في الدار البيضاء.

الأبنية التاريخية:

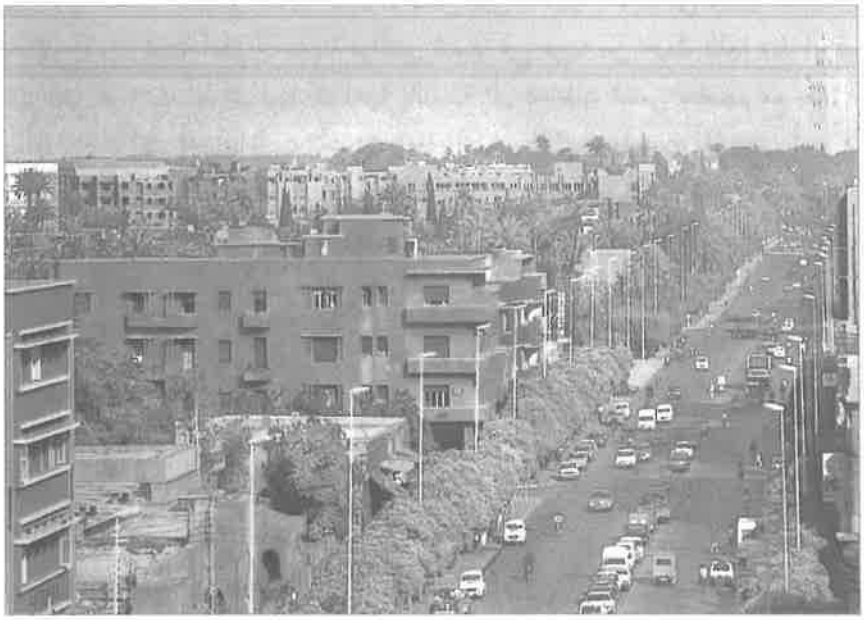

مراكش الحمراء

أهل المغرب حكومة وشعباً من أكثر البلدان العربية محافظة على الآثار القديمة، بل إنهم يسعون دائماً في صيانتها وفي إبقائها على حالتها القديمة حتى يتمثل من يراها البناء كما كان عليه في القديم، فإذا أضيف إلى ذلك استعمال اللباس الوطني القديم كان ذلك أدعى لتمثل الماضي المجيد لهذه البلاد ولشعبها العريق، إضافة إلى كون المعرفة مطلوبة لذاتها أيضاً بطبيعة الحال، لذلك استمتعت برؤية عدد من الأبنية الأثرية في المدينة، وإن كان ما رأيته حتى الآن يعتبر قليلاً بالنسبة لما تحفل به المدينة من المباني الأثرية القديمة.

والجو هنا الآن جيد فالفصل هو فصل الشتاء ولكن الشمس ساطعة ولذلك البرد خفيف ومع ذلك فإن آثار الشمس موجودة في وجوه الناس، لأن بعضهم يتشرقون أي يجلسون في الشمس التماساً للدفء.

وعندما تعبت من السير جلست في مقهاة عامة على كاس من الشاي الأخضر (المنعنع) بدرهم ونصف أي أقل من ريال سعودي واحد.

كان الجلوس في هذه المقهاة ممتعاً فهي في مكان مزدحم يمر الناس به وكأنهم في استعراض من ملابسهم وهيئاتهم، وحتى لغتهم العربية التي لا تسمع لغة غيرها في المدينة.

وكنت ظننت من قبل أن المرء يسمع لغة أخرى غير العربية وهي اللغة البربرية المسماة بالشلحية، لكون المدينة و اقعة في جبال الأطلس التي يسكنها إخواننا من المغاربة المعروفين بالشلوح، وإن كنت أعلم أن مدينة مراكش نفسها هي عربية من حيث اللغة منذ قرون، غير أنني فوجئت ألا أثر فيها للشلحية بالنسبة إلى تخاطب الناس بعضهم مع بعض، وذلك لكون أكثر إخواننا البربر يعتبرون اللغة (الشلحية) لهجة وليست لغة بمعنى أنهم لا يعتمدون عليها وحدها، لذلك نجدهم يتكلمون العربية مع الشلحية، فإذا تكلموا فيما بينهم وبخاصة في قراهم وبلدانهم النائية يتكلمون بالشلحية وإذا تكلموا مع أحد غيرهم وبخاصة من أهل مدينة مراكش تكلموا بالعربية ولا يفرق الغريب الطارئ على البلاد بين أولئك الإخوة من البربر وبين العرب أو المستعربين سكان المدن لأن لون الجميع واحد أو متقارب ودينهم الإسلامي الحنيف يوحدهم، وهم أيضاً بعيدون عن التعصب في هذا الميدان.

ونحن نشاهد مع غيرنا الآن عملية تعريب ضخمة تجري في المغرب الشقيق من دون أن تصاحبها ضجة أو هيلمة كالتي تكون عندنا في الشرق لمثل هذه الأمور، فلا الحكومة تكيل النعوت والمدائح للعربية وتستنقص البربرية ولا العكس.

وهذا التعرب ولا أقول التعريب، وفرق بين القولين آخذ بالطريقة الصحيحة وهي تعريب الأجيال الطالعة التي تكون السكان الفاعلين في المستقبل وهم تلامذة المدارس والمثقفون عن طريق برامج التعليم والتلفزة والإذاعة.

و لاشك أن الأنقياد لهذا التعريب، بل الإسراع نحو التعريب مرده إلى محبة إخواننا ذوي الأصل البربري في اللغة العربية لغة القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وإلى عقلية إخواننا المغاربة أهل المدن الذين لا يتبجحون بالعربية عن طريق طعنهم باللغات الأخرى.

بل إنهم يركزون إذا اقتضى الأمر على كون الإخوة البربر هم من العرب العاربة فأصلهم من حمير الذين هاجر أجدادهم من اليمن إلى إفريقية طبقاً لما ذكره بعض النسابة والمؤرخين العرب القدماء.

كنت أشاهد من (مقهاتي) هذه الأشياء الجميلة العريقة وأنا أتمثل تاريخ هذه البلاد المجيد وبخاصة في العصور المتأخرة التي هي أوقات التأخر والبلادة في أكثر البلدان العربية الشرقية لكونها كانت قد خلت من الابتكار والتجديد، بل إنها تخلت عن القديم المفيد لتقاليد مستحدثة وأشياء ممجوجة ليس هذا مقام ذكرها.

وكنت أقرأ في صحيفة (العَلَم) المغربية لسان حال حزب الاستقلال فكان الوضع بقراأتها يزداد غرابة لما فيها من غرابة في التعبير في بعض المواضع، ولغرابة وأسماء الأماكن

خارج المدن المشهورة التي خفف من غرابة اسمائها شهرتها وكثرة ترديد أسمائها على الألسن مثل (مراكش) هذه، بل مثل (فاس) إذا نسبنا إليها أحداً من العلماء أو حتى شيئاً من أشيائها مع أن الذين عللوا اسمها ذكروا أنه مأخوذ من كلمة (فأس) التي يقطع بها الأشياء، ولذلك قصة في كيفية اختيار موضعها من الإمام إدريس بن إدريس الذي أنشأها في عام ١٩١ هجرية.

ولاشك في أن إخواننا المغاربة يشعرون بالغرابة نفسها تجاه بعض الأسماء والأعلام في بلادنا المشرقية التي لم يألفوا التلفظ بها، ولكنهم يعتادون عليها مع الزمن، وقل مثل ذلك عن اللهجات الموجودة في المشرق.

وأذكر أن بعض الطلبة المغاربة كانوا مجتمعين عند الشيخ الدكتور محمد تقي الدين الهلالي رحمه الله وكنت حاضراً وجرى ذكر النسبة إلى المغرب عند أهالي المدينة فضجوا كلهم بالضحك لكون الناس هنا يقولون في (مغربي) المنسوب إلى المغرب (مُغْرُبي) بضم الميم والراء بينهما غين ساكنة والباء فيها تنطق مفخمة لا مرققة، ولا شك أنهم على حق في ذلك لأن القياس هو مَغْرِبي بفتح الميم وكسر الراء وترقيق الباء كما هو مقتضى النطق الصحيح في النسبة إلى المغرب.

ولا حاجة إلى القول بأن الاتصالات والعلاقات الوثيقة ما بين البلدان العربية قد خففت من هذه اللهجات عن طريق فهمها ثم محاولة الآخرين النطق باللهجة التي تخالف لهجتهم بلفظ أقرب إلى لهجتهم من اللفظ الأصيل، وذلك ما نحن سائرون فيه الآن، وإن كان أكثره يسير على غير تخطيط مسبق أو سياسة مرسومة من قبل.

والشيء الوحيد الذي يكدر الاستمتاع بهذه الجلسة وأمثالها، بل في الجولة كلها هو وجود بعض المستجدين (الشحاذين) الذين قد يلحون عليك حتى يكدروا صفوك، لأنهم يقطعون عليك حبل تفكيرك ويضطرونك إلى توجيه انتباهك لصرفهم وابعادهم عنك.

مطعم العنبرة:

والعنبرة: مؤنث العنبر: الطيب المعروف، وهذا هو اللفظ الذي ينطق به اسم هذا المطعم، وأما أصل اسمه فلا أحققه لأنه مأخوذ من قصر العنبرة الذي يقع فيه كما يدل على ذلك عنوانه الكامل: (قصر العنبرة طريق سيدي بوشوك، عرصة العايش) وبوشوك: ذو الشوك وأصلها: أبو شوك.

وهو مطعم فاخر على بابه بواب بملابس قديمة عريقة إمعاناً في إظهار أصالة المطعم والإيحاء

للآخرين بالغرابة فيه، إذْ أنها تبدأ من بابه ثم يصعد الداخل إليه مع درج مفروش بالسجاد الثمين كما يكون عليه الحال في القصور الكبيرة المعتنى بها، وقد زخرفوا حيطانه الداخلية بفسيفساء أندلسية شكلوها بأشكال فنية أندلسية بديعة ولكها ملونة بألوان زاهية.

وعندما انتهينا من صعود الدرج وجدنا في الاستقبال مع الداخل رجلاً يرحب بالداخلين ويقودهم إلى أماكنهم التي يرغبون فيها لأن المطعم قد هيأوه على هيئة أجنحة يمكن للأسر أو العامة من الناس الذين يحبون أن يأكلوا غير مختلطين بغيرهم أن يجلسوا فيه وإن كان ذلك لا يخفيها عن عيون الآخرين.

وشخص آخر عند المدخل جالس أمام موقد لصنع الشاي المغربي المغمور بالنعناع الذي يزيدون فيه من السكر ليقاوم مرارة الشاي الأخضر الغليظ إلى جانب كون النعناع ليس فيه حلاوة ويحتاج إذا تحلل في الشاي المغلي إلى تحلية أيضاً.

والخدمة فيه على الطريقة القديمة الممتازة فعلى سبيل المثال أول ما يبدأون به أن يصبوا الماء على يديك وأنت جالس في مكانك لغسلهما، ثم بعد ذلك يأتون بمناشف نظيفة جميلة.

وقد اخترت الطعام المغربي الأصيل وهو الكسكس ولكنهم جاءوا به كثيراً يكفي لثلاثة من أمثالي وأحضروا معه أنواعاً منوعة من المرق بعضها فيه فلفل وبعضها خال منه ومع الكسكس لحم الضأن اللذيذ الطعم، ولا أدري كيف يجعلون للحم الضأن هذا المذاق الشهي، وأما السلطة فإنها الخضراء ومجموعة خضراء أخرى مطبوخة وبعد ذلك الشاي المنعنع.

والخدمة فيه راقية وثمن الوجبة (٩٢) درهماً ويساوي ذلك ٣٨ ريالاً سعودياً.

وعندما رأيت ذلك وقارنته بما هو موجود في الشارع وجدت أنه لا تناسب بينهما، فقلت في نفسي: إن هذا يدل على أن هذا الشعب يستطيع أن ينافس الأوروبيين في النظافة والذوق إذا ما يسرت له الظروف اللازمة لذلك، ومن أهمها قدر معين من الثراء وأن خميرة التمدن الزائدة التي عرفها في تاريخه القديم لا تزال موجودة فيه.

ونزلت من المطعم فمررت بحارة شعبية فيها العربات التي تجرها الخيول.

ولم تطب نفسي بالركوب الذي لا أجد فيه متعة التسكع والوقوف على ما أريد الوقوف عليه إذا أردت فسرت أيضاً.

ولاحظت أن أكثر شوارع المدينة أو كثيراً من شوارعها مزينة بأنواع من الحمضيات هي أشجار الظل والزينة فيها، وبعضها طلعه لا يزال موجوداً فوق أشجاره يشبه المندرين الذي هو اليوسفي لكنه غيره، وقد غرسوه في أرصفة الشوارع.

ولاحظت كثرة الغبار في شوارع المدينة، وذلك أنها واقعة في لحف جبال الأطلس التي

تجرف الأمطار معها الطين، وهي الآن غب مطر ومعه طين الشوارع، وليست لديهم سيارات الكنس التي ترشف الغبار حسبما أظن، وهي موجودة عندنا وهي التي تجعل شوارعنا نظيفة من الغبار، لأنه يصعب كنسه بالمكانس المعتادة لدقته وتطايره عند الكنس.

وعلى ذكر جبال الأطلس أقول: إن المرء يرى بعض تلك الجبال من غرفته في الفندق مثلما أنني أراه الآن من غرفتي.

والمراد بذلك تلك الجبال المتصلة بجبال الأطلس.

مدرسة يوسف بن تاشفين:

مررت مصادفة بمدرسة تحمل لافتة عليها اسم (مدرسة يوسف بن تاشفين) فحملتني في ذاكرة التاريخ إلى عصور الأمجاد يوم كان المسلمون في هذه البلاد هم سادة الدنيا وهم أباة الضيم، وهم كانوا المتبوعين لا التابعين.

ومنهم الإمام يوسف بن تاشفين مؤسس مدينة مراكش هذه في القرن الخامس الهجري: ومن أحق منه بأن تسمى باسمه مدرسة، بل مدارس ومؤسسات في هذه المدينة التي قام هو بتأسيسها؟

وعشاء غني:

لم يكن لدي ما أفعله في مساء هذا اليوم بعد أن تمشيت فيما حول الكتبية ثم جلست على مقعد من مقاعد حجرية تتصل بها مما يلي الشارع، ورأيت طوائف من الأسر المغربية التي تسكن قريباً من المكان قد خرجت في هذه الأمسية لتقضي وقتاً مع الأطفال في فناء الكتبية وكلهم مؤدب مهذب لا تسمع منه لفظاً جارحاً ولا تواجه منه عملاً منتقداً، ولا يتحدث إليك إلا من تكون له حاجة إليك وما من أحد منهم كذلك بالنسبة إلي.

وفي الثامنة ركبت مع سيارة أجرة إلى (مطعم العنبرة) لأتعشى فيه، إذْ أعجبني الطعام والخدمة فيه وجدتهم قد بدأوا بعزف موسيقى مغربية وغناء من مُغَنٍ مغربي غنى أغنيات أندلسية.

ثم غيروه بفن إفريقي كما أسموه، وقد أداه رجال سود، وذلك ما لم أرتح إليه لأنني لا أميل بطبيعتي ولا بصنعتي إلى مثل ذلك ولكن ذلك أفادنا علماً به.

وعندما قدموا الطعام كان وافراً سخياً فقلت للعامل: يا هذا إن طعامكم يكفي ثلاثة رجال هلا نقصتموه؟ فقال: يأتينا أناس من المغاربة يأكلون ضعف هذا، أو على حد تعبيره يأكلون (جوز) أي زوجاً من الأطباق هذه.

يوم الخميس: ١٤٠٧/٤/١٠هـ:

في الفجر:

صحوت مبكراً اليوم وجلست أكتب قبل الصلاة في غرفتي وسرني أن سمعت أكثر من مؤذن يؤذن لصلاة الفجر مع العلم بأن الفندق ليس في وسط المدينة، كما استمعت إلى نشرات الأخبار العالمية التي كانت تأتي إلينا في بلادنا متأخرة في الصباح وهنا تصل قبل الفجر، ومازال الليل هو المسيطر.

وقد تناولت طعام الغداء اليوم في مطعم حديث في المدينة وجدت أن جميع القوائم والكتابات الأخرى فيه هي بالفرنسية، وعجبت من ذلك، وكيف أن الشعب كله يعرف العربية بل هي لغته ومع ذلك تكتب القوائم بالفرنسية واستنتجت من ذلك أن المثقفين والأثرياء منهم يعرفون الفرنسية أو أن هذا المطعم مخصص للسياح الفرنسيين بمعنى أن أكثر الآكلين فيه منهم.

وبعد الظهر كنت جالساً في حديقة الكتبية فجلس إليَّ طائفة من التلاميذ ما لبث أن جلس إليهم تلميذات في سن السابعة عشرة والثامنة عشرة ومع بعضهم كتب استعاروها من (خزانة البلدية) والمراد بذلك المكتبة العامة بإصطلاح عوام الكتاب عندنا، فنحن كنا في الشرق نسمي المكان الذي تحفظ فيه الكتب للمطالعة والانتفاع خزانة ونسمي الذي تباع فيه الكتب: (وراقة) والبائعون فيها هم الورَّاقون، أما عندنا الآن فقد أخذ الناس يسمون الجميع (المكتبة) على اعتبار أنها موضع لتجميع الكتب، ولكن تجميع الكتب في مكان معين يكون لغرضين، إما لبيعها وهذا هو الذي يصح أن يسمى (مكتبة) وهي تقابل (بوك شوب) بالإنكليزية أو لحفظها للانتفاع بها وهذه يجب أن يكون اسمها (خزانة) كما كان أسلافنا في المشرق يسمونها وهي تقابل كلمة (ليبرري) الإنكليزية.

أما إخواننا المغاربة فإنهم حافظوا على تسمية النوع الأخير بالخزانة وهذا هو الصحيح، والذي أفرحني أن تكون هذه الكتب بالعربية وأن يكون الطلبة استعاروها من أجل الاستفادة منها وجاءوا إلى ميدان الكتبية هذا الذي هو واسع وصالح للمطالعة إذا خلا المرء من وجود من يعرفه فيعوقه عن القراءة.

أما أنا فإنني كنت قد جلست في مكان منعزل أكتب، فجلس بالقرب مني بعض الطلبة والطالبات، ثم كثر عددهم حتى صاروا قريباً مني، وكنت مللت الانصات إلى نفسي، وودت أن أ نصت إلى حديث الآخرين، فوجدت من هؤلاء الطلبة والطالبات اسراعاً إلى الكلام فتحدثت إليهم والحديث كله بالعربية لا فرق فيه بين أن تتحدث مع أناس من سوريا

أو مصر وبين أن تتحدث معهم لأنهم من طلاب المدارس الذين د رسوا بعربية حديثة تكاد تكون فصيحة، وما وجدت أي أثر للعجمة عندهم، وخُيِّل إلي أن سبب ذلك أنهم من أهل مدينة مراكش التي هي عربية بطبيعتها ومنذ قرون بسبب كونها دار علم وأدب، و لكنني بعد أن سألت طائفة منهم ذكروا لي أنهم من البربر وأن أهاليهم يتكلمون البربرية داخل بيوتهم إلا أنها في تقلص، فهم وإن كانوا يعرفون شيئاً منها ويتكلمون به مع من يتكلم معهم بالبربرية، فإنهم يفضلون الحديث بالعربية فهي أسهل عليهم.

وكثير منهم ذكروا لي أنهم يتوقعون أنهم آخر من يتكلم البربرية من سلسلة نسبهم لأنهم سوف يتكلمون بالعربية حتى في داخل البيت فينشأ أولادهم عليها.

والغريب المفرح أنني لم ألمس أي تعصب منهم للبربرية ضد العربية، بل هم أخذوا الأمر على طبيعته بدون تعصب حتى للعربية.

هذا هو ما ظهر من حال هؤلاء الطلبة الذين يمثلون في الغالب المرآة الحقيقية للمستقبل ولكونهم أيضاً لا يخفون ما يعتقدون بحكم أسنانهم، وبحكم ما يسمعونه من أهاليهم في بيوتهم.

ولاحظت أن الأسماء التقليدية القروية، وبخاصة أسماء البنات التقليدية قد حلت عندهم محلها أسماء عربية حديثة لم نكن نحن نستعملها إلاّ مؤخراً مثل فوزية وأسماء وفريدة وعجيبة، إضافة إلى المحافظة على الأسماء العربية القديمة مثل (لطيفة) التي نسعمل مثلها بالضبط وليس لطفية التي تتسمى بها بعض المصريات.

وطبيعتهم في سهولة الأخلاق وعدم الانكماش من الغريب مثل غيرهم من المغاربة وربما كان مرجع ذلك في الأصل إلى الطبيعة الودية التي يتحلى بها المغربي البربري.

ولاحظت من هذا اللقاء ومن لقاءات أخرى مع المغاربة أن الفخر الظاهر في أقوالهم وأفعالهم غير موجود مثلما هو موجود عند الموريتانيين وعند أعراب الجزيرة العربية فهؤلاء الأعراب يكادون يفتخرون فخراً عظيماً بأي شيء حتى يصل الأمر إلى المبالغة الممجوجة كقول أحد الفاخرين:

عطست بأنفٍ شامخ وتـنـاولـت يـداي الثريا قاعـــداً غير قائم

وعرفت سبب ازدحامٍ هذا الميدان وهو أن امتحانات نصف السنة قريبة، وفيما يتعلق باللغة الذي ذكرته هو في التخاطب مع المتعلمين وأما العامة والأميون فإن التخاطب معهم بالعربية فيه صعوبة لمن يتصل ببهم لأول مرة ولا يعرف اللفظة التي يستعملونها من المترادفات العربية لأنهم يستعملون ألفاظاً عربية صحيحة والكلمات الأعجمية في لغتهم

قليلة ولكنهم يستعملون في كثير من الأحيان ألفاظاً وكلمات لا نستعملها نحن، وبعضها موجود في المعاجم العربية فقط وهذا سر الصعوبة في التخاطب معهم، إذا لم نكن نعرف اللفظ الذي يستعملونه، ولكن مثلي ممن درسوا الألفاظ العربية المعجمية قد يسهل عليهم في كلامهم، وإنما الصعوبة فيما إذا أردت أن أتكلم معهم لمعنى لا أدري الألفاظ التي يستعملونها له فلا يكفي أن أذكره باللهجة التي استعملها أو حتى باللفظ المستعمل عند المتعلمين.

وفي مرات عديدة كنت أذكر كل الألفاظ العربية المترادفة للمعنى حتى أعثر على لفظ يفهمونه، وذلك أنهم يستعملون جزءاً من المعجم العربي فيه ألفاظ لا نستعملها، ونحن كذلك بالنسبة لهم مع أن لهجتهم مثل لهجتنا ترجع إلى اللغة العربية الفصيحة.

ولم أخرج في هذا المساء عن المنطقة القريبة من فندق الشمس الذي أسكن فيه إلا في الساعة التاسعة، حيث ذهبت إلى داخل المدينة أبحث عن مطعم شعبي مناسب فرأيت بعض أكوام القمامة تحرق في الأماكن المتسعة من أطراف المدينة في حين كان المطلوب أن تحمل بعيداً وتحرق هناك كما هي العادة في جميع المدن الحديثة.

وقد اختلط دخان القمائم المحترقة مع غبار الشوارع الدقيق الذي آثارته السيارات فصارت رائحته تؤذي الأنوف والعيون.

يوم الجمعة: ١٤٠٥/٤/١١هـ:

إلى جامع الفتح:

سألت عن الجامع القديم الذي يمكن أن أجد بقربه مطعماً أتغدى فيه ثم أصلي الجمعة، وذلك أن الجمعة عندهم تكون في الساعة الثالثة من توقيتهم العجيب الذي لا يتفق مع ما نعرفه عن موقع بلادهم المغربية فالمفروض أن تكون مساوية في التوقيت لقرينتش، غير أن توقيتها الآن مساوٍ لتوقيت القاهرة أي أنه متقدم على توقيت قرينتش بساعتين، وقد ترتب على ذلك أشياء غير مألوفة لنا مثل كون أذان الفجر في السابعة وشروق الشمس في الثامنة والنصف، وأذان الظهر في الثالثة والنصف، واليوم ذكروا لي أن صلاة الجمعة هي في الثالثة.

ويقع جامع الفتح على (ميدان الفنا) أشهر ميادين مراكش وتنطق عامتهم باسمه بفتح الفاء فيلفظ كلفظ الفناء ضد البقاء والصحيح أنه بكسر الفاء من فناء الدار والمحلة، وهو المكان المتسع الخالي من العمارة بين البيوت أو بجانبها.

و(ميدان الفِناء) يحتاج الكلام عليه إلى فصل مخصص له.

ركبت سيارة أجرة وقلت لسائقها: إلى ميدان الفناء، ثم قصدت مطعم الفتح بجانب جامع الفتح فتغديت غداء رخيص الثمن، ثم أخبرتهم أنني أريد الوضوء لكي أصلي في جامع الفتح فأحضروا لي ابريقاً فيه ماء ساخن ودخلت المسجد الذي وجدته مليئاً بالمصلين، بل إن كثيراً منهم كانوا جالسين في الشمس في انتظار الصلاة فذهبت أبحث عن مكان في الداخل لأنني لا أطيق الجلوس في الشمس رغم كون الفصل هو فصل الشتاء فوجدت مكاناً لي في الداخل بعد طول بحث.

ميدان جامع الفنا في مراكش تطل عليه مئذنة الجامع

أذن المؤذن أذاناً معتاداً، ولكنه عندما فرغ قام شخص آخر في مكان متأخر عن الصف الأول فأذن أذاناً ثانياً، ثم أذن مؤذن ثالث أذاناً لا يختلف عن أذان اللذين قبله.

ثم ألقى خطيب الجامع خطبة فصيحة بل بليغة دعا في أثنائها لملك المغرب وذكره باسمه وألقابه فقال سيدنا ومولانا الحسن بن سيدنا ومولانا محمد الخامس.

وقد لاحظت أن القوم رغم كون مذهبهم هو المذهب المالكي الذي يرى السدل في الصلاة فإن بعضهم كان يصلي قابضاً يديه ولكنهم الأقل والأكثر هم الذين يسدلون والسدل أن يترك يديه وهو واقف للصلاة مدلاتين بجانب جسمه من دون أن يرفعهما إلى أعلى، والقبض أن يرفع يديه فيضعهما على صدره أو على سرته قابضاً بإحداهما على الأخرى.

وقد خرجوا فور انقضاء الصلاة، فلم يتريثوا لأداء السنة مثلاً في المسجد، إلا أن طائفة منهم قليلة بقيت في المسجد وصاروا يدعون مع الإمام فيما يشبه حلقة الذكر.

ميدان الفنا:

رجعت إلى الفندق بعد الصلاة وذلك في الرابعة إلا الربع، وبعد العصر عدت إلى ميدان الفنا الذي هو قلب مراكش وهو لها مثل قوس النصر في باريس بحيث أن الذي لم ير جامع الفنا كأنه لم ير مدينة مراكش.

ومن الطريف أن أحد المتفاصحين قال لي: إن اسمه القديم الصحيح هو ميدان الفنون حرفه المتأخرون فصار (الفنا) وهذا غير صحيح وإنما اسمه ما قدمت ذكره.

وهو ميدان واسع مليء بالباعة الذين يعرضون بضائعهم العجيبة على الأرض ومنها الصناعات التقليدية في البلاد والمصنوعات الجلدية والسيوف والخناجر وحتى الرماح والسهام والطبول التي لابد من أن يقرع بعضهم بعضها، وقرع الطبول فيه وسيلة من وسائل الإعلان ولكنها تقرع أيضاً لغير ذلك، إذْ تنتشر في الميدان فرق من فرق الألعاب الشعبية التي منه الرقص على إيقاع الطبول، وحتى على وقع حوافر الخيل.

ومن الطريف أن بعض الذين يرقصون على أنغام الآلات الموسيقية رقصات شعبية يطلبون من المارة والمتفرجين أن يشاركوهم الرقص، فبعض المارة يفعل ذلك وبعضهم يرقص رقصاً غير متقن وهناك المهرجون الذين صبغوا وجوههم بأصباغ غريبة يعرضون فنهم أيضاً، وذلك كله في الميدان المفتوح والجميع يطلب ممن يرى فنه أن يضع في إناء معه شيئاً فمن أعطى شكروه، ومن لم يعط تركوه ولم يلحوا عليه.

ومن ألطف ما رأيته فيه منظر (الحاوي) وهو صاحب الحيات الذي يعرضها على الناس، وقد دربها على أن ترفع رؤوسها عند ما يقرع قرعات معينة من طبل صغير معه، والحيات التي معه كبيرة الحجم، ولو كانت سامة فإنها سوف تقتل من تلسعه، ولكن الأغلب أن تكون من النوع غير السام، أو أن يكونوا احتالوا عليها فنزعوا نابها التي تلسع به والأول هو الأقرب.

وفي هذا الميدان ينتشر باعة الأطعمة الشعبية الخفيفة، والناس يتناولون منها ما يحتاجونه وأسعارهم رخيصة ولكن نظافة أطعمتهم ليست بذاك.

والواقع أن هذا الميدان هو ميدان رائع وقد استمتعت بما فيه إلاَّ أن الذي كدر عليَّ ذلك أن المؤذن أذن لصلاة المغرب، فذهبت للصلاة في مسجد على الميدان نفسه يسمونه (مسجد خربوش) وخربوش مثل لفظ الخربوش المعروف عندنا وهو البيت الصغير من الشعر- بفتح العين- يكون لأهل البادية، ولا أدري عن أصل تسمية المسجد (بخربوش) هذه، وربما كان اسم رجل منقول عن اسم بيت الشعر الصغير هذا مثلما عليه الحال عندنا، حيث يوجد أناس يسمون بخربوش، ويحضرني منهم اسم شاعر عامي شهير في منطقة حائل اسمه (فرج بن خربوش).

وهذا المسجد (مسجد خربوش) هو ثاني مسجد واقع على هذا الميدان، أما المسجد الآخر فهو (جامع الفتح) الذي صليت فيه الجمعة اليوم.

وقد رأيت أناساً تركوا الميدان ودخلوا للمسجد لأداء الصلاة فيه، ولكن عددهم قليل بالنسبة إلى الذين بقوا في الميدان لا يبالون بالصلاة أو هم لا يبالون بأدائها في وقتها في المسجد، وقد يكون بعضهم يصليها بعد ذلك، وهذا لا يجوز ولكن بعض الناس يترخصون به فيفعلونه تعللاً بالعمل.

وعندما قضيت الصلاة عدت إلى (ميدان الفناء) فوجدته مزدحماً بالناس مليئاً بالباعة والمشترين والمتفرجين والمتسكعين.

وقد تناولت طعام العشاء في شرفة مطعم يطلُّ عليه فأحضروا (الحريرة) وهي الحساء ولفظها عربي فصيح، ثم الكسكسو، وقد أحضروا ذلك كثيراً في أوان كبيرة قد ملأوها منه فقلت لهم: إن هذا كثير فقالوا: هذا هو المعتاد عندنا وتستطيع أن تأكل منه ما شئت.

وقد أذن لصلاة العشاء وأنا أفرغ من طعامي فخيل إليَّ وأنا أسمع المؤذن أنه أحد المؤذنين في قرى نجد، وذلك لقرب لفظه بالأذان من لفظه وعدم مبالغته في المد فيه.

يوم السبت: ٤:١٢/١٤٠٥هـ:

جولة في مدينة مراكش:

وهذه الجولة شملت أنحاء من مدينة مراكش وهي مع سائق سيارة أجرة بستين درهماً للساعة الواحدة، وقد قال: إذا زدتني فإنني أوريك أولياء الله الصالحين كلهم، ومعنى ذلك أنه سوف يريني جميع قبور أو مشاهد الذين يقولون إنهم من الأولياء، فاتفقت معه على أن يريني كل ما يهم مثلي من السياح أن يراه.

بوابة قديمة في سور مراكش

قبر يوسف بن تاشفين:

كان البدء بزيارة قبر يوسف بن تاشفين والسلام عليه سلاماً شرعياً وهو حقيق أن يبدأ زيارته قبل غيره لأنه هو مؤسس مدينة مراكش هذه.

ولم ندخل إلى داخل ضريح يوسف بن تاشفين لأن الباب كان مغلقاً ولكنني رأيت القبر في الداخل مرفوعاً عن الأرض بمقدار شبر أو نحوه، وهذا البناء الذي عليه الآن هو حديث، ولم يبن لغرض اعتقادي أو ديني، وإنما هو لحفظ قبر يوسف بن تاشفين مؤسس مدينة مراكش.

باب القصبة:

القصبة في اصطلاح المغاربة هي قلب المدينة، أي خلاف ضواحيها، وأرباضها، وقد اتخذ مدلولاً جديداً اشتهر في العصور المتأخرة فصار يعني القلب المرتفع من المدينة القديمة.

وصلنا باب القصبة وقد يسمى باب (قناو) ومنه يدخل الداخل إلى سوق القصبة وهو سوق قديم يصح القول إنه سوق تاريخي مثل كثير من الأبنية والمحلات في مدينة مراكش.

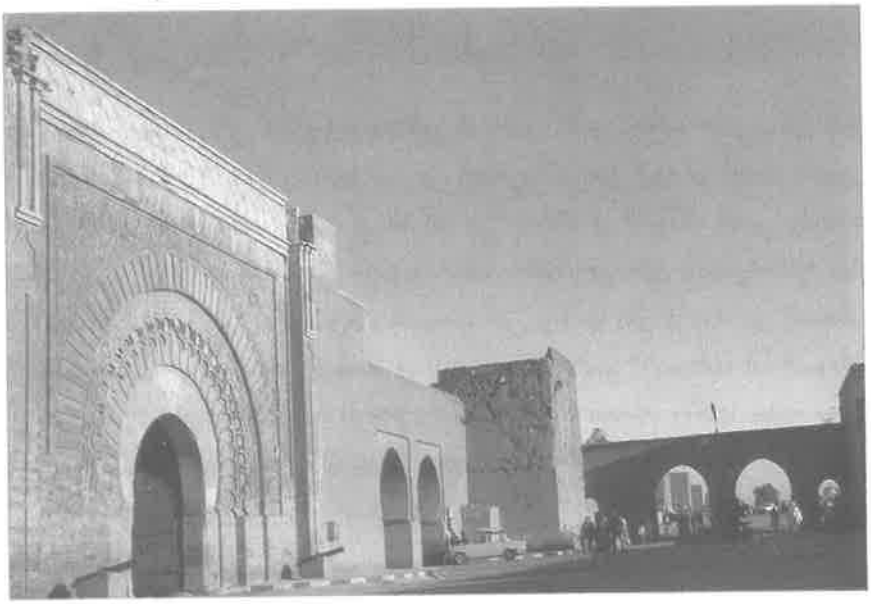

باب أقساو وما حوله في مراكش

وباب الرب:

وهذه التسمية الغريبة لهذا الباب (باب الرب) ذكروا أنه سمي بذلك لكون المقبرة فيه، ولأنه لم يكن فيه سكان في وقت من الأوقات.

دخلنا مع شارع القصبة الضيق الذي يفضي إلى جامع (مولاي اليازي) والحقيقة أنه قطعة من التاريخ شردت من القرون القديمة واستقرت في هذا المكان.

وحسناً فعل إخواننا المغاربة فيه وفي أمثاله حينما حافظوا على قدم القديم حتى غدا تحفة التحف في العصر الحديث.

و(جامع مولاي اليازي) هو قطعة ثمينة من الفن الإسلامي بصومعته الزاهية الألوان

بخلاف المبنى نفسه، فإنه مطلي بالأحمر لون مدينة مراكش التي اكتسبت بسببه صفة المدينة الحمراء، وتكثر في هذه المنطقة رؤية المتنقبات وهن النساء اللائي يضعن النقاب على وجوههن، بحيث لا يرى منها إلا العينان، وهذا أكثر ما يرى على المسنات والمتوسطات في العمر، ولكن الشابات أيضاً عليهن لباس إسلامي ساتر وإن كان الوجه سافراً فإنه لا يرى منه إلا الجزء الأمامي.

وتزين بيوت المنطقة شرفات أندلسية عربية مميزة.

قبور السعديين:

بجانب (جامع مولاي اليازي) توجد قبور السعديين الذين حكموا المغرب من سنة ٩١٥هـ، إلى سنة ١٠٥٦هـ، وكان ما استرعى انتباهي أكثر من غيره قبر أحمد المنصور الذهبي لأنني كنت قرأت وتمعنت في القراءة عن حملاته في السودان الغربي واتخاذه مدينة (تنبكتو) التاريخية في مالي عاصمة لحكمه هناك، رغم عائق الصحراء الإفريقية الواسعة التي تفصل بين المغرب وبلاد السودان التي يراد بها مالي وأجزاء من السنغال والنيجر وشمال نيجيريا، وهي المسماة في التاريخ بهذا الاسم (السودان) أما السودان الشرقي الذي عاصمته الآن الخرطوم فإن تسميته بذلك محدثة، ولكنها حلت محل التسمية السودانية القديمة للسودان الغربي، بحيث نسيت الآن أو كادت، وقد مات أحمد المنصور في عام ٩٨٦هـ.

وكذلك قبر الذي قاد معركة وادي المخازن التي قتل فيها ثلاثة من الملوك ونسيت اسمه.

ولم نستطع الدخول إلى الجامع لكونه مغلقاً من أجل الترميم.

ضاحية في مراكش يبدو فيها النخل الرَّيان

ومما يجدر ذكره أن الذي بنى المسجد هو (مولاي المنصور الذهبي) المذكور، ولذلك كان قبره بجانب المسجد، وهو معتنى به ومبني عليه بناء بدعي كأكثر القبور في هذه البلاد، ومنها قبور بعض الذين يعتقد بعض الناس فيهم الولاية- بفتح الواو- وقريب من قبر المنصور الذهبي قبور لأناس من أسرته ومماليكه.

وقد قرأت على أحد القبور جملة نصها: (مملوك مولاي الحسن رضوان الله عليه، توفي يوم الجمعة) هكذا.

وقد خص قبر والدته ببناء خاص تميز به قبرها واسمها (لالا مسعوده).

وجميع هذه الأبنية مزخرفة بل مبالغ في زخرفتها مما يستحق معها أن تزار لرؤية هذه الأبنية وما فيها من فن مغربي أصيل هو الفن الأندلسي في الأصل، وإن كنا لا نقر البناء على القبور وزخرفتها، ولو سماها مُسمّ بأنها (تاج محل) المغرب لما أغرب في ذلك.

باب الملاح أو حارة اليهود:

وصلنا إلى محلة تسمى (باب الملاّح) وهي حارة اليهود، وكانوا كثرة فيها إلا أن معظمهم غادروها إلى فلسطين المحتلة أو فرنسا، ولم يبق منهم فيها إلا القليل.

وجعل السائق يتلفت يريد أن يريني أحداً من اليهود الباقين في المحلة حتى رأى شقة في طابق ثان تطل منه طفلة قال: هذه يهودية وأهل البيت من اليهود الذين بقوا هنا، وبجانب باب الملاّح (قصبة النحاس) كان يباع فيها النحاس، ويسكن فيها اليهود أيضاً.

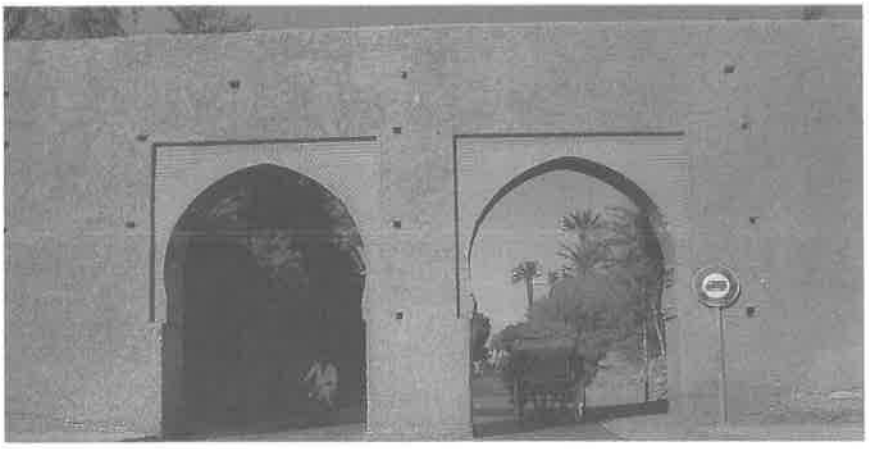

الباب الجديد في مراكش

... وصاغة الملاَّح:

ولا يزال بعض اليهود فيها يصوغون الذهب والفضة ومع ذلك هم أقلية بين الصاغة- جمع- صائغ- قال: ولا يضع الصاغة من اليهود لافتات على محلاتهم، ولكنهم معروفون في هذا السوق.

وأشار في هذا السوق إلى ثلاثة أحدهم كبير السن والثاني رجل والثالث طفل، وقال: هاهم اليهود، ولم أرهم يتميزون بلباس أو غيره، وقال: نحن نعرفهم، حتى إن الرجل المسن على رأسه قلنسوة (طاقية) بيضاء معتادة كالتي يلبسها المغاربة، إلا أنني رايت بعد ذلك يهودياً عليه طاقية سوداء متميزة لا يلبسها إلا اليهود، ذكر السائق أنه هو الذي يذبح لهم.

وغني عن القول أن السائق مسلم فإخواننا المغاربة كلهم من المسلمين ولم يكن يوجد بينهم من أرباب الديانات الأخرى إلا تلك القلة من اليهود الذين جاء معظمهم من الأندلس مع المسلمين عندما استولى عليها الإسبان وطردوا منها العرب.

واسم السائق (الحسين بن إبراهيم حنَّاش) وقال: حنَّاش من الحنش الذي هو الحية.

وتقابل الصاغة (الباهية) وهي محلة فيها آثار مهمة كثيرة لم يتسع الوقت للوقوف عليها، بل إننا اضطررنا إلى الوقوف قليلاً بسبب المطر.

وعندما رأيت الآثار ومحافظة المغاربة على ما هو قديم، بل وصيانته قلت في نفسي: إن المغرب قيمته للعرب هي قيمته التاريخية والحاضرة المعروفة ولكنه ثمين أيضاً لما يحويه من الآثار ومن الخلال الحسنة في المحافظة عليها.

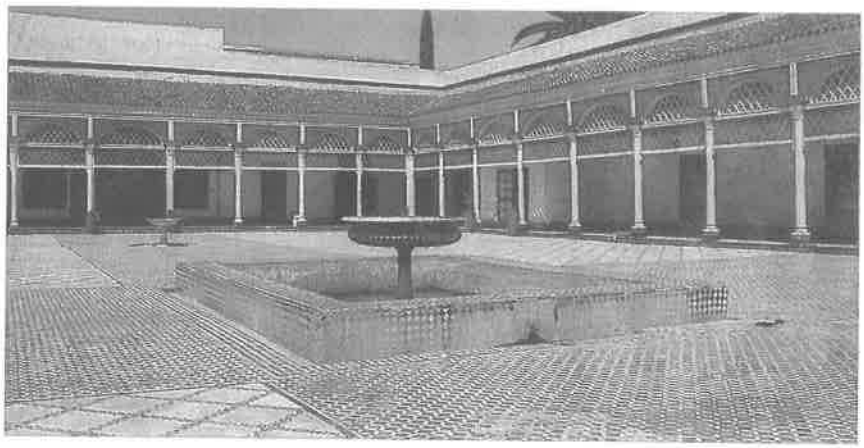

داخل قصر الباهية في مراكش

مطعم الفتح:

قصدنا جامع الفنا ولكننا قصرنا دونه حيث تركت سيارة الأجرة ودخلت مطعماً مغربياً أصيلاً اسمه (مطعم الفتح) جدرانه مجللة بالفسيفساء الأندلسية والنقوش الأصيلة من الفن الذي كان يستعمله المسلمون في المغرب والأندلس.

وقد رأيت طوائف كثيرة من السياح الأوروبيين يأكلون فيه يتمتعون بالطعام المغربي المتميز بالطعم الجيد والتقديم الذي يتسم بالذوق.

وجاءوا بما طلبته منهم صحناً مغطى بغطاء من الفَخَّار، فيه مع اللحم الخضرات والبهارات يحوم فوقه بخاره وتحوم رائحته الذكية فتحملُ على الأكل منه حتى من دون جوع، وجاءوا بصحن آخر فيه الخضرة والزيتون المطبوخ وما علمت أن الزيتون يطبخ قبل هذا، لأن بلادنا ليست بلاد زيتون و إنما عرفناه عن طريق الاستيراد، فكنا نأكله أثناء الطعام وبخاصة في الصباح حبات كحبات النقل وهو المكسرات، أما في مراكش فإن النخل والزيتون يجتمعان فيها وهذا عجيب.

وخرجنا من (مطعم الفتح) فوقفنا قليلاً في (ميدان الفنا) وقدصار الناس ينطقون باسمه الآن الفنا- بفتح الفاء وهذا تحريف مرده الجهل بأن أصله الفناءِ بكسر الفاء والمد كما تقدم.

قصر البديع في مراكش

وتمتعت بما فيه من عروض شعبية لاسيما عروض راكبي الخيل وعازفي الموسيقى الشعبية واشتريت شيئاً من المعروضات من المصنوعات الشعبية المغربية.

يوم الأحد:...

كتبت هذا الصباح حتى أعييت وانتهيت بذلك من كتاب: (نظرة في وسط إفريقية)، عن بعض ما رأيته في رحلتي الأخيرة هذه إلى إفريقية، وقد طبع بعد ذلك.

منتزه المنارة:

ذهبت بعد ذلك إلى منتزه المنارة مع سائق سيارة أجرة اسمه (مولاي الجلالي) ويقع المنتزه في غرب مراكش قرب المطار، تحف به غابة ضخمة من النخيل التي تكثر في مدينة مراكش، وللنخل منظر جميل في عيني وموقع عظيم في نفسي، فقد نشأت في بلد من بلدان النخيل هو القصيم، وكان في بيتنا في مدينة بريدة نخلتان إحداهما (سكرية) غرسها جدي وأكل من تمرها حتى توفي وانتقلت الدار ونخلتها إلى ملك والدي الذي أكل من هذه السكرية حتى توفي رحمه الله فانتقلت الدار إلى ملكي فأكلت من تمر السكرية حتى هجرت تلك الدار إلى دار أكبر منها وأفخم حيث وسَّع الله عليَّ فوسعت على نفسي.

وقد كتبوا لافتة بالخط الكوفي الجميل الذي هو الخط العربي العريق اسم المنتزه (بركة محمد) وتقاضى موظف عند باب المنتزه رسم الدخول ٣ دراهم مغربية.

وقد أخبرنا الموظف أن هذا المنتزه من عهد السعديين وأن الذي أقامه هو أحمد المنصور السعدي المشهور بالذهبي الذي غزا جيشه بلاد السودان واحتل تنبكتو، ويذكر أن وفاة المنصور السعدي كانت في عام ٩٨٦هـ كما تقدم، ثم جدد بعد قرنين.

وقد أعجبني اجتماع النخل والزيتون فيها، والتقطت له صورة.

سائق سيارة الأجرة عند التين والزيتون في ضواحي مراكش (تصوير المؤلف)

جنان الحارثي:

سلكنا شارع فرنسا الذي يشق ضاحية تسمى (جنان الحارثي) وهي ضاحية حديثة جميلة فيها عدة فنادق فاخرة منها (النفيس) و(الادارسة) وإن كان لم يكتمل بعد، ومنها فندق الأطلس و(هولدي إن) و(القصر البديع).

والمنازل مطلية باللون الأحمر، وهو اللون المتميز لمدينة مراكش الذي من أجله لقبت بمراكش الحمراء، وقال لي أحد الموظفين المغاربة الكبار: كل المدن المغربية بيض، إلاّ مراكش فحمراء ولكنني عرفت بعد ذلك أن فاس تفضل اللون الأزرق وإن كانت مبانيها الحديثة بيضاء الطلاء.

ثم سلكنا شارع (عبدالكريم الخطابي) ويمتد إلى الطريق الذاهب إلى الدار البيضاء، ولم نواصل السير فيه وإنما عطفنا مع تلال عليها معسكرات للجيش المغربي، وقد كثرت النخيل في أطراف المدينة من جهة الجنوب.

وادي تنسيف:

النخيل والزيتون في وادي تنسيف خارج مدينة مراكش

وهذا وادٍ مشهور عند الناس مذكور في الكتب يجري فيه ماء لا ينقطع جريانه يأتي إليه من جبال الأطلس غرسوا عليه النخيل الملتفة وقد حفروا في الأماكن المرتفعة ما يشبه الخنادق وغرسوا النخل فيه على الماء لأن الماء لا يرتفع إلى وجه الأرض.

ولكثرة النخيل فيه ورد المثل: (النخيل من باب الخميس إلى وادي تنسيف).

سرنا مع بساتين النخيل أو لنقل حوائط النخيل: جمع حائط كما كنا نسميها في بلادنا في القديم ووصلنا قرية تركناها على اليمين اسمها (قرية أولاد ابن رحمون) وقرية أخرى إلى اليسار اسمها (أولاد بلعقيد) وهم من العرب.

المؤلف عند النخيل في ضواحي مراكش

ورأينا عن يمين الطريق لافتة كتب عليها بالعربية (ممر النخيل).

ومع أن هذا الوادي ريفي قروي فان فيه منازل حديثة حسنة المظهر ذكروا أنها (فيلات) للأثرياء، يقضون فيها بعض الوقت في التنزه والاستجمام.

ثم سلكنا طريقاً أسفلتياً رديئاً قد بعد عهده بالصيانة تحيط به غابات من النخيل التي بدأ بها الموت والاندثار وقال السائق: إن ذلك بسبب قلة الماء وإن مستواه نزل عما كان عليه لكثرة ما صار يستنزف منه.

وذكرني مرآه بمرأى نخيل في بعض الوديان والأماكن التي كانت فيها مياه قريبة من وجه الأرض فتقلصت بسبب استنزافها من أماكن مجاورة بالآلات الرافعة للمياه فعطشت نخيلها وماتت، وفي حالات أخرى يترك النخل في المدن الكبيرة دون سقي لكون أرضه صارت ثمينة لبناء المساكن عليها.

ومما زاد في تذكري منظر بيت من الطين قد أهمل حتى تهدم جزء منه.

قول قديم:

قال صاحب الروض المعطار:

تانسيفت: نهر على ثلاثة أميال من مراكش ليس بالكبير لكنه دائم الجري، وإذا كان زمن الشتاء حمل بسيل كبير لا يبقي ولا يذر، وكان أمير المؤمنين علي بن يوسف بنى عليه قنطرة عظيمة متقنة البناء بعد أن جلب إلى عملها صُنّاع الأندلس وجملة من أهل المعرفة بالبناء فشيدوها وأتقنوها حتى كملت، ثم لم تلبث بعد أعوام يسيرة حتى أتى عليها السيل فاحتمل أكثرها وحلّ عقدها وهدمها، ورمى بها إلى البحر، وهذا النهر يأتي إليها من عيون ومياه منبعثة من جبل درن، من ناحية مدينة أغمات إيلان.

إنتهى.

التين والزيتون:

استمر السائق في السير بسيارته وسط هذه الغابات من النخيل التي بعضها مهمل وبعضها لا يزال نضراً لما رآه من إعجابي بها حتى وصلنا بستاناً قد اشتبكت فيه أشجار التين بأشجار الزيتون فتلوت الآية الكريمة (والتين والزيتون وطور سينين وهذا البلد الأمين) وقلت للسائق الذي لم يفهم أنى لك بطور سنين، وإن جاز هذا البلد أن يكون بلد آمناً أو مأموناً إلا أن التين الآن قد سقطت أوراقه لأننا في فصل الشتاء.

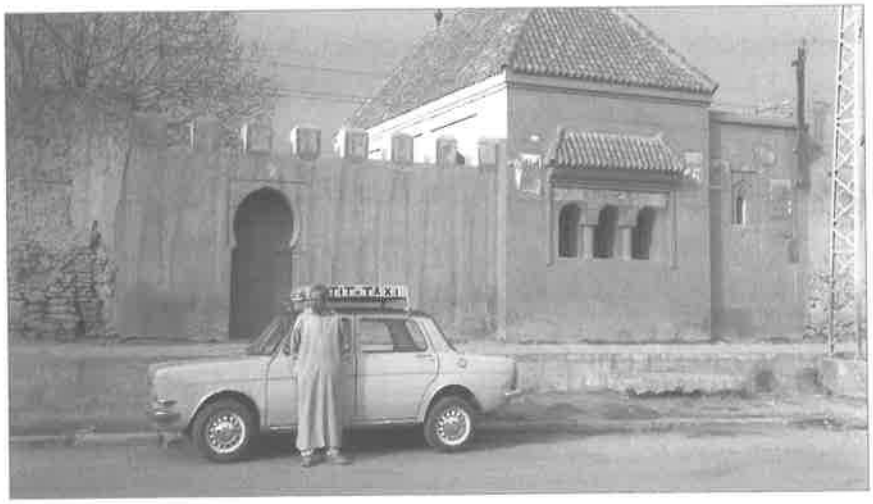

سائق سيارة الأجرة التي استأجرتها عند سيارته في مراكش

ورأينا أيضاً التين الشوكي الذي نسميه في بلادنا بالبرشومي، ويكثر عندنا في الجبال المرتفعة كجبال الطائف وما كان عنه جنوباً، وذكر أنه يثمر في الخريف، وهذا مثلما هو معروف عندنا حيث يثمر في آخر الصيف وفي الخريف، وقال السائق: اسمه عندنا كرموص النصارى، والهندية وقال: الكرموص: اسم للتين عندنا.

والنخل والرمان:

ومررنا ببستان آخر قد اختلط رمانه بنخله وهو أمر يوجد في بلادنا فتلوت الآية الكريمة الأخرى: (فيهما فاكهة ونخل ورمان)، والرمان أيضاً قد تساقط ورقه الآن.

ورأيت فلاحاً وربما كان أجيراً، أسود اللون يحرث الأرض بمحراث قديم على بقرتين، هذا وقد عدنا دون أن نكمل السير في الوادي كله لضيق الوقت.

ثم تركنا الوادي وسرنا في ريف معشب ترعى فيه الأغنام، وفي أماكن منه حقول شعير مزروعة.

ثم عدنا لسلوك الطريق الذي يمر بالوادي فتكررت رؤية النخيل المهملة وأشجار الرمان التي تغالب الموت للجفاف، وكل ذلك بسبب نزول مستوى الماء عن سطح الأرض.

وبقايا حوائط النخيل والجدران التي تحيط بها قد تهدمت وهي من الطين أيضاً.

قرية عين يطي:

مررنا بقرية اسمها (عين يطي) بياءين بينهما طاء، معظم بيوتها من الطين ورأيت شيخاً هرماً قد استند إلى جدار من الطين فذكرني هذا بمناظر كانت موجودة عندنا في القديم، وذهبت الآن حتى كادت تمحى من ذاكرة من عايشوها مثلنا.

ويزيد شبه بيوتها الطينية ببيوتنا قديماً أنهم زينوا واجهات تلك البيوت الطينية بالجص كما كنا نفعل من قبل.

ولكنني رأيت منظراً ليس موجوداً عندنا ولم يكن وإنما هو موجود في إفريقية بكثرة، وهو منظر امرأة قد حملت ولدها خلف ظهرها وقد ربطته بقماش عريض كما تفعل الإفريقيات السوداوات، وإن كانت هي بيضاء.

ورأيت في جانب الشارع العام للقرية رقماً مكتوباً على لوحة يقول: مراكش ٢٩ كيلومتراً.

باب الخميس:

عدنا إلى مدينة مراكش فدخلناها من باب الخميس الذي جاء فيه المثل السابق: (النخيل من باب الخميس إلى وادي تنسيف).

السور القديم والنخيل في مدينة مراكش

وقصدنا محطة الحافلات في باب الدوكالة من أجل السؤال عن موعد قيام الحافلات إلى مدينة (أغادير) التي أنوي السفر إليها بعد مراكش.

ثم خرجنا من السور القديم لمدينة مراكش وقد حافظوا عليه محافظة استحقوا بها ثناء البشرية كلها، وجزاءها الحسن، ذلك بأن المحافظة على الآثار القديمة هو من باب توفير المعرفة لبني البشر كلهم، ولن أنسى المتعة التي أحسست بها ونحن نسير بالسيارة خارج السور القديم بأبوابه وشرفاته وأبوابه الكبيرة المربعة.

وحسناً فعلوا حينما جعلوا ما يلي السور شارعاً مزفتاً معتنى به يدور مع السور حيث دار، ويجد كل من يريد دخول المدينة طريقاً له مع أحد أبواب السور الكثيرة فيدخل المدينة القديمة أما ما كان خارج السور فإنه قد صار في أغلب الأماكن أحياء سكنية جديدة وهذا السور قديم يرقى تاريخه إلى ستة قرون.

حديقة مولاي عبدالسلام:

وهي حديقة قديمة كانت تشرب من مياه تاتي إليها من جبال الأطلس المجاورة فصارت الآن تشرب من ماء البلدية، وعلى ذكر تكرار الكلام على المياه التي تأتي من جبال الأطلس تبادر إلى ذهني أنه لولا هذه المياه التي تأتي إلى مراكش من جبال الأطلس الواسعة لكانت صحراء أو شبيهة بالصحراء، وذلك مثل ما تبادر إلى ذهني عندما رأيت مدينة (أورمجي) عاصمة تركستان الشرقية التي تحكمها الصين الشعبية في الوقت الحاضر، وتسميها شنجاك، فإنها واقعة في صحراء ولكن الجبال العالية التي لا تبعد عنها كثيراً ترسل إليها المياه من ذوب الثلوج التي تتراكم عليها في الشتاء بكثافة مثلما تجلل المنطقة كلها، وتظل تتحلب عليها إبان حاجتها إلى الماء للزراعة الصيفية لأن الشتاء لا تكون فيه زراعة لكثافة الثلوج التي تركب أرضه.

المؤلف عند بركة في ضاحية مراكش

ويقع مقابلاً لحديقة (مولاي عبدالسلام) معرض الصناعات الوطنية التقليدية وتباع فيه تلك المصنوعات بأسعار رخيصة جداً مع أنها فاخرة مثل الصناعات الجلدية المنقوشة والمصنوعات النحاسية.

ومن أجمل ما لديهم الملابس الوطنية وخصوصاً ملابس النساء التي هي ساترة وجميلة وتعتبر من التراث الذي يعتزون به، وما رأيت في ملابس النساء في البلدان العربية أجمل من ملابس المغربيات، وتتمسك المغربيات بهذا اللباس، وإن كانت كثيرات منهن تكون لها

ملابسها الوطنية مع الملابس الإفرنجية الحديثة، وقد تغير لباسها في اليوم مرتين كما يفعل الرجال هنا فيلبسون اللباس الوطني المغربي في الصباح ويلبسون البدلة الإفرنجية في المساء.

إلا أنني لاحظت أن النساء هنا كالسوريات تكون المسنات منهن اللاتي تجاوزن مرحلة الإغراء متلثمات أو متسترات وتكون الشابات المغريات سافرات.

المؤلف عند أحد البوابات الأثرية في مراكش

هذا وقد حان موعد الغداء، فطلبت من السائق أن يذهب بي إلى مطعم شعبي من باب التغيير فذهب بي إلى مطعم شعبي وجدت فيه بغيتي من أسقاط الذبيحة وبطنها كالكلى والكبدة، وشيء من اللحم المشوي وفي الختام جاءني بلبن رائب لم استسغه لكونه محلى بالسكر.

مشية التسكع:

قال لي سائق الأجرة (مولاي الجلالي) إنه لم يبق في ضواحي مدينة مراكش مكان مهم لم أره فاسترحت على الكتابة في الفندق، ثم خرجت قبيل المغرب في تمشية على قدمي من دون هدف وهي مشية التسكع المفضلة لدي في بعض الأحيان لأنها تكون كذلك عندما أكون فارغاً ليس لديَّ شغل يجب عليَّ أن أقوم به في وقت محدد.

وقد أسميها أحياناً مشية (الدروشة) لأنني غالباً ما أرتدي فيها رديَّ ثيابي، فتجولت في حارات ضيقة الأزقة حتى إن الزقاق فيها لا يكاد يتسع لشخصين إذا تقابلا، أكثر بيوتها من

طابقين وأقلها من ثلاثة، ومع ذلك أزقتها نظيفة ومظهر البيوت فيها لا باس به مما ذكرني بأزقة الحارات القديمة في مدينة دمشق، و قد رأيت في جانب من هذه الحارات المراكشية الضيقة فندقاً كتب عليه اسمه (فندق شاله).

وأكثر ما ينسجم مع هذه الحارات وأمثالها الملابس الوطنية الأصيلة، وقد وجدتني أتضايق إذا رأيت رجلاً أو امرأة فيها بالملابس الإفرنجية.

أرض الشوارع فيها أكثرها مبلط بالحجارة وليس فيه زفت، وتكثر فيها المطاعم الشعبية، وقد دخلت أحدها بعد أن صليت المغرب في مسجد فسيح الداخل وإن كان يقع على شارع ضيق فطلبت من صاحب المطعم أن يحضر لي رأس خروف مصلياً، والمصلي غير المشوي، فالمصلي هو الذي ينضج بتقريبه من النار دون أن يكون في داخلها، بخلاف المشوي الذي لابد من غمره بالنار.

المؤلف عند باب أثري في مراكش

وقد ذكر البائع أن المعتاد أن يقدموا للشخص الواحد نصف الرأس لأن الرأس الكامل كثير ومرتفع السعر، فكان ثمن نصف الرأس المصلي ١٥ درهماً مغربياً.

وفي مقهاة شعبية:

خرجت من المطعم الشعبي ولا تزال لي رغبة في المشي فسرت قليلاً حتى وجدت مقهاة شعبية كبيرة فجلست فوق مائدة منها وطلبت كأساً من الشاي المغربي الأخضر المخلوط بالنعناع.

وكانت المشكلة الكبيرة في هذه المقهاة هي كثرة السائلين الملحفين (الشحاذين) الذين لا تفتأ تخبرهم بأنك لن تعطيهم فلا يقتنع بعضهم من ذلك حتى تكرر قوله له مرتين وثلاثاً وربما أكثر من ذلك، وما أن يذهب عنك، وتتنفس الصعداء حتى يحضر (شحاذ) آخر أو (شحاذة) أخرى فتلح، بل تلحف في السؤال.

وفي المقهاة عدد من الذين لبسو البسة زرية أو غير مرتبة وفيها شيوخ مرضى وشبان يظهر على وجوههم نقص في التغذية، ولا يوجد مثل أولئك في المقاهي الراقية التي تكون في الغالب تابعة لفنادق أو لمؤسسات سياحية، واسعار المشروبات فيها غالية.

ومن ألطف ما رأيته في هذه الأحياء الشعبية وأنا في المقهاة منظر رجل يقول بصوت مسموع، (الما لله) ومعه جرة من الفخار مليئة بالماء قد حملها معه على دراجته وهو يسقي الناس الذين يطلبون منه الماء بالمجان!

ومنظراً آخر وهو منظر عربة يجرها حماران صغيران كأنهما خروفان لصغرهما وقصرهما، ولولا أن الوقت ليل وأنه لا يمكن لذلك تصويرهما لصورتهما.

ولذلك يستعملون في عربات نقل الأشياء الثقيلة الخيل والبغال لا الحمير.

وعدت إلى الفندق ماشياً فرأيت الدراجات كثيرة في الأحياء الشعبية ورأيت جماعة من النساء يسرن من دون أن يكون معهن رجال، إلاّ أن الأدب هنا هو الظاهر.

إلى أغادير:

قال الصديق بن العربي في كتابه: (المغرب):

أكادير: مدينة كبيرة من مدن الساحل الأطلسي أسست قصبتها في أوائل القرن العاشر، واحتلها البرتغال سنة ٩١٧هـ ثم حررها السعديون فاعادوا بناءها وشيدوا بها قصبتها الشهيرة التي كان يشرف الناظر منها على سهول سوس.

وكانت هذه المدينة من أهم موانئ الجنوب، وأصبحت مركزاً صناعياً وتجارياً لأقاليم سوس كما كانت مركزاً سياحياً له أهميته نظراً لاعتدال طقسها وتنوع مناظرها فازدهرت بها التجارة وبنيت بها معامل التصبير وفنادق السياحة وانتقل إليها عدد كبير من التجار

والفلاحين والصناع إلى أن عصف بها الزلزال العظيم الذي دمرها عن آخرها في يوم ٢٨ فبراير ١٩٦٠ فأصبحت أثراً بعد عين والأمر لله.

وقد استعادت المدينة اليوم حياتها فاعيد بناؤها من جديد على أحسن طراز وأصبحت خلال سنوات معدودات مركزاً من أهم مراكز الاصطياف ومن أحسن المدن الساحلية بالمغرب، وبها تأسست كلية الشريعة كنواة لجامعة حديثة بسوس.

ومن هذه المدينة تتجه الطريق الصحراوية الكبرى نحو جمهورية السينغال عبر الصحراء الكبرى، في مسافة تتجاوز ٢٠٠٠كلم.

يوم الاثنين: ١٤٠٥/٥/٧هـ:

ركبت مع حافلة، أجرة المقعد فيها بـ١٢ درهماً مغربياً من مراكش إلى أغادير، وهي حافلة مزدحمة حتى إن أحدهم كان أمامي واقفاً فقلت له: كيف ترضى أن تبقى واقفاً في الحافلة؟

فقال: لأنني راكب من دون أجرة، وإذا خلا مقعد جلست فيه، وكان جاري في المقعد ضابطاً عليه لباسه الرسمي ذكر لي أنه كان في العراق في مهمة رسمية، وقد صار يحدثني طوال الطريق وانست بحديثه.

وكانت انطلاقة الحافلة في الساعة الثانية عشرة ظهراً فاخترقنا ضواحي مراكش وقراها القريبة التي تكثر فيها النخيل في الوديان، ثم رأينا أشجاراً كثيرة من الزيتون تكاد تؤلف لكثرتها غابات ولا حظت أن بيوت الفلاحين في الريف أكثرها من الطين.

ومررنا بقرية (شيشوه) أجمل ما رأيناه فيها بيت مبني على طراز أندلسي أصيل ذي شرفات أندلسية خالصة، وتشتهر منطقتها بصناعة السجاد المغربي الأصيل.

وقرية منشانوت:

وهي قر ية جبلية تعد أول قرى جبال الأطلس التي سيمر بها الطريق، واسمها بربري أي من اللغة البربرية معناه فم البئر الصغير، بيوتها حمراء الطلاء، وأهم الأشجار المغروسة الظاهرة فيها هي أشجار اللوز والزيتون.

ثم فارقناها فرأينا في سفوح الجبال أشجار العرعر الذي يوجد في بلادنا بكثرة وبخاصة في جبال عسير.

وهذه الجبال ذات قمم عالية حتى إننا نرى الثلج يعلو قممها نراها على البعد يسار الطريق.

محطة تازيدرا:

وقفت الحافلة عند مقهاة ومقصف في الطريق كتب عليها اسمها: (تازيدرا) بالعربية، مع أن الأسماء أكثرها بربري وفي بعضها كتابات بالبربرية.

وقد تناولنا الشاي الأخضر والكعك اللين (الكيك) في هذا المقصف واستراح الركاب بعض الوقت وصليت الظهر والعصر جمعاً، وقد كرم جاري الضابط المغربي فدفع قيمة ما تناولته، وأبى أن أدفع من ثمن ما تناولته شيئاً.

المؤلف عند مقهى تازيدرا بين مراكش وأغادير

ثم استأنفنا السير ورأيناهم كتبوا على ربوة يسار الطريق كلمات: (الله، الوطن، الملك).

هذا والطريق الذي سرنا معه حافل بالأشجار المفيدة المثمرة منذ أن غادرنا مراكش كأشجار الزيتون واللوز الذي رأيناه مزهراً كما تكثر في الطريق الأشجار البرية التي تأكل الماشية أوراقها وهناك مراع صالحة بل جيدة للأنعام، إلا أنهم ذكروا أنه إذا احتبس المطر جفت الأشجار، وعدم العُشب، والمظنون أنه إذا أقيمت سدود على الأودية أو استغلت المياه الجوفية استغلالاً مناسباً خفف ذلك من أثر النقص في الأمطار في بعض الأحيان.

وعندما بقيت على الوصول إلى أغادير ٦٣ كيلاً وصلنا إلى وادٍ منخفض اسمه (استن) فرأينا فيه النخل الذي لم نره منذ أن فارقنا ضواحي مدينة مراكش لأن منطقة جبال الأطلس التي كنا فيها قبل ذلك باردة لا يجود فيها النخل.

الوصول إلى أغادير:

وصلنا أغادير بعد ٥ ساعات من مغادرتنا مراكش، وركبت مع سائق سيارة أجرة دلني على عدة فنادق متوسطة اخترت أحدها واسمه (اقامة كرم) بمعنى فندق كرم وهكذا رأيت عدداً من الفنادق مكتوب عليها (إقامة كذا) بمعنى فندق كذا أو (نُزُل كذا).

العربية في أغادير:

كان أول ما فعلته أن خرجت في جولة أتمشى فيها على ما حول الفندق وفي الشوارع القريبة، وكنت أحاول أن أعرف اللغة التي يتكلم بها الناس أهي العربية أم البربرية لأن (أغادير) مدينة من مدن البربر المهمة، و فوجئت بأن جميع الناس يتحدثون العربية ووقفت على دكان لبيع الجرائد والمواد القرطاسية فرأيت فيه فتى يشبه السوريين كلمني بلغة عربية فصيحة معتادة وكأنما أنا في دمشق أو حلب، فسألته أأنت من أهل أغادير؟ فقال: نعم، فقلت: إن لغتك العربية لا تشوبها شائبة فهل أصلك من هنا؟

فأجاب: أنا من أهل أغادير الأصلاء وبيتنا هدمه الزلزال في عام ١٩٦٠ ومات فيه جميع أفراد أسرتي، والناس هنا كلهم يتكلم العربية كما ترى وإن كان بعضهم وبخاصة القرويين وكبار السن يتكلمون البربرية فيما بينهم، ولكن أبناءهم وبناتهم من تلاميذ المدارس قد نسوا البربرية أو أهملوها.

تركته وجلست في مقهاة أقرأ فيها صحيفة (الشرق الأوسط) التي اشتريتها منه فرأيت العامل والناس يتكلمون بالعربية إلا أن ذلك العامل يتكلم مع شخصين بالبربرية مع أنهما ليسا في مظهر الفلاحين.

ومن هنا تأكد لي ما ذكرته من كون المغرب يسير الآن بخطى منظمة ثابتة في طريق التعرب أو التعريب الكامل من دون طنطنة أو ضجة أو تغنٍ فارغ بالقومية العربية لا يثمر إلاّ ردود فعل ضارة.

بعير يؤجره صاحبه لركوب السياح في أغادير

ولاحظت أن السائحين الأوروبيين أو ذوي المظهر الأوروبي كثير في المدينة حتى إن مناطق من مناطق الشاطئ تزدحم فيها الفنادق والأنزال يرى المرء السائحين البيض فيها أكثر مما يرى المغاربة.

وذهبت للخطوط المغربية حيث حجزت معها إلى الدار البيضاء.

يوم الثلاثاء: ١٤٠٥/٥/٨هـ:

جولة في مدينة أغادير:

اسم المدينة بربري أصيل رغم ما قد توحي به كلمة غدير العربية ومعناه بالبربرية: الحائط القوي أو السور الحصين... والغين فيه قاف مصرية وليست غيناً عربية قرآنية صريحة، ويعني اسمها أصول الجدران القوية الضخمة.

ركبت سيارة أجرة اسم صاحبها مصطفى محمد، يظهر التدين والبعد عن المتفرنجين، ومع ذلك طلب مني في أول الأمر ١٠٠ درهم ثم رضي بـ٤٠، فسألني: إلى أين؟ فقلت: إلى الأماكن التي تستحق أن يراها السائح مثلي، فقال: إلى القصبة، وهي فوق جبل مطل على البحر، وقد صعدنا إلى الجبل مع طريق يتلوى فيه جيد، ولكنه ليس واسعاً حتى وصلنا إلى أعلى الجبل، وفي قمته حصن واسع مبني بطريقة رثة قديمة ليس في جمال أسوار المدن المغربية الأصيلة كمراكش وسلاوالرباط.

وفي هذا الحصن برج كامل لم يتهدم منه شيء، ولكنه ليس متقن البناء، أو لنقل: إنه غير أنيق البناء.

عند البرج المرتفع في ضاحية أغادير القديمة

أثر بعد عين:

قال السائق: إن هذا السور الأثري هو جزء من المدينة القديمة التي تقع شرقاً من هذه التلة وسوف نذهب إليها بعد ذلك.

يشرف المرء من ظهر التلة على المدينة الجديدة ممتدة على شاطئ المحيط الجميل تعج بالحركة وبالناس، وفي منظر جميل على شاطئ البحر الرملي الذي انتظمت فيه الفنادق والأنزال والمنتجعات.

وفي رأس التلة مقصف حديث نظيف أهم ما فيه أنه أقيم في نقطة مشرفة على المنطقة في منظر جميل.

وفي هذا المقصف أعداد من السياح، وجماعات من القرويين معهم الإبل يؤجرونها للسياح ليركبوها ويلتقطوا الصور التذكارية لركوبها في أغادير.

المؤلف في المرتفع المطل على مدينة أغادير

شربنا الشاي الأخضر المشبع بالنعناع الذي يجعل في حاجة إلى زيادة السكر فيه، واستمتعنا بهذا المنظر الجميل لولا أننا كنا نرى مكان المدينة القديمة التي قضى عليها الزلزال ولم يبق في موضعها الآن إلا تلالاً تكسوها أشجار الرعي التي رأينا فيها بعض المعزى ترعى فيما كان (مدينة أغادير القديمة).

الأطلس والأطلسي:

تقع مدينة (أغادير) على شاطئ المحيط الأطلسي الذي كان أسلافنا العرب يسمونه البحر المحيط الأعظم، وقد يسمونه بحر الظلمات، ولكن أهل أغادير إذا سألتهم عنها يقولون: إنها في جوها وبردها وحرها لا علاقة لها بالأطلس الذي تعتبر من الناحية الثقافية والتاريخية جزءاً منه، لأنهم يريدون بالأطلس جبال الأطلس التي يؤلف إخواننا البربر أكثرية السكان فيها وتعتبر بعض القرى فيه حتى الآن قرى بربرية خالصة.

وقال صاحب المقصف وهو يشير إلى جهة الشرق: إن سفح الجبل هذا كانت عليه منازل قديمة محاها الزلزال كلها، بل إن جزءاً من المدينة القديمة كان يقع أسفل الجبل قد تهدم كله فوق أصحابه، فصار مقبرة لهم، إذْ حولوا المدينة الجديدة إلى السهل الملاصق للبحر وهجروا مكان المدينة القديمة المتهدم.

ومما يجدر ذكره أن الزلزال هدم حوالي ٨٠٪ من منازل المدينة، وقتل ١٨ ألف شخص كما خلف ١٧٠ ألف منكوب.

على شاطئ المحيط:

وشاطئ البحر المحيط في أغادير مهم جداً لأن المدينة الجديدة أقيمت عليه بعد أن دمر الزلزال المدينة القديمة كما سبق، ولكون مدينة (أغادير) غدت مدينة سياحية عالمية، والسياحة فيها قائمة على الاستجمام والاستحمام في شاطئ البحر.

لذلك رأيناهم اعتنوا بشاطئ البحر وهو يستحق العناية لأنه رملي جميل، فجملوا شارع الشاطئ وغرسوه من نخيل الزينة، وذلك إلى مسافات شاسعة كلها عامرة بالفنادق وأماكن الراحة والاستجمام يساعد على ذلك جو أغادير المعتدل الصالح للتنزه والاستجمام على شاطئ البحر في جميع فصول السنة.

ودخلنا حديقة تسمى حديقة كينا ليست بعيدة من شاطئ البحر ولكننا لم نطل اللبث فيها بل واصلنا المرور مع شارع البحر وخلفه على هذه المنتجعات الواسعة التي يعجب المرء من كونها تجد نزلاء من السياح الأجانب لكثرتها ولكنني أخبرت أن الحصول على غرفة خالية فيها هو صعب لكثرة السياح الذين يأتي بعضهم في جماعات كبيرة، وقد رأيت من كثرتهم على شاطئ البحر وفي داخل المدينة ما يؤيد ذلك.

وقال السائق وهو يظهر أنه متدين متحمس: إنه لا حاجة لنا إلى هذه الفنادق الكثيرة التي يأتي إليها السياح، إننا نحتاج أن نبني بديلة عنها مساجد ومصانع.

ثم سلكنا شارع محمد الخامس وهو حديث معتنى به ومنه سلكنا شارعاً مهماً آخر اسمه شارع الحسن الثاني عليه أبنية عالية متعددة الطبقات (عمايز) وكله حديث أقيم بعد الزلزال.

وهنا تكلم سائق سيارة الأجرة وأظهر أنه مسلم ملتزم وأنه يعادي أمثال هذه الأمور المتعلقة بالسياحة، وقال: لو كان لي وأمثالي من الأمر شيء لما رحبنا بأمثال هؤلاء السياح الذين لا يأتون بخير، ثم شن حملة شعواء من الذم والتجريح للسياح العرب وبخاصة الذين يأتون من الخليج، وقال: أكثرهم يشربون الخمر وهم أشر علينا من السياح الأجانب، لأنهم يخالطوننا ويفسدون من يخالطهم منا، بخلاف السياح الأجانب الذين لا يخالطوننا ولا يجتمعون معنا وحتى مصلحة السياحة تحاول أن تبقيهم بعيداً في السكن والمعيشة عن المواطنين.

وذكر لي أنه عربي أصيل، وليس من البربر، وقد أثنى على الملك الحسن الثاني إلا أنه قال: إنه يحتاج إلى حاشية طيبة.

حديقة ابن زيدون:

أعادني السائق إلى فندقي ولم أدخله بل ذهبت أسير على قدمي حتى وجدت مطعماً جيد المظهر رأيت فيه بعض الأوروبيين يأكلون فدخلته، وأكلت فيه وجبة مغربية مشبعة بثمن معتدل ثم ذهبت إلى حديقة غير بعيدة من فندقي (إقامة كرم) تسمى (حديقة ابن زيدون) فوجدتها واسعة فيها أعداد كبيرة من التلاميذ من ذكور وإناث جاءوا إليها للمذاكرة ورأيتهم رغم الاختلاط في المدارس متمايزين فالبنات في مجموعات والأبناء في مجموعات أخرى.

وكثيراً ما ترى أحد الطلاب أو الطالبات ممن يتسمون بالجد جالساً وحده للمذاكرة، لأنني لاحظت أن هذه المجموعات تقطع الوقت في بعض الأحيان بالحديث والصراخ والحركات التي يتميز بها الشبان.

ولادة وابن زيدون:

لم أجد من أتحدث إليه في هذه الحديقة إلا شيخاً كهلاً رأيته لا يحب الحديث فجلست وحدي أرقب الغادين والرائحين لأنني لاحظت أن بعض الناس يتخذون من هذه الحديقة ممراً فيدخلونها ويخرجون منها دون جلوس.

وإذا بمجموعة من الطالبات اللاّتي عليهن ملابس المدرسة وهي ملابس نظيفة ساترة فتقترب

واحدة منهن أظن أنها في الخامسة عشرة من العمر وتحييني فكأنما أنزلت عليَّ من السماء.

وقلت لهن وقد جذبت إليها صويحباتها: إن هذه وسألتها عن اسمها فقالت: (وَلاَّدة) قد أنقذتني من عزلتي فما قولكن في أن أعطيها لتحضر لكن شراباً بارداً من الكوكاكولا أو غيرها؟ وهنا عجبن فلم يكن من المعتاد لهن أن يسخو شخص عليهن بمثل ذلك لأنهن تسع.

واستخف الطرب (ولادة) فقالت تمن عليهن بذلك: أنا السبب، وذكرت بهذه المناسبة (ولادة) الأندلسية وما كان بينها وبين ابن زيدون الذي سميت هذه الحديقة باسمه غير أن ولادة (أغادير) هذه سمراء سمرة أهل الصحراء، وولادة الأندلس لا شك في أنها في بياض خديجة إحدى هذه البنيات وقد ذكرت أنها فاسيّة الأصل- بتشديد الياء- أي من مدينة فاس.

تركت البنيات مذاكرتهن وجمعن أوراقهن في أيديهن وجلسن يتحدثن إلى هذا الغريب الفضولي الذي عرفن أنه من بلاد الحجاز، فكانت جلسة بددت وحشتي بعد كلام السائق الذي كان كله غضباً على الناس وعتباً على المجتمع إلا أن كبراهن وهي في حدود التاسعة عشرة من عمرها قالت لي: يا شيخ، أليس لك ابن كبير؟ قلت: بلى وهو مهندس ولله الحمد، فقالت: ألا تسعى له في أن يتزوجني؟

وكانت هذه العبارة بمثابة الذباب الذي وقع في الشراب، فقد أفهمتني من حيث لم تصرح بأنني شيخ كبير ليس له في الغانيات حظ أو نصيب، مع أنني لم أبحث عن حظ موفور لي في المغرب، وإنما كنت أبحث عن حديث استفيد من خلاله معلومة من المعلومات، أو على الأقل أزجي فيه بعض ما بقي لي في أغادير من ساعات، وكأنما عرف الجميع ماطرأ على الجلسة من تكدير فانصرفوا مودعين.

وعدت إلى وحدتي ولكنني فارقت حتى هذا المكان الذي أبغضته بعد أن كنت أحببته.

فعدت إلى التسكع في الشوارع، وتأكدت مما لاحظته من غلبة العربية على هذه المدينة التي كانت بربرية حتى اللافتات على المحلات كلها بالعربية التي تكون معها الفرنسية ولكنها تكون تحتها في أماكن وفي جانبها في مواضع أخرى.

ولم يقف العجب منهم فيما يتعلق بالعربية من مجرد فهمها أو التكلم بها، وإنما من فصاحتهم بالعربية التي تفهمها أكثر ما تفهم لهجة بعض المدن الداخلية المغربية.

وفيما يتعلق بمظاهر الناس في أغادير فإن السافرات واللابسات الملابس الإفرنجية هنا أكثر منهن في مراكش، وحتى الزي الوطني المغربي للرجال ليس كثير الظهور فيها بخلاف مراكش.

قبل مغادرة أغادير:

رأيت مقالاً مهماً في مجلة نشر قبل سنوات فيه شيء من المعلومات الحديثة عن مدينة (أغادير) بعضها لا يعرفه سائر القراء، والمجلة غير مقرؤة أيضاً في بلادنا، وكاتبه: محمود قاسم.

أغادير مدينة عند طرف العالم العربي:

أغادير: مدينة راقدة هناك في حضن المحيط تحفها الزرقة من الغرب، ومن السماء والجبال من الشرق والشمال جزيرة وسط الدنيا، طفل جميل يطل على أطراف دنيانا العربية، مدينة ذات طابع خاص، تعلمت بعد الكبوة أن تنهض وتغدو عروساً جميلة، فبعد الزلزال الذي أصابها منذ ثمانية عشر عاماً شيدها أهلها في شكل رائع جميل وارتضت أن تجعل من البحر سيدها الذي تأمن إليه، وجذبت إلى شواطئها وجوها الساحر السائحين من أقطاب الدنيا وأقطارها.

مدينة قوس قزح:

وعندما يرتبط البحر بالمدينة يعطيها من سماته حيث تنعكس زرقة السماء فوق صفحته البيضاء، ويكشف عن مدى عشق رجل المدينة للاتساع، فهو يحب رؤية الأفق بزرقته وخضرة جباله، وتتناغم الألوان في سيمفونية تشكيلية رائعة، زرقة البحر، خضرة الجبال بياض المباني وسمرة الوجوه وحمرة الورود، والتشكيلات اللونية فوق ملابس السكان.

فمدينة أغادير أشبه بلوحة من الفن الحديث بكل ما بها من أ بنية صغيرة تلونت جميعها باللون الأبيض سواء كانت فنادق أم أبنية حكومية أم مساكن الأهالي، أما الاتساع فملاحظ بين المباني وأمام العين إن وقف صاحبها فلا يمكن أن يرى مبنيين متلاصقين مثلما يحدث في المدن الاخرى ولا يمكن أن يحاول مبنى من الأبنية مطاولة السحاب أو شق عنانها.

وتنعكس هذه السمات على المدينة من خلال موقعها الجغرافي والتاريخي فوجود المدينة في جنوب المملكة المغربية جعلها أكثر التصاقاً بالعديد من الثقافات العربية والمحلية، كما جعلها منارة سياحية طيلة العام وشد إليها الزوار الذين لا تنقطع أفواجهم.

ومكانة المدينة في التاريخ أشبه بمكانة أي مدينة ساحلية صغيرة، تشهد عصور ازدهار ثم كساد، ثم يعود الازدهار مرة أخرى، ففي القرن السادس عشر، مثلاً شهدت المدينة

انتعاشاً تجارياً حين كان يأتي إليها أبناء الامم المختلفة للاتجار في الجلود والأقمشة والتمر واللوز والذهب، أما في القرن الماضي فقد شهدت المدينة حالة من البوار ما لبثت أن انتهت مع بداية القرن العشرين، عندما عرفت تجارة السمك وتصنيعه فبدت تجذب إليها البشر، وجاء إليها السكان من شمال المدينة وجنوبها يقيمون على شاطئها، يصطادون السمك، ويتاجرون في صناعاته، وأغلب الذين جاءوا إلى المدينة هم من البربر القادمين من الجنوب الذين ظلوا محتفظين بهويتهم وثقافتهم.

والتقى هؤلاء النازحون بالساحل وعرفوا خيراته، كما عمل بعضهم على الاستفادة من المعادن المستخرجة من المحاجر القريبة من المدينة مثل النحاس والمنغنيز، وسرعان ما تعددت مصادر المدينة وازدهرت الحياة فيها إلى أن جاء يوم الحادث الأكبر.

الزلزال المدمر:

قبل أن تستيقظ أغادير في صباح التاسع والعشرين من فبراير عام ١٩٦٠م شاءت إرادة الله أن يجتاح المدينة النائمة بجوار البحر زلزال عاصف مدمر، راح يبتلع في جوفه الناس والمباني والشوارع وكافة مظاهر الحياة، حتى إذا جاء الصباح كان قد قضى على خمسة عشر ألفاً من البشر ومنازلهم.

دمرت المدينة بكاملها لدرجة أن السلطات يومها وجدت صعوبة في إخراج الجثث فأصدرت الأوامر بتغطية المدينة كلها بالأتربة، فأصبحت أكبر مقبرة جماعية في العصر الحديث.

لكن الإنسان يتعلم دائماً من كوارثه لصناعة الغد الأكثر سعادة، وتكشف مثل هذه الحالات عن مدى ما يتمتع به الناس من إرادة وعزيمة وصلابة، حيث راحوا يبنون حياة جديدة في مكان آخر قريب، ويعيدون إلى الدنيا بهجتها دون نسيان ألم الماضي، وكان على المدينة الجديدة أن تكون ذات هوية واضحة، المباني القصيرة البيضاء والاتساع الرحب في حضن التل القريب.

وتكاتفت الخبرات والسواعد من أجل مواجهة التحدي، ابتعد الناس عن المدينة القديمة، وسرعان ما بزغت المباني البيضاء الجديدة من باطن أرض أخرى، ونبتت الزروع الخضراء، ولم تفقد الشمس دفئها الساطع فوق أبنائها الباقين على قيد الحياة، فرصفت الشوارع وتوافدت الخبرات التي عمرت الأسواق، وجادت الأرض بخيراتها الجديدة التي يتبادلها الناس في الأسواق، فاطلقت المزامير اغنيتها وانشد العوادون على أوتارهم ومن جديد أصبحت المدينة منطقة جذب للناس من كل مكان.

أنت عربي أهلاً وسهلاً:

والزائر، حالياً لمدينة أغادير سيلاحظ التباين الواضح بين المدينة السياحية المقامة إلى جوار البحر، والمدينة السكانية الممتدة من سوس في الجنوب وحتى انزكان بالشمال، فبينما تمتلئ المدينة السياحية بالأجانب الذين يفدون من شتى أنحاء العالم خاصة فرنسا وألمانيا وإسبانيا وإيطاليا، يغزون أروقة الفنادق وملاهيها وحماماتها، ورغم مرور ثمانية عشر عاماً على الزلزال الذي دمر المدينة، إلا أنك لو سرت في المدينة فسوف تروعك حركة البناء، ففي كل ناحية تقام فنادق جديدة مشيدة بأكملها على الطابع المعماري العربي، سواء في عمارتها الخارجية أو الداخلية فتبدو الجدران مكسوة بالموزاييك بشكل يلفت النظر بألوانها المتعددة ونقوشها التي بلغت من الدقة ما يوحي إليك أن تركيبها قد استغرق سنوات من صانعيها، وتتميز هذه الأماكن بسعتها ورحابتها وهي سمة عامة في العمارة الإسلامية فهي جيدة التهوية مريحة للعين تبدو وكأنها لا تنفصل عن الطبيعة الخلابة الممزوجة بها: حمامات سباحة، وأماكن للألعاب، وبشر جاءوا من أجل الراحة والاسترخاء، وتبدو هذه الأماكن أشبه بمدن مغلقة لا يقصدها أبناء المدينة إلا في أضيق الحدود.

أما المناطق السكنية، فإن لمبانيها نفس الألوان، وإن كانت أكثر انخفاضاً وأهم ما يميز هذه الأماكن أسواقها الكبيرة والسوق الإفرنجي مكان للملتقى تعرض به البضائع بشكل جذاب أغلبها من الجلود الطبيعية التي تتميز بصناعتها بلاد المغرب العربي وجلابيب الرجال والنساء المليئة بالزركشة والألوان المتعددة، وهي أزياء عربية الشكل تتسم أيضاً باتساعها على الجسم، أما الهدايا فهناك الأسلحة البيضاء المرصعة، وأباريق الآتاي (الشاي) ومنتجات الجلود، وفي السوق الشعبي يمكنك أن تجد نفس هذه المعروضات في محلات مفتوحة أسقفها من القماش وجدرانها من الخوص، أما أصحابها فمن أصحاب الابتسامة وفي هذا السوق يمكنك بسهولة أن تشعر بمدى الحب الذي يكنه هؤلاء البسطاء للعرب فما أن يحس أحدهم أن زبونهم عربي حتى يهتف مبتسماً: أنت عربي.. أهلاً بك.

ويبادر بمنحك هدية صغيرة تذكارية ثم يروح يحدثك عن بلدك ونجوم الكرة فيها وغيرهم من الشخصيات ويبدو كأنه لا يود أن يتركك تمشي فيلتف حولك الآخرون ويمتلئ الحوار بالدفء والحب والمحبة.

الثقافة الإسلامية:

وينتمي هؤلاء الناس إلى ثلاث ثقافات جاءت أغلبها من الشمال والجنوب، ويتكلمون ثلاث لهجات: السوسية، والأمازيجية المعروفة باسم اللهجة الريفية وينطق بها أبناء الريف القادمون إلى أغادير من تلك المنطقة التي ينتمي إليها الزعيم المغربي الكبير عبدالكريم الخطابي الذي ناضل ضد الاستعمار الفرنسي في القرن الماضي، وهناك أيضاً اللهجة الخاصة في لغة البربر، ويميل أغلب هؤلاء الناس إلى الحديث باللغتين العربية والفرنسية إلى جانب لهجاتهم المحلية، وهناك فيما يتعلق باللغة العربية ذاتها لهجات متنوعة بالإضافة إلى الفصحى التي يتعلمها التلاميذ في المدارس وهي لغة الدولة الرسمية.

ويشكل البربر في المغرب قرابة مليون شخص من عدد السكان الذين يبلغون خمسة وعشرين مليوناً، وقد حفظ البربر ثقافتهم ينشدون بها أغانيهم وينظمون قصائدهم، وقد تمكنت من الحصول على ديوان شعر كتبه محمد المسكاوي أحد أشهر شعراء المغرب، وهو مصاغ باللغتين العربية والبربرية.

وتبرز الثقافة السوسية في العديد من المدن مثل مدينة (تارودانت) الواقعة على طرف وادي سوس وفي القرى المحيطة بها، ومن أشهر أدباء هذه الثقافة المفكر عمر أمير، و يرى المفكر المختار السوسي أن الهوة بين الثقافة الكتابية وبين الثقافة المنطوقة يجعلها تتفاقم حين يتعلق الأمر ببيئة لغتها غير العربية، كما هو حال بيئة المختار السوسية، وقد ظل العلم بسوس هو العلم بالدين الإسلامي، وظل الإسلام هو المدخل للارتباط بين هذه الثقافات وأصبحت لغته هي السائدة على كافة اللغات والثقافات الأخرى.

فقد عكست الثقافة الإسلامية أثرها على أبناء أغادير والمناطق المحيطة بها، ويبدو هذا واضحاً في المناسبات الدينية مثل شهر رمضان المعظم وعيدي الفطر والأضحى، وغيرها من المناسبات.

يا حلوة يا زينة:

وأهم ما يجذبك لدى الناس في مدينة أغادير هو عادات الزواج وما يحدث هناك من مراسيم، فأهل العروس يستعدون لزفاف ابنتهم منذ الليلة الأولى لولادتها، حيث تقوم الأم بحذر وتكتم بتجميع جهازها لاضخم قطعة وراء أخرى، وعلى مدى سنوات تكدس أشياؤها الجميلة داخل الخزانة.

ويمنع المساس بها عدا الذهب، وعادة ما تكون حفلات الزفاف مناسبة كي يتعرف

الشباب على البنات اللاتي يرغبون في الارتباط بهن، وعقب هذه الحفلات تبدأ البيوت في فتح أبوابها للخطاب الجدد، ثم تتم المراسيم الأولى ويبدأ الاستعداد للزفاف قبل قيامه بعام كامل تتوجه في النهاية أفراح تسر الخاطر، وفيها يحضر العازفون بآلاتهم الموسيقية ويصحبون العروس إلى بيت زوجها الذي يبدو في أبهى زينة له فتوزع كؤوس الشاي بالنعناع ويرقص الجميع طوال الليل يغنون وتغير العروس من ملابسها المزركشة أكثر من مرة فتبدو دائماً أكثر جمالاً وإبهاراً، وقبل الفجر تبكي أم العروس وهي تسلم ابنتها لرجلها الجديد بينما يكون الشباب الراغبون في الزواج قد وجدوا لأنفسهم فتيات جميلات وعليهم طرق أبواب الأهالي من الأسبوع القادم.

وفي هذه الحفلات تقدم الأكلة الشعبية (الكسكس) في أطباق اللحوم والدواجن وعندما تأكل منه لابد أن تسمع شخصاً يمازحك: لا تشرب ماءً كثيراً حتى لا تصبح بطنك عجيناً.

ويعرف أبناء أغادير الترفيه فهناك دور عرض سينمائية تعرض أفلاماً عربية بصفة مستمرة، ومن أشهر دور العرض سينما (ريالتو) وسينما (سلام) التي أطلقت عليها هذه التسمية لأنها الدار الوحيدة التي لم تتهدم أثناء الزلزال، كما أن هناك سينما (صحارى) وهناك حدائق غناء مفتوحة للزائرين مثل حديقة العصافير المليئة بأنواع شتى من الطيور والحيوانات، أما المسارح فهي صيفية ومبانيها بدون سقف وتعرض مسرحيات عربية وعالمية طوال أشهر السنة عدا مواسم الأمطار.

وأثناء زيارتي للمدينة لحضور الملتقى الأول للابداع العربي اكتشفت أن الناس متعطشة ومحبة للثقافة، فالشباب مواظب على حضور جلسات الملتقى رغم أن المدينة في إجازة لثلاثة أيام، وتزدحم الصالة بأبناء المدينة الذين راحوا يتابعون ما يحدث بكل حماس وفي المدينة يمكنك أن تكتشف عدد المكتبات الكبير فكأنك في إحدى العواصم الأوروبية، وقد حدثني صاحب إحدى هذه المكتبات أن مبيعات الكتب العربية قد ارتفعت في السنوات الأخيرة بشكل ملحوظ، وأن هذه ظاهرة طيبة خاصة لدى الشباب.

إنتهى.

يوم الأربعاء: ١٤٠٥/٥/٩هـ:

مغادرة أغادير:

خرجت من الفندق الذي أقيم فيه، وهو فندق (إقامة كرم) إلى المطار في السادسة إلاّ الربع صباحاً، وما زال ظلام الليل دامساً مع سيارة أجرة أخذ سائقها ٤٠ درهماً والمطار ليس ببعيد، بل هو ٩ كيلات عن المدينة.

فأوقفني عند المطار الداخلي بمعنى المحلي وهو الذي تقوم منه الطائرات التي تسافر إلى المدن المغربية الداخلية.

وهو على طراز قديم إلا أنه نظيف فيه لافتات عربية عديدة منها واحدة مكتوب عليها (مسجد) تشير إلى مصلى فيه.

وركبت طائرة لشركة الخطوط الملكية المغربية من طراز بوينغ ٧٣٧ فأقلعت الطائرة في السابعة وما زال الظلام دامساً لأن توقيتهم كما قلت متقدم على المعتاد في البلاد التي تماثل المغرب في الموقع الطولي أي في خطوط الطول.

وكانت تذكرتي على الدرجة الأولى فتمتعت بالدرجة الأولى التي يضيفني عليها المضيفون المغاربة من حسن المعاملة والمجاملة ما يزيدها متعة.

وتوجهت الطائرة إلى مدينة مراكش لتنزل فيها قبل الدار البيضاء وأعلنوا أن الطيران من أغادير إلى مراكش سيستغرق ٣٥ دقيقة.

ومن الطريف السار في الرحلة أن الطيار عندما كانت الطائرة تهم بالاقلاع تكلم بعربية فصيحة فقال: الآن تقلع الطائرة.

وهذه أول مرة في حياتي اسمع فيها طياراً يقول هذه الكلمة بالعربية، حتى الطيارين في بلادنا وهم من العرب السعوديين ينطقون بهذه الجملة بالإنكليزية (ناو تيك أوف) ولو كان ذلك في رحلة بين الرياض وجدة مثلاً!

هبطت الطائرة في مطار مراكش ومازال الظلام هو السائد، فطلبوا من الركاب الذين سيواصلون السفر معهم إلى الدار البيضاء أن يبقوا في الطائرة ولم يكن في الدرجة الأولى معي إلا راكب واحد، وأما السياحية فإن الركاب فيها كثير.

علماً بأن الدرجة الأولى في طائرتهم هذه ليس فيها إلا ثمانية مقاعد.

وقد امتلأت الدرجة الأولى بركاب جدد صعدوا من مراكش.

وفي الساعة الثامنة وعشر دقائق كانت الطائرة تقلع من مطار مراكش إلى الدار البيضاء ولم يستكمل قرص الشمس بزوغه بعد، حتى ارتفعت الطائرة وتطامنت الشمس فرأيناها كأنما هي خجلى أو وجلى ولا أدري لم تخجل أو توجل.

وأعلنوا أن الطيران إلى الدار البيضاء سيكون لمدة ٢٨ دقيقة، فوصلنا الدار البيضاء في الثامنة والنصف وخمس دقائق وأعلنوا عند الوصول أن درجة الحرارة في الدار البيضاء ١٣ درجة مئوية.

شمال المغرب الأقصى:

وصلت إلى المغرب في رحلة غير معتادة إذْ كانت كل رحلاتي في العادة رحلات رسمية في مهمات رسمية كنت أكتب فيها مشاهداتي وملاحظاتي على ما أراه في البلدان التي أسافر إليها أي أن كتب الرحلات التي كتبتها وقد بلغت التسعين حتى الآن إنما كتبتها على هامش المهمات الرسمية التي أقوم بها.

أما هذه الرحلة فإنها خاصة في إجازة لها سبب خاص إذْ كانت (أم ناصر) زوجتي تقول لي: إنك منذ سنوات تسافر وحدك، وتتركني مع الأولاد وأنا أقدر عذرك في ذلك لكون أسفارك أسفاراً رسمية ليس من اللائق أن أصحبك فيها.

والآن وقد كبر الأولاد فإنني أطمع أن أصحبك في رحلة خاصة.

فقلت لها: لك ذلك ونعمت عين، لأنك كنت تقومين بجميع شئون البيت والأولاد في غيابي، ثم خيرتها في السفر إلى عدة بلدان فاختارت المملكة المغربية.

فحصلت على إجازة من عملي الرسمي مدتها شهر، وصحبنا معنا ابنتين من بناتنا هما مريم التي تدرّس اللغة الإنكليزية في المدارس الثانوية والمتوسطة بعد أن حصلت على شهادتها الجامعية متخصصة باللغة الإنكليزية، والثانية: مي، وهي صغرى الأولاد كلهم، وهي الآن في مرحلة الدراسة الثانوية.

وإن هذه الرحلة هي رحلة إجازة وعطلة، ومع ذلك اصطحبت معي طائفة من أوراقي ومؤلفاتي التي لم يتسع الوقت لإنجازها في زحمة العمل، وتواصل الأسفار، وقيدت فيها شيئاً عن أطراف من المغرب الأقصى وكانت هذه المرة أطرافاً شمالية فيه.

يوم الخميس ١٤١٣/٢/٨هـ ١٩٩٢/٨/٦م:

من جدة إلى الدار البيضاء:

ولو شئنا التقيد بما هو مكتوب في تذاكرنا لقلنا (كازابلانكا) لهذا المعنى بالإسبانية فكازا: دار وبلانكا: بيضاء في تلك اللغة.

وقد سميت بذلك لكون أولها داراً بيضاء أقامها بعض البحارة الأوروبيين المغامرين قرأت أنهم من الإسبان وقيل إنهم من البرتغاليين، وهذا بعيد لأن بيضاء، في اللغة البرتغالية (برانكا)، وليست بلانكا، وهي ليست بذات تاريخ عريق ولا باسم تاريخي قديم هو (الدار البيضاء) مثلاً ومع ذلك فإن هذا الاسم الأجنبي الذي يوحي بالاستعمار، لا يزال هو الاسم لهذه المدينة العربية المغربية المهمة.

وكان الأولى بالمغاربة الكرام أن يغيروه إلى الاسم العربي (الدار البيضاء) حتى في التذاكر والأوراق الرسمية، أو البيضاء مثلاً، ويطلبون إلى المؤسسات الدولية التقيد بذلك، وسوف ينطبع ذلك، لأنه هو الاسم الرسمي، وإذا بقي منها من يستعمل ذلك فإنه لا مانع من ذلك مثلما بعض الأسماء العربية محرفة وليس هو أصعب من اسم (دار السلام) عاصمة تنزانيا، ولا من (نيويورك) عاصمة التجارة والمال في الولايات المتحدة الأمريكية وعلى ذكر (نيويورك) أقول: إننا كنا نسمع قبل ٢٠ سنة بعض العرب يسمون هذه (الدار البيضاء) باسم (نيويورك) العرب تشبيهاً لها بنيويورك لكونها مدينة ضخمة وهي ميناء رئيسي واقع على المحيط الأطلسي، بل هي أكبر الموانى العربية على المحيط الأطلسي وحتى على أي بحر آخر من حيث عدد السكان.

ولا تنافسها في هذا المجال إلا مدينة الاسكندرية على خلاف في كثرة السكان بين (الدار البيضاء) والإسكندرية.

غادرنا مدينة جدة على طائرة الخطوط السعودية الضخمة ٧٤٧ وهي مليئة بالركاب الذين أكثرهم من الراكبين إلى المغرب، وأقلهم من الذاهبين مع الطائرة إلى داكار عاصمة السنغال بعد الدار البيضاء.

وأعلنو أن الطيران سيستغرق ٦ ساعات كاملة وهذه مدة جيدة للطيران إلى المغرب إذا قيست بالرحلات الأخرى التي تقف في محطة أو محطتين قبل الوصول للدار البيضاء فيستغرق طيرانها مع وقوفها أكثر من عشر ساعات.

من الطريف في الأمر أن بين الركاب عدداً من الفتيات المغربيات اللاتي يظهر من

أحوالهن أنهن من العاملات في القصور في بلادنا ذاهبات إلى المغرب في إجازة وقد تبرجن في الطائرة تبرجاً ظاهراً، بل فاضحاً، ربما كان انتقاماً من حرمانهن من مثل ذلك في المملكة.

ولذلك عندما بدأت الطائرة في النزول إلى مطار الدار البيضاء بدأن بستر ما كان واضحاً بل فاضحاً من أجسادهن.

ونزلت الطائرة في المطار الذي يسمونه مطار سيدي محمد الخامس (النصيرات).

من المطار إلى الرباط:

لست من المعجبين بالإقامة في الدار البيضاء، والسبب في ذلك هو أنها مدينة ضخمة حديثة أي ليست فيها معالم تاريخية قديمة، وليس لها طابع خاص لذلك عندما رأيتها لأول مرة قبل ٢٢ سنة، ثم تجولت فيها مرة بعد ذلك صرت أذهب فور الوصول إليها من مطارها مباشرة إلى الرباط التي تبعد عنها ١٢٠ كيلومتراً، وبقياس المسافة بين المطار وبين المدينتين أقول إن الأجرة المقررة للسيارات الصغيرة التي تنقل الناس من المطار إلى المدينتين هي للرباط ضعف الدار البيضاء.

وليس معنى ما ذكرته عن عدم رغبتي في المكث بالدار البيضاء أن معاملة أهلها سيئة للسياح وبخاصة للعرب منهم حاشا وكلا فالمغاربة في هذا المجال مجال معاملة الضيف الغريب سواء، فهم يعاملون الغريب بلطف يحسدهم عليه كل العرب إلاّ من أوتوا من كثافة الطبع، ومن قلة الذوق ما يجعلهم لا يقدرون هذه الأمور حق قدرها.

ركبنا مع سائق سيارة أجرة مغربي كهل إلى الرباط بأجرة بلغت (٤٠٠ درهم) أي أكثر قليلاً من خمسين دولاراً أمريكياً وهي أجرة كبيرة بالنسبة إلى هذه المسافة القريبة التي هي ١٢٠ كيلومتراً، هي أيضاً كبيرة بالنسبة إلى ما نعرفه من أجور سيارات الأجرة في بلادنا للمسافات المماثلة، وقد أخبرني ضابط شرطة كان في موقف سيارات الأجرة هنا أن هذا المبلغ هو الأجر المقرر من السلطات الرسمية، ونصفه- أي مائتا درهم- هو أجرة الوصول إلى الدار البيضاء من مطارها المذكور.

بين يدي الرباط:

أحببت أن أنقل هنا شيئاً عما كتبه بعض البلدانيين عن الرباط ايضاحاً لأمرها بين يدي ما اكتبه عنها.

قال الصديق بن العربي في كتاب: (المغرب).

الرباط (العاصمة): الرباط أو رباط الفتح هو العاصمة السياسية والإدارية للمملكة المغربية وبها مقر جلالة الملك وأعضاء الحكومة والإدارات المركزية والدواوين والمصالح المختلفة وسفارات الدول الأجنبية.

شيدها الخليفة عبدالمؤمن بن علي الموحدي في القرن السادس الهجري فجعلها رباطاً لحشد الجيوش والأساطيل لغزو الأندلس وبنى بها القصبة والدور والأسواق وأحاطها بالأسوار وأتم بناءها الخليفة يعقوب المنصور.

وفي عهد السعديين بعد سقوط الأندلس بيد الأسبان هاجر إليها عدد كبير من الأندلسيين فاستوطنوا بها وبنوا الدور والأسواق واشتغلوا بفلاحة البساتين كما نظموا بها حركة القرصنة بسواحلها.

وفي عهد السلطان محمد بن عبدالله العلوي اتسعت عمارتها وكثرت بها البناءات فشيد بها الملوك عدة مساجد وقصور وغرسوا بها حدائق أكدال حتى اصبحت من كبريات المدن.

والمدينة القديمة عبارة عن مستطيل غير متساوي الأضلاع يمتد طولاً من باب الأحد إلى باب البحر ومن الباب الجديد إلى باب لعلو ويخترقها شارع السويقة في اتجاه الطول وثلاثة شوارع في اتجاه العرض، وتقع قصبة الأوداية في ناحيتها الغربية ومدينة شالة التاريخية في الناحية الشرقية ويفصلها عن مدينة سلا نهر أبي رقراق الذي تمتد فوقه ثلاثة قناطر لربط المدينتين.

وقصبة الأوداية هي أقدم بناء في الرباط كانت تسمى بالمهدية نسبة إلى المهدي بن تومرت تقع فوق ربوة مشرفة على نهر أبي رقراق والمحيط الأطلنطي وبها عدة آثار تاريخية أهمها باب الأوداية البديع الذي يشهد بعظمة العصر الموحدي.

وبجانب القصبة المدرسة التي هي عبارة عن دار كبرى كانت في أول الأمر مدرسة لتدريب البحارة ثم أصبحت قصراً ملكياً وهي الآن تضم متحفاً للفنون المحلية ويلحق بها حديقة وقع تجديدها أخيراً بها مقهى مشرف على البحر يقصده الزوار.

وعلى مقربة من قصبة الأوداية من جهة البحر توجد عدة أبراج أهمها برج الدار على الشاطئ في مواجهة سلا و بحي المحيط يوجد برج آخر حديث البناء شيد في عهد المولى عبدالعزيز على يد مهندسين ألمانيين مجهز بمدفعين كبيرين من مدافع كروب.

وبحي المحيط على مقربة من باب القبيبات يوجد القصر الذي بناه المولى سليمان العلوي وقد أضيفت إليه بناءات جديدة وأصبح اليوم مستشفى عسكرياً.

أما جامع حسان الشهير فيقع في مرتفع عن يمين الطريق الذاهبة من الرباط إلى سلا في مواجهة نهر أبي رقراق، شيده الخليفة يعقوب المنصور الموحدي ليكون من أكبر مساجد العالم الإسلامي تبلغ مساحته ٢٦ ألف م.م، ويبلغ طوله ١٨٦م، وعرضه ١٤٢م، وبه ١٢ باباً و٣٦٠عموداً، وما زالت أطلاله شاهدة بعظمته.

أما منارة حسان العجيبة التي سارت بذكرها الركبان فتعد من أعاجب الفن المعماري، وهي غير تامة البناء ويبلغ عرض كل جهة منها ١٩م، وارتفاعها ٤٤ م، وهي المنارة الثالثة بعد الكتبية بمراكش (٦٧م) والخيرالدة بإشبيلية (٩٣م).

وبوسط المسجد القديم أقيم الضريح الجديد لجلالة الملك المغفور له محمد الخامس، والمتحف الخاص به والمسجد الجامع الجديد.

وهذه البناءات الجديدة تعد من أروع ما وصل إليه الفن المغربي الحديث.

وتبتدئ غابة اكدال من باب الرواح ذلك الباب العظيم الذي بناه الموحدون والذي يشبه باب الأوداية على مقربة من القصر الملكي.

وفي الرباط سور موحدي ممتد من باب لعلو في خط مستقيم إلى ما وراء القصر الملكي العامر ثم يتجه يساراً في خط مستقيم نحو الشمال الشرقي ماراً بباب زعير أمام شالة، أما السور الأندلسي الذي بناه الأندلسيون فهو السور الممتد من باب الأحد إلى سيدي مخلوف قرب الملاح.

ووراء السور الممتد بين باب الرواح وباب تواكَة يوجد القصر الملكي العامر الذي يضم زيادة على القصور الملكية مكاتب الوزراء والموظفين والدور الخاصة بالحاشية الملكية، وأمام القصر الملكي شيد المسجد الخاص بجلالة الملك الذي يؤدي فيه مولانا صاحب الجلالة صلاة الجمعة، وبجانب القصر الملكي يوجد ضريح السلطان الأكبر مولانا الحسن قدس الله روحه المتوفى سنة ١٤١١هـ، والخزانة الملكية.

وبالرباط حديقة التجاريب الواقعة بطريق تمارة، وحديقة باب الأحد، وحديقة الاوداية، وبها كثير من مراكز السباحة خصوصاً على الشاطئ الممتد في طريق الدار البيضاء البحرية.

وتطورت العاصمة بعد الاستقلال تطوراً عظيماً فاتسعت عمارتها وشيدت بها البنايات الجديدة وأصبحت مركزاً سياسياً وتجارياً وعلمياً من الأهمية بمكان، فأنشأت بها دور السفارات الاجنبية، ومكاتب الوزارات المختلفة، وتأسست بها جامعة محمد الخامس التي تضم كليات الآداب والحقوق والطب والهندسة والعلوم ومدرسة المعلمين العليا والمدرسة الإدارية ومعهد التعريب والمركز الجامعي للبحث العلمي وبني بجانب ذلك الحي الجامعي

والمكتبة العامة للكتب والمستندات، وبالمدينة كذلك أنشئت مختلف المراكز الثقافية الأجنبية كالمركز الثقافي العربي والمركز العراقي والمكتبة الأمريكية والمكتبة الفرنسية والمركز الثقافي الإسباني والروسي، ومن المتاحف يوجد بها متحف الفنون المغربية بالأوداية ومتحف التاريخ القديم ومتحف كلية الطب والعلوم ومتحف المامونية.

إنتهى.

المدن الملكية:

وقالت نشرة أصدرتها السلطات المختصة في المملكة المغربية عن المدن المغربية:

الرباط: عاصمة المغرب الإدارية تعرف بحدائقها الأنيقة الجميلة المليئة بالأشجار الباسقة وأريج الزهور كالحديقة المعروفة تحت اسم (المثلث) وحديقة البلفدير، وكذلك حديقة التجارب النباتية وحديقة الأوداية الشهيرة بمقهاها اللطيف الذي يتناول بها الزائر جميع أنواع الحلويات المغربية والشاي الأخضر المعطر، وتعرف كذلك بما فيها من آثارات خالدة وأبواب فخمة مزخرفة برسوم ذات طابع خاص.

ومن بين الآثار الجميلة جامع حسان وصومعته الشامخة بين أطلال المسجد الفسيح، وذلك ما خلفته عظمة الموحدين، شكلها بديع، اقتبس من أسلوب بزنطي، وشأن هذه الصومعة شأن الجيرالدة بإشبيلية والكتبية بمراكش.

من أعلى هذه الصومعة يمكن للزائر الكريم أن يشاهد مدينتي الرباط وسلا كل واحدة تقابل الأخرى على ضفتي نهر أبي رقراق، كما يرى أيضاً الأسوار العالية التي تحف بمدينة الرباط القديمة وأسواراً أخرى تفصل قصبة الأوداية عن باقي المدينة.

وفي البعيد مدينة شالة حيث توجد بها حديقة جميلة ثم أطلال للموحدين تؤي في ظلها قبور ملوكهم وبجانب القبور المدرسة بصومعتها الجميلة المزخرفة بالزليج الملون، وعلى قمتها ترى اللفالف وقد بنت أعشاشها تغرد من حين لآخر كأنها ترحب بدورها بالزائر الكريم، ثم المدينة الرومانية وبها الساحة الكبرى لمجلسها الفسيح وقوس النصر وحمامات باب زعير ما رين بالمشور الكبير متوجهين إلى مدينة الرباط عن طريق واسعة.

ولنخرج من مدينة شالة مارين بالقصر الملكي العامر، هذا المشور الذي تأتي إليه أفواج الشعب المغربي في جميع المناسبات لتحيي جلالة الملك، وكذا كل يوم عيد المؤمنين وتكسو هذه الظاهرة الدينية الأسبوعية طابعاً خاصاً ذات رونق أخاذ يخرج أثناءها صاحب الجلالة من قصره ممتطياً سهوة جواده أو في عربيته الخصوصية عابراً المشور السعيد ليؤدي في مسجد أهل فاس المجاور فريضة الجمعة.

إنتهى.

لم يكن السائق الذي حملنا من مطار الدار البيضاء إلى البراط ثرثاراً، بل كان صموتاً، وأقل من يلائمني من السائقين والأدلاء في مثل هذه الحالة هو الصموت، لأنني لا أعدم من الثرثار فائدة أحصل عليها في أثناء ثرثرته.

وفي الطريق تجلى الحكم النسبي على المناظر التي نمر بها ما بيني وبين أسرتي المرافقة لي فقد أعجبن بالخضرة الموجودة فيما بين الدار البيضاء والرباط، أما أنا فإنني عكس ذلك خيل إليَّ أنها شبه صحراوية وذلك لكوني قد قدمت لتوي من الصين في جولة زرت فيها مقاطعة (سي تشوان) الخضراء التي تفوق خضرتها خضرة المناطق الاستوائية.

أما أهلي فإنهم نظروا إلى الأمر بعين من لم يخرج عن بلادنا إلى بلاد غيرها منذ سنوات.

فندق صومعة حسان:

قصدنا فندقاً من فنادق الدرجة الأولى في الرباط كنت قد اعتدت النزول فيه منذ سنوات، وأول مرة دخلته فيها كانت قبل ٢٢ سنة، وذلك عندما قمت بزيارة للمغرب في مهمة رسمية هي الإعداد لرابطة الجامعات الإسلامية التي كانت فيها جامعة محمد الخامس في فاس بالإشتراك مع الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، وكنت آنذاك اشغل فيها وظيفة (الأمين العام للجامعة الإسلامية).

وقد ذهبت إلى الرباط بأمر من الملك فيصل رحمه الله، لأن تأسيس رابطة الجامعات الإسلامية كان بناء على موافقة منه.

فأقام الأستاذ محمد الفاسي وكان وزير الثقافة في المغرب آنذاك حفلة عشاء حضرها من موظفي الوزارة الأستاذ محمد بن البشير المدير العام للوزارة والأستاذة عائشة البورقادية وهي من كبار موظفي الوزارة، وكنت وحدي في المهمة الرسمية، ويومها أعجبت ببناء هذا الفندق وزخرفته ونقشه الذي كان كله وفق فن إسلامي عربي خالص لا أثر فيه لتغريب أو تخريب.

فصرت أنزل فيه إذا كنت في الرباط على قلة زياراتي للمغرب، وكانت المغرب آنذاك دولة ذات رخص من عدة نواح أولها رخص الأسعار حتى بالنسبة إلى المغاربة وثانيها رخص عملتها بالنسبة إلى العملات الأخرى، ومنها ريالنا السعودي الذي كانت ٣٨ منه تساوي مائة درهم مغربية.

فكانت أجرة الغرفة في فندق (صومعة حسان) هذا، والصومعة معناها المنارة فالمئذنة يسمونها صومعة، كانت أجرة الغرفة فيه بمائة وستين درهماً وكانوا يخفضونها لي بمقدار الربع

من أجل الجواز السياسي (الدبلوماسي) الذي أحمله.

وهذه المرة أردت لأسرتي التي ترافقني أن تنزل معي في هذا الفندق فنزلنا فيه بالفعل، ووجدنا الغرفة الواحدة ذات السريرين لشخصين بألف ومائة وعشرين درهماً، ولكننا لن نبقى في الرباط إلا يومين اثنين و(ليلة يا مكاري) كما يقول المثل العامي.

القسم القديم من الرباط:

كانت لي عادة قديمة أن انطلق من فندقي (صومعة حسان) هذا إلى القسم القديم في الرباط فأدخل مع إحدى بواباته التي لا تزال باقية على سوره القديم الذي لم تغيره القرون أو هي إذا غيرته أعاده أهلها إلى هيئته الأولى.

فانطلقت مع الأسرة في الساعة السادسة قبل الغروب سالكين الطريق نفسه، ودخلنا الحي القديم مع بوابة قديمة فوقعنا فور ذلك في الأسواق الشعبية المزدحمة التي فيها الغريب والطريف فأول ما استرعى انتباه أهلي نسوة يبعن نوعاً بل أنواعاً من الخبز خبزنه في بيوتهن، ويبعنه في هذا السوق.

وخمسة من المكفوفين قد اصطفوا فوق عتبة مسجد وهم ينشدون نشيداً أظنه في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم أو هو أحد الأناشيد الصوفية.

ورأينا الأسواق على طبيعتها القديمة فالقمَّاش- الذي يبيع القماش- حانوته بجانب حانوت الجزار الذي يبيع اللحم، والصناعات الوطنية التقليدية موجودة هنا بأنواعها وبأسعار رخيصة وطوائف الناس التي ازدحمت بها هذه الأسواق هي طوائف الشعب العريق المحافظ بآثرياته القديمة، وطبيعته القديمة.

ومن ذلك وجود السَّقَّا الذي يبيع الماء وهو لا يكاد يجد له موقع قدم في السوق لفرط الزحام.

وأكثر المساكن هنا ذات طوابق غير عالية إلا أن المرء لا يعدم أن يرى صومعة عالية جداً مبنية على طراز أندلسي فاخر تنتصب شامخة وسط هذه الأحياء الشعبية كأنما تذكر الناس أن هذا الشعب العريق الذي حكم الأندلس مئات السنين، وقهر الله به الكفار الصليبيين في تلك البقاع قروناً من القرون لا تزال توجد فيه خميرة دينية كامنة، وعزة إسلامية قد طمرتها نفايات المظاهر الأوروبية الزائفة.

ومع أن الأوروبيين ومن قلدهم من بني قومنا يصنفون المغرب في قائمة الدول المتأخرة الاقل نمواً وهي التي يسمونها تجاوزاً بالدول النامية، حتى ولو لم تكن تنمو بالفعل، فإن

الآداب العامة في هذه الأسواق المزدحمة كانت محترمة فلا تزاحم ولا مضايقات إلا مضايقات تأتي من جهات وجودها من الهنات غير الهينات في هذا المجتمع المغربي الراقي بأخلاقه وحسن معاملته للآخرين ألا وهي طائفة (الشحاذين) الملحفين الذين إذا عرفوا أنك أجنبي ثري فإنهم يلاحقونك بالحافهم، وقد يمسكون بطرف ثوبك أو يقفون في طريق سيرك.

جانب من شارع محمد الخامس في الرباط

ولاشك أن السلطات المغربية مطالبة بتخليص الناس منهم، فإن كانوا بالفعل من المحتاجين الذين لا يجدون ما يسدون به رمقهم فإن واجبها أن تيسر لهم ما يقتاتون منه، إما من العمل أو من الصدقة، وإن كان الأمر خلاف ذلك وإنما قصدهم جمع المال كما هو ظاهر الحال عند أكثرهم كان واجبها الضرب على أيديهم، وإراحة العباد والبلاد منهم.

قهوة الباهية:

بعد جولة ممتعة في أسواق الرباط القديمة ذهبنا إلى قهوة (الباهية) الواقعة على سور هذا الحي القديم في داخل الحي، فكانت فيها جلسة على (حريرة) وهي نوع من الحساء الغليظ الذي يصنع في المغرب خاصة فيه العدس والحمص وقطع صغيرة جداً من اللحم، ومعه الشاي الأخضر المغربي المشهور الذي يغرقونه بالنعناع حتى ما تدري أشاي هو منعنع أم هو نعناع (مشّهى)- إن صح التعبير- وهو تعبير صحيح إذا نظرنا إلى كونه شهي المذاق، عطري الرائحة، قليل النظير فيما نعرفه من أنواع الشاي الذي أكاد أجزم بأنني قد عرفتها كلها أو أكثرها من أنواع الشاي الصيني الأخضر و الأحمر الصيني الخفيف إلى الشاي المصري

الأسود الكثيف إلى الموريتاني الذي يغلى كما يغلى اللحم.

وقبل العودة إلى الفندق اشترينا مجموعة من الفاكهة المغربية الرخيصة التي أكثرها من فاكهة البلاد الباردة والمعتدلة كالخوخ والعنب والتين.

في السفارة السعودية:

ذهبت في صباح الجمعة إلى السفارة السعودية وذلك من أجل الحصول على سمة دخول إلى إسبانيا لأن أسرتي كانت قد حصلت على السمات المذكورة من السفارة الإسبانية في الرياض، أما أنا فإن جوازي كان معي في مكة وكان الوقت ضيقاً فرأيت أن الحصول على سمة الدخول بوساطة السفارة السعودية في الرباط هو أسهل لأن ذلك هو ما أعرفه في مثل هذه الأمور وقد عرفتها في جميع الأقطار التي فيها سفارات سعودية.

ذهبت للسفارة السعودية في العاشرة ويلاحظ أن يوم الجمعة هو يوم عمل في المغرب، وأن العطلة الأسبوعية فيه هي يوم الأحد مثلما عليه الحال في أوروبا، فوجدت طائفة من الموظفين المغاربة في مكتب القنصلية فأخبرتهم برغبتي في رؤية أحد الموظفين السعوديين فذكروا أنه لا يوجد منهم أحد الآن وأنهم لا يأتون إلا في العاشرة والنصف أو الحادية عشرة.

ثم قادني إلى كويتب في السفارة كان على مكتبه فأريته جوازي وفيه ذكر وظيفتي: الأمين العام المساعد لرابطة العالم الإسلامي، فسألني عن مقر الرابطة وهل هو في مكة أم في جدة؟ قلت: إنه في مكة المكرمة، ثم أخبرته برغبتي في الحصول على سمة الدخول من السفارة الإسبانية وجوازي (دبلوماسي) يقتضي الأمر أن يكتب معه كتاب من السفارة السعودية.

فسألته عن السفير فذكر أنه غائب عن السفارة، وقال: لكن نائبه- فلان- يستقبلك ولم أكن جئت للسفارة لغرض مقابلة السفير أو غيره لأن الوقت ضيق إذْ اليوم هو الجمعة وبعده يوما عطلة، وأنا أنوي السفر إلى طنجة غداً وبعدها إلى الأندلس.

فأخذ جوازي وقال: نكتب لك عليه، وبعد قليل عاد بالكتابة مع الجواز وقال: الأستاذ الذي ذكرته لا يستطيع مقابلتك لأنه سيذهب إلى المطار، قال إنه ذاهب إلى المطار، فقلت له: سلم لي عليه.

وكنت عهدت السفراء والمسئولين في سفاراتنا يرسلون الجواز السياسي من قبلهم ولا يسلمونه إلي إلاّ بعد الحصول على السمة، ولكنه قال: ليس عندنا سيارة ولا موظف يذهب به، والسفارة الإسبانية قريبة، تذهب إليها بنفسك.

وكان قال لي من قبل: إن السعوديين لا يحتاجون إلى (فيزة) إلى إسبانيا، فقلت له: إن أهلي حصلوا عليها قبل ٣ أيام من السفارة الإسبانية في الرياض، ولو كان الأمر كذلك لما أعطوهم اياها، ومع ذلك أرى أن تسألوا السفارة هاتفياً عن ذلك، فقال: لا ما يحتاج، ثم خرج معي من مبنى السفارة السعودية يشير إلى جهة وجود السفارة الإسبانية.

المذلة والهوان عند قنصلية الإسبان:

وصلت القنصلية الإسبانية بعد سؤال أو سؤالين فوجدت بابها مغلقاً وحوله أناس أشاروا إليّ أن أقرع الجرس فخرج إليّ موظفان مغربيان فتحا الباب الذي انفرج عن مدخل ضيق عليه اثنان من الموظفين المغاربة ذوي القسمات الجامدة أخبرتهم بقصدي فنظر أحدهما لجوازي وأعطاني ثلاث استمارات قال: املأها ثم أغلق الباب دوني فأمسكت بالباب قائلاً، أين أملأها؟ ألا يكون ذلك في داخل القصنلية؟ قال: إلا، املأها في الشارع.

فقلت له: كيف استطيع الجلوس في الشارع، فقال: في هذه الحديقة، وكان أمام القنصلية حديقة ضيقة، كانت الاستمارات مكتوبة بالإنكليزية والفرنسية والاسبانية، فملأت اثنتين بعد تعب وفيهما قسم يتعلق بالجمرك أهملته بسبب جوازي (الدبلوماسي) ثم أسرعت أقرع الباب الذي كان قارعوه يزيد عددهم وكلهم من المغاربة الذين يتبين الذل والانكسار أمام باب القنصلية عليهم، فقال الموظف بطريقة آلية هات ٣ صور، قلت له: إن الجواز (الدبلوماسي) لا يحتاج إلى صور لأن السفارة التي تمنح السمة هي التي تأخذ الصور من الجواز أو تصور الجواز نفسه، فقال بغلظة: كل الناس يأتون بصور ولابد من ذلك، ثم أشار إلى شارع قريب وقال هناك مصور بجوز دراهم أي درهمين يأخذ لك الصورة فذهبت مسرعاً فوجدت المحل لا يأخذ صورة وإنما يأخذ نسخة من الصفحة التي فيها الصورة في الجواز، فلم يقبلها الموظف وقال لابد من صورة بالمقياس الذي في المربع في أعلى الاستمارة.

فقلت له: يا هذا، إن الوقت يمضي بسرعة وجوازي دبلوماسي فيمكنك أن تسأل أحد الموظفين الإسبان، أو تدعني أدخل عليه فأسأل، فقال: لا يمكن أن تدخل فناديت موظفاً جالساً على كرسي مغربياً أيضاً وقلت له: أرجوك أن تسأل موظفاً كبيراً بالهاتف داخل القنصلية أو السفارة عن الجواز السياسي أيحتاج إلى صورة.

وبعد ممانعة منه وإلحاح مني سأل أهل القنصلية فأجابوه بأن حامل الجواز السياسي لا يحتاج إلى سمة لدخول إسبانيا إذا كان يريد الإقامة فيها مدة لا تزيد عن شهر، فقلت له: يا هذا، ألم أ قل لك ذلك من قبل؟

ومزقت الاستمارات والاستبيانات التي ملأتها وسررت لذلك، ولكنني كنت حزيناً لغير ذلك، وهو حالة إخواننا المغاربة الذين يأتون إلى هذه الممثلية الإسبانية فيلاقون الذل والهوان، حتى إن مجرد فتح الباب الخارجي لهم الذي يشرع على الشارع لا يتاح إلا بصعوبة، ولا يسمح لهم بولوج باب السفارة، وإنما يقال لهم ما يقال وهم في الشارع فكأنهم الشحاذون الأيتام، على موائد اللئام.

وما عرفت ممثلية سعودية تعطيني رسالة مع الجواز الدبلوماسي، وإنما كانت السفارة ترسله مع أحد موظفيها وتخاطب السفارة الأجنبية، فإذا انتهى أعطوني إياه.

ما حدث لي اليوم خلاف ذلك، وما رأيت ممثلية في العالم سواء أكانت سفارة أم قنصلية تعامل مراجعيها بمثل هذه المراجعة إلا ما رأيت عند القسم القنصلي في سفارة الولايات المتحدة في مكسيكو عاصمة دولة المكسيك ولكن المكان كان واسعاً وهو داخل القنصلية المحاطة بحديقة واسعة.

أما هنا فإن المراجعين لا يرون أحداً من الإسبان وإنما يرون هؤلاء الموظفين المغاربة في القنصلية الذين هم بمثابة الحُجَّاب.

وتألمت عندما تذكرت أنهم في الواقع يمنعون المغاربة من بلاد كانت لهم لمدة ثمانية قرون، ودخلوها دخول الفاتحين الأعزة ثم عمروها بالعلم والدين، وتشجيع المعرفة حتى صارت مقصداً لطلاب العلم في كافة الفروع من أنحاء أوروبا نفسها.

وتألمت من جهة أخرى عندما تذكرت ما نشرته صحيفة (العلم) المغربية اليوم وما كنت قرأته في صحف أخرى من قبل عن المغاربة الذين كانوا يحاولون عبور مضيق سبتة الذي يسمى الآن مضيق جبل طارق على قوارب صغيرة متخفية متسللة، فيغرق بعضها ويذهب ركابه طعاماً لوحوش البحر، وقد نشرت صحيفة العلم صورة لجثة مغربي لم يبق منها إلا النصف الأعلى، وذكرت أنها وجدت طافية قد جرفها البحر على الساحل الأندلسي.

وذلك لأن القوارب المستأجرة الصغيرة تشترط على من يركبون فيها من المغاربة أن ينزلوا عند الشاطئ الأندلسي فيذهبون إليه سباحة لئلا تمسك السلطات الإسبانية بقاربهم.

لماذا كل هذا؟

وبعد: فإنه لابد لمثلي أن يسأل نفسه هنا سؤالاً ساله قبل ذلك وهو لماذا يتهالك المغاربة على الوصول إلى بلاد الأندلس بهذه الطريقة؟

والجواب: إن ذلك ليس لمجرد الدخول إلى إسبانيا والعمل فيها وإن كان ذلك مطلوباً لهم، وإنما هو باب للدخول إلى الدول الأوروبية الأخرى عن طريق إسبانيا، والعمل فيها.

ولكن يبقى السؤال حتى مع هذا الجواب المقنع، لماذا يحرص المغاربة على مفارقة بلادهم ولو بهذه الطريقة المهينة أو الخطرة؟

والجواب الذي ذكروه لنا وكرروه هو أن بلادهم ليس فيها العمل الذي يكفي للرجال والشبان القادرين على العمل، فتسأل: لماذا لم يكن فهيا ذاك العمل ونحن نراها مثل غيرها من الدول النامية تستورد أشياء يمكنها أن تصنعها في بلادها، و تصرف أموالاً يمكنها أن توجهها للصناعة التي توفر العمل لطائفة من أبنائها؟

ويكون الجواب كما كان الجواب في كثير من المسائل من هذا الباب في بلاد العرب هو العجب العجاب، إن المعرفة بالدواء موجودة والعلاج موجود، ولكن العمل به مفقود.

المطعم العربي بلا عربية:

سألت عن مطعم مغربي يقدم أطعمة مغربية على أن يكون نظيفاً فدلوني على واحد دخلته مع الأسرة ونحن أربعة فوجدناه كما ذكروه نظيفاً في كل شيء جيداً في كل شيء، فطلبنا طعاماً مغربياً جيداً ثم التفاهم عليه مع عامل المائدة، لأنه عندما أحضر قائمة الطعام كانت مكتوبة بالفرنسية وحدها وليست معها أية لغة أخرى لا الإنكليزية اللغة العالمية ولا العربية اللغة الوطنية، وتأملت الآكلين في المطعم فإذا بأكثرهم من المغاربة، ولم ألاحظ بينهم أجانب إلا مائدة واحدة كان الذي عليها هم من الإفرنج.

وهذه حالة تكررت في جميع المطاعم في مدن المغرب التي زرناها بعد ذلك أن تكون قائمة الطعام فيها مكتوبة بالفرنسية وحدها.

أما الطعام فإن سعره بالنسبة إلى مستواه مناسب إذْ دفعنا (٢٣٠) درهماً لغداء أربعة أشخاص وذلك يساوي واحداً وثلاثين دولاراً أمريكياً أو مائة وأحد عشر ريالاً سعودياً.

جولة على مدينة الرباط:

أردت أن يرى أهلي ما سبق أن رأيته في الرباط منذ سنوات وبخاصة حرص اخواننا

المغاربة على صيانة الآثار الإسلامية القديمة، والمحافظة على التراث الذي خلفه الأجداد، مماجعل المغرب رائدة للأقطار العربية كلها في هذا المجال فاستأجرنا سيارة أجرة استسمحنا وجه سائقها وظهر بالفعل أنه كذلك واسمه محمد بن عمار وهو واحد من إخواننا المغاربة الكثر الذين يتميزون بالمعاملة الكريمة، والتصرف مع زائر بلادهم، بل إن العربي الذي يزور المغرب يحس بالإخوة العربية أكثر مما يحس بها في أي بلد عربي آخر، ليس ذلك بالقول ولكن بالفعل، ولين الكلام وحسن التصرف بالفعل.

استأجرنا سيارته ويسمونه (التاكسي الكبير) وهو المخصص لحمل أربعة أشخاص بخلاف التاكسي الصغير الذي لا يجوز له أن يحمل أكثر من ثلاثة، وذلك بمائة درهم في الساعة زائداً ما زاد بهذا الحساب.

شارع محمد الخامس:

بدأنا الجولة مع شارع محمد الخامس الذي هو والد الملك الحالي (الحسن الثاني) وهو ملك مجاهد صابر قاد بلاده للاستقلال عن الحماية الفرنسية، بل صار أنموذجاً لجهاد الملك المسلم للبلاد المسلمة.

شارع محمد الخامس في الرباط

وهذا الشارع مهم مع أنه ليس واسعاً في كل أجزائه، لأن جزءاً منه يقع داخل القلب التجاري لمدينة الرباط وتقع على هذا الشارع أبنية مهمة منها مبنى مجلس النواب.

وكنت رأيته أول ما رأيته قبل أكثر من عشرين سنة فاخراً قليل النظير في بلادنا، أما الآن وقد تقدمت بلادنا في تخطيط الشوارع وتجميلها على أحدث الطرز وأوسعها فقد سبقت بعض الشوارع في مدننا هذا الشارع وأمثاله.

باب الأرواح:

خرجنا من بوابة مبنية على الطراز الأندلسي أو إن شئت الدقة قلت: إنه الطراز المغربي القديم، وتقع في سور قديم لمدينة الرباط، بني في عهد الموحدين الذين امتد عهدهم من عام ٥٢٤هـ حتى عام ٦٦٤هـ أبقاه المغاربة على حاله، ورمموا ما خربه الدهر منه، فغدا رائعاً يستحق أن يزار الرباط من أجل رؤيته وأمثاله ويسمون هذه البوابة (باب الأرواح) ذكروا أن سبب التسمية أن المغاربة عندما كانوا يناضلون للحصول على استقلالهم من فرنسا التي كانت موجودة في الرباط كانوا يترصدون لرجال الاستعمار الفرنسيين عند هذا الباب ويقتلون من يستطيعون الوصول إليه عند البوابة لذلك أسموه (باب الأرواح) أي الباب الذي تزهق عنده الأرواح.

وقال بعضهم: إن سبب التسمية غير ذلك وأن سببها أن بعض القبائل البدوية كانت تغير على مدينة الرباط القديمة فتحدث معارك يقتل فيها أشخاص من أهل الرباط ومن أفراد القبائل عند هذا الباب.

وهذا أقرب للصواب لقدم التسمية.

باب زعير:

جانب من سور أثري في الرباط

وذهبنا لبوابة أخرى على السور اسمها باب ازعير مضافاً إلى (زعير) التي هي قبيلة كانت تسكن في تلك المنطقة القريبة من الباب، وربما كان ذلك لكونها تدخل وتخرج منه.

و(زعير) من البدو ولم يقل السائق: من الأعراب، لأن البداوة يتنازعها في المغرب إخواننا البربر مع العرب، فالبدو هم كل من (تَبدَّى) أي نزل البادية، وأما الأعراب فإنهم العرب المتبدين.

وتعجب من وجود هذه القبيلة أو العشيرة (زعير) في هذا المكان من المغرب الأقصى لكونه كان مكان حضارة قديمة، ولكن البادية من عادتهم التنقل والاقتراب من المدن في بعض الحالات لأسباب منها الجدب، ومنها العداوة والحرب مع قبيلة أخرى، ويكون ذلك في أحيان كثيرة مدعاة لتحضرها وهجرها حياة البداوة.

باب القيادة في الرباط

القصر الملكي:

دخلنا إلى ساحة بل ساحات واسعة منسقة فيها الطرق الأسفلتية ذات الأرضية المعتنى بها، وفيها الحدائق ذات الزهور البهيجة الألوان، وفيها بيوت كبيوت الضواحي في المدن الأنيقة يسكنها العاملون في القصر والأثيرون لدى الملك.

ومن ذلك مسجد جميل البناء ذو صومعة أندلسية مربعة.

ورأينا القصر الملكي واسعاً ولكنه ليس عالي المباني، ولا مسرفاً في المظهر حسبما رأيناه على البعد، ورأيت طوائف السياح وأكثرهم من الأوروبيين ومن يشابهونهم من الأمريكيين قد جاءوا مثلنا للتفرج لرؤية القصر، ولكن الجميع يجب عليهم أن يترجلوا من السيارات عند موضع معين من هذا الفناء الواسع ثم إذا أرادوا الاقتراب من القصر أكثر يمكنهم أن يذهبوا إليه مشياً مع أن الاقتراب منه هو إلى مسافات معينة يقف الأمر بعدها.

منطقة شالة:

خرجنا من منطقة القصر مع بوابة قديمة تقليدية من أجل وأجمل ما رأيت لقدمها أو لنقل: ُن احساسي وأنا أمر بها هو أحساس من أجمل ما أحسست به وأنا أدخل مع بوابات كثيرة مثلها، وذلك لكونها من آثار قوم من قومنا المغاربة نحبهم ونجلهم ونعتز بأعمالهم القديمة التي صارت مفخرة للعرب والمسلمين أينما كانوا من وجه الأرض.

وحالما خرجنا من بوابة الخروج المتصلة بسور الرباط القديم وصلنا إلى منطقة اسمها (منطقة شالة) أهم ما يميزها قلعة ذات أبراج وسور حجري قديم، وهي من مخلفات الرومان في هذه المنطقة.

وقد أحسن أهل الرباط صنعاً حينما أبقوا هذه المنطقة قائمة و حدها ولم يسمحوا باتصال العمارة بها التي لو اتصلت بها لأخفتها عن العيون.

باب شالة في الرباط

وقد اشتهرت بأنها من الآثار الرومانية التي سبقت الإسلام إلى هذه المنطقة، وهذا صحيح ولكن الصحيح أيضاً أن فيها آثاراً إسلامية مغربية عديدة لأن المسلمين اتخذوها قاعدة على مر العصور وبنوا فيها أبنية جديدة، وأياً كان الأمر فإنها بقيت وحدها بارزة للعيان لا يتصل بها شيء من العمارة، وتنتصب شامخة فوق ضفة مرتفعة من وادي نهر (أبي الرقراق) الذي يفصل بين مدينتي سلا والرباط، ومن جهة أخرى تناوح مدينة الرباط المسورة يفصل بينهما فراغ يصل ولا يقطع.

وأهم الآثار الإسلامية فيها بابها الرئيسي وأسوارها التي بنيت في عهد السلطان أبي سعيد المريني في القرن الثامن الهجري!

منطقة حسان:

بقايا المسجد قرب صومعة حَسَّان في الرباط

تركنا منطقة الآثار الرومانية في (شالة) إلى منطقة أثرية عربية إسلامية هي منطقة حسَّان التي من أهم الآثار الباقية فيها (صومعة حسَّان) وهي صومعة مربعة مبنية من الحجارة محكمة البناء مضى على بنائها أكثر من سبعة قرون وما زالت كما تركها بانيها و يساوي ارتفاعها ارتفاع بناء من ٨ طوابق، والصومعة عندهم هي المئذنة والبرج.

وتتناثر حول الصومعة في مساحات كبيرة وبخاصة من جهة الشمال بقايا أعمدة المسجد الجامع الكبير بعضها ظل واقفاً متماسكاً لانه مقتطع من حجارة كبيرة صلبة قد خرقت أوساطها وأدخلت بينها قضبان حديدية قوية حتى تحافظ على تماسكها وعدم انفراطها.

وهذه المنطقة هي في الحقيقة منطقة أثرية ثمينة يمكن لمن يكون في الرباط القديمة أن يسير على قدميه إليها مشياً وكنت أفعل ذلك في القديم عندما كنت ساكناً في فندق (صومعة حسان) الذي هو منسوب إلى هذه الصومعة، فأتمشى في هذه المنطقة الأثرية وأصعد داخل الصومعة، إذْ داخلها واسع أملس ليس فيه زلف من الدرجات، وقد فعلوا ذلك فيما ذكروا حتى يستطيعوا أن ينقلوا إليه ما يحتاجون إلى نقله على ظهور الدواب من الخيل والبغال وغيرها.

ضريح محمد الخامس:

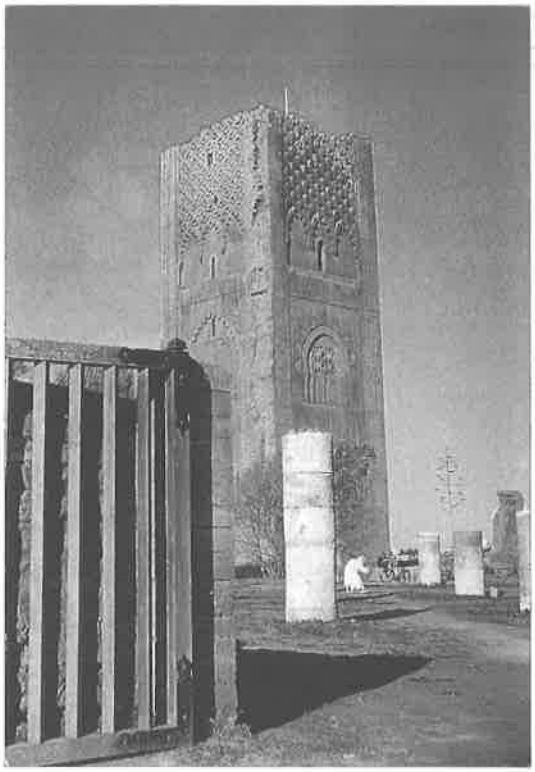

صومعة حسان

في الشمال من منطقة حسان الأثرية هذه أقيم ضريح الملك محمد الخامس والد الملك الحالي، حيث دفن هناك، وأقاموا له ضريحاً منقوشاً ومزوقاً على الطريقة الأندلسية القديمة بإسراف شديد، لم يبالوا بالجهد والمال الذي بذلوه في ذلك.

وقد أقاموه ذا أروقة أندلسية بعقود متدلية منقوشة بالجبس، والجص في نقوش بديعة هي تحفة للناظرين لا يكاد المرء يجد لها مثيلاً في غير هذا المكان.

وبجانبه أقاموا مسجداً غير واسع، ولكنه مزخرف ومنقوش كله على الطريقة المغربية التقليدية الخالصة الخالية من أي تأثير آخر.

وقد اكتظ المكان- على سعته- بالمتفرجين والزوار من مغاربة وأجانب كما كان عندما رأيته قبل ذلك وكثير منهم يلتقطون الصور التذكارية أو يجلسون منسجمين مع هذه الآثار التاريخية والمناظر الحديثة التي تشدك إلى الماضي البعيد.

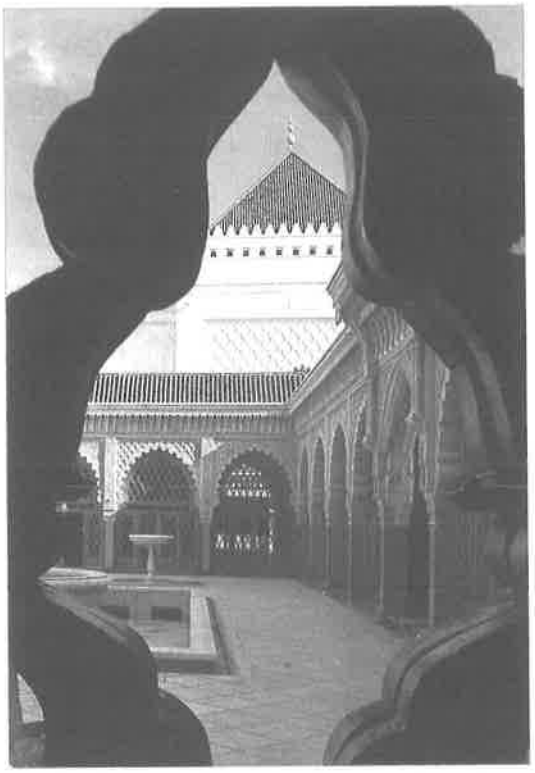

داخل المبنى على قبر محمد الخامس في الرباط

وتقع هذه المنطقة في مكان مرتفع يشرف على جزء من مدينة الرباط القديمة، كما يشرف على وادي (أبي الرقراق) المنخفض الأخضر البهيج.

مدينة سلا:

مدينة (سَلاَ) مثل مدينة الرباط عريقةاشتهرت في أخبار الفتوح والجهاد في سبيل الله سواء منه ما كان مبادرات لنشر دين الله، وما كان منه دفاعاً عن حوزة الإسلام والمسلمين.

وليس أدل على ذلك من اسم (الرباط) الذي أصله (رباط الفتح) بكسر الراء وإن كانت طائفة من الصحفيين والمتعلمين من الإذاعيين والتلفازيين ينطقون باسمها بفتح الراء مع أنهم لو تبصروا أمرهم لعرفوا أن الرِّباط بكسر الراء هو مرابطة الأعداء على الحدود، وبتعبير أدق ملازمة الدفاع عن حدود بلاد المسلمين عن أعداء الدين.

كما أنهم لو تبصروا أمرهم لعرفوا أن الرَّباط بفتح الراء ليس له معنى يمكن أن يصلح اسماً لهذه المدينة العريقة.

وما تزال مدينة (سلا) محتفظة بسورها القديم أكثره أصبح مع قلاعه وبواباته رمزاً لمجد الماضي، وتذكيراً لناشئة المسلمين بما كان يفعله آباؤهم من السهر على الدفاع على البلاد.

تقع مدينة (سلا) في الجهة الشمالية من مدينة الرباط لا يفصل بينهما إلا وادي غير واسع يجري فيه نهر (أبو الرقراق) و(راقراق) أي صاف من الأكدار، مع أن الذي قرأته هو أن هذا اسم حديث للنهر وأنه كان له اسم قديم هو وادي الرمان واسم آخر هو وادي نهير، وهذا النهر يأتي من جبال الأطلس وينتهي في البحر بين هاتين المدينتين.

وكنت في أول عهدي بالرباط أسير ماشياً من الرباط إلى سلا مخترقاً هذا الوادي مع الجسر العام على النهر وعجبت الآن من كوني استطيع ذلك لأنه طويل بالنسبة إلى ما أمشيه الآن، لأن وقتي وجهدي لا يسمحان في الوقت الحاضر بما يسمحان به في الماضي.

وقد استغرق منظر المناطق الأثرية التي مررنا بها في الرباط أفكار أهلي المصاحبين لي في هذه الجولة وأبدوا إعجابهم الشديد بمحافظة الإخوة المغاربة على هذه الآثار القديمة الرائعة.

قطعنا الجسر الذي فوق نهر (أبو الرقراق) فوقعنا فجأة في مدينة (سلا) القديمة وذكر لنا سائقنا الأخ (محمد بن عمار) أنه من أهل هذه المدينة، غير أن والده انتقل منها إلى الرباط.

قمنا في أول الأمر بجولة بالسيارة على سورها القديم المدعم بالأبراج الذي يكفي النظر إليه لكي يمتلئ المرء بالإعجاب والاستغراب، ثم دخلنا مع إحدى بواباته إلى المدينة القديمة التي هي ضيقة الشوارع غير معتنى بها.

وحتى السور فإنه قد لقي العناية التامة ما عدا أجزاء خلفية منه، ثم سرنا إلى شاطئ البحر الذي تقع عليه مدينة سلا فإذا به صخري بل هو ذو صخور سود سيئة المنظر، وتملأ الأكدار والنفايات أجزاء منه، ولذلك لا يعتبر شاطئاً صالحاً للسباحة.

وقال السائق: هذه حارة مولاي فلان وتلك حارة (سيدي فلان) لأن فلاناً وهو ولي من أولياء الله كان قبره فيها قبل أن تصبح حياً من الأحياء الخارجة عن مدينة (سلا).

ثم التفت إليَّ وقال: أنتم لستم مثلنا ليس عندكم (مولاي) ولا (سيدي)، قلت: نعم، على هذا الاعتبار.

وقد عدنا إلى الرباط مع غروب الشمس، ولكننا لن نترك مدينة (سلا) وشأنها قبل أن ننقل كلمات قيلت فيها في القديم والحديث هي بالأنموذج مما كتب عنها أشبه بالكتابات الكاملة.

أقوال للمتقدمين في مدينة سلا:

قال الشريف الإدريسي:

مدينة سلا الحديثة على ضفة البحر وكانت في القديم من الزمان مدينة شالة على ميلين من البحر وموضعها على ضفة نهر اسمير الذي يتصل الآن بمدينة سلا الحديثة، وهناك مصبه في البحر، وأما شالة القديمة فهي الآن خراب وبها بقايا بنيان قائم وهياكل سامية، ويتصل بخرابها عمارات متصلة وزروع ومواشٍ لأهل سلا الحديثة، وسلا الحديثة على ضفة البحر الملح منيعة من جانب البحر لا يقدرُ أحد من أهل المراكب على الوصول إليها من جهته.

وهي مدينة حسنة حصينة في أرض رمل ولها أسواق نافقة وتجارات ودَخْل وخَرْج وتصرف لأهلها وسعة أموال ونمو أحوال والطعام بها كثير رخيص جداً وبها كروم وغلات وبساتين وحدائق ومزارع.

ومراكب أهل اشبيلية وسائر المدن الساحلية من الأندلس يقلعون عنه ويحطون بها بضروب من البضائع وأهل إشبيلية يقصدونها بالزيت الكثير، وهو بضاعتهم ويتجهزون منها بالطعام إلى سائر بلاد الأندلس الساحلية والمراكب الواردة عليها لا ترسى منها في شيء من البحر لأن مرساها مكشوف وإنما ترسى المراكب بها في الوادي(٤) الذي قدمنا ذكره وتجوز المراكب على فمه بدليل لأن في فم الوادي أحجار وتروش تنكسر عليها المراكب وفيه أعطاف لا يدخلها إلا من يعرفها وهذا الوادي يدخله المد والجزر في كل يوم مرتين، وإذا كان المد دخلت المراكب به إلى داخل الوادي وكذلك تخرج في وقت خروجها وفي هذا الوادي أنواع من السمك وضروب من الحيتان، والحوت بها لا يكاد يباع ولا يشترى لكثرته وجودته، وكل شيء من المأكولات في مدينة سلا موجود بأيسر القيمة وأهون الثمن.

ومن مدينة سلا مع البحر الملح إلى جزائر الطير اثنا عشر ميلاً ومنها في جهة الجنوب إلى مرسى فضالة اثنا عشر ميلاً ومرسى فضالة ترده المراكب.

إنتهى.

وقال الحميري في الروض المعطار:

مدينة سلا: ببلاد المغرب بينها وبين مراكش على ساحل البحر أربع مراحل، و هي مدينة قديمة أزلية، فيها آثار للأول معروفة بضفة الوادي، متصلة بالعمارة التي أحدثها هناك أحد ملوك بني عبدالمؤمن، وكان قد اتخذ أرباب البلد مدينة بالعدوة الشرقية، وهي المعروفة الآن بسَلاَ الحديثة فهي منيعة من جهة البحر لا يقدر أحد من أهل المراكب على الوصول إليها من جهته، وهي حسنة في أرض رمل، ولها أسواق نافقة وتجارات ودخل وخرج، ولأهلها أموال.

والطعام بها كثير رخيص جداً، وبها كروم وغلات وبساتين.

ومراكب أهل إشبيلية وسائر المدن الساحلية من الأندلس يقلعون عنها ويحطون بها بضروب من البضائع، ويقصدها أهل إشبيلية بالزيت الكثير، ويتجهز منها بالطعام إلى سائر بلاد الأندلس الساحلية، ومرساها مكشوف، إنما ترسي المراكب الواردة عليها في الوادي وتجوزه بدليل لأن في فم الوادي حجارة وتروشاً تنكسر عليها المراكب، فلا يدخلها إلا من

٤ يريد بالوادي النهر الذي يسمى الآن (وادي أبي الرقراق).

يعرفها، وهذا الوادي يدخله المد والجزر مرتين في كل يوم، فإذا كان المد دخلت المراكب به إلى داخل الوادي، وكذلك تخرج في وقت خروجها، وفي هذا الوادي(٥) أنواع من السمك وضروب من الحيتان، ولا يباع بها ولا يشترى لكثرته وجودته، وكل شيء من المأكولات في مدينة سلا بأيسر القيمة.

وكان يوسف بن عبدالمؤمن أمر ببناء مدينة كبيرة متصلة بالقصبة التي كان أحدثها بها أمير المؤمنين وفيها جامع وقصور وصهاريج (الماء) أمام الجامع، وهو مجلوب من نحو عشرين ميلاً.

وفي هذه المدينة المحدثة قيسارية عظيمة وحمام وفنادق وديار كثيرة ومياه مطردة وسقايات ومنافع أعدت لورود المحلات عليها، إذْ وضعها على المجاز والمعبر إلى مراكش، وعلى هذا المعبر قنطرة مركبة على ثلاثة وعشرين معدية، مدّت عليها وصال الخشب وصلبت عليها الألواح والفرش الوثيق الذي لا يؤثر فيه الحافر، تجوز عليه العساكر والمسافرون، ويتصيد حوله أنواع السمك الشابل وغيره.

ويمد البحر فترتفع القنطرة ويغطي الجسر فتقوم عليه المراكب وترسي دونه الأجفان الكبار، وقلما تسلم عند دخولها أو خروجها لصعوبة المدخل، وهو مشهور عند أهل البحر، ويقابله من مراسي بلاد الأندلس وادي شلب، وبينهما في البحر يوم وليلة، وهذه البلدة وقت مرور المحلات عليها متفرج عظيم، ولاسيما في الأعوام الخصبة والفصول المعتدلة، (وناهيك من) ساحل طوله ميلان وعرضه نحوميل، والزوارق هناك بركابها والمنارة مطلة عليها، وعلقات الثمار وعقد الزيتون وقباب الجلوس للسادة هناك فهي إحدى منتزهات الدنيا.

ومن صور رسالة كتب بها أبو العباس ابن أمية وهو بسبتة إلى الفقيه أبي المطرف ابن عميرة وكان اذْ ذاك بسَلاّ:

النفس أنـزع والصبابة أطـوعُ حلّوا سلا فسلي فؤادي هل سلا
حملته من كلف الغرام الأضلع يعدوا فهل لهم اضطلاع بالذي

٥ يريد النهر.

وقال الفقيه أبو المطرف في فصل جواب هذه الرسالة:

ثـاو بسبتة مـن مقيم في سلا قد كان صفو العيش يدنو لو دنا
كلا ولا استعذبت ماءً سلسلا من بعدهم لم أرض ظلاً سجسجاً

لا أدري هل سلا هذه هي التي ذكر أنها على ضفة النيل وشماله ببلاد السودان أو هي غيرها، فقالوا: سلى التي بضفة النيل مدينة حاضرة، بها مجتمع السودان، ومتاجرها صالحة وأهلها أهل باس وعدة، وهي من عمالة التكروري، وهو سلطان له عبيد وأجناد، وله حزم وجلادة وعدل مشهور وبلاد آمنة، وموضع مستقره مدينة تكرور، وهي في جنوبي النيل، وبينها وبين سلى مقدار يومين في البحر وفي البر.

إنتهى.

أقول (سلا) التي أشكل أمرها على مؤلف (الروض المعطار) غير (سلا) المغربية هذه الواقعة بجانب الرباط تلك من بلاد التكرور التي تقع في السودان الغربي- بالغين المعجمة- وهو السودان ذو التسمية التاريخية العريقة، وطبقاً لما وصفها به البلدانيون فإنها تقع الآن في السنغال أو في جنوب موريتانيا لأنهم ذكروا أنها واقعة في بلاد (غانة) القديمة، موقعها على النيل ويريدون بذلك (نيل غانة) الذي يسمى الآن (نهر السنغال) كما قال ابن سعيد و(نيل غانة) شقيق (نيل السودان).

وهو النهر العظيم الذي صار يعرف الآن بنهر النيجر، واسمه القديم عند بني قومنا القدماء (النيل) أو نيل السودان، ظناً منهم أنه أصل (نيل مصر) أو لكونهم يسمون النهر الكبير (نيلاً) كما قالوا في نهر السنغال إنه نيل غانة، وإنه شقيق لنيل السودان.

والجدير ذكره أن السودان العربي- بالعين المهملة لم يكن يعرف بهذا الاسم في كتبنا الجغرافية القديمة، وإنما يعرفون السودان الغربي بالغين المعجمة الذي صار يسمى بعد ذلك (بلاد التكرور).

ويفهم من هذا أن بين مدينة (سلا) التكرونية و(سلا) المغربية هذه أكثر من مسيرة شهرين للإبل.

وقال ياقوت الحموي في معجم البلدان:

سلا: بلفظ الفعل الماضي من سلا يَسْلُو: مدينة بأقصى المغرب ليس بعدها معمور إلاّ مدينة صغيرة يقال لها غَرْنيطوف ثم يأخذ البحر ذات الشمال وذات الجنوب وهو البحر المحيط فيما يزعمون، وعلى ساحل جنوبيه وما سامته بلاد السودان.

وسلا: مدينة متوسطة في الصغر والكبر موضوعة على زاوية من الأرض قد حاذاها البحر والنهر، فالبحر شماليها والنهر غربيها جارٍ من الجنوب وفيه نهر كبير تجري فيه السفُنُ أقرب منه إلى البحر، وفي غربي هذا النهر اختطّ عبدالمؤمن مدية وسماها المهدية، كان ينزلها إذا أراد إبرام أمر وتجهيز جيش، ومنها إلى مراكش عشر مراحل، وهي من مراكش غربية جنوبية.

وقال الصديق بن العربي في كتابه (المغرب):

سلا: على الضفة اليمنى لنهر أبي رقراق تقع مدينة سلا في مواجهة الرباط ويرجع تاريخ بنائها إلى عصر بني يفرن وفي العصر الموحدي اتسعت عمارتها وشيد بها الخليفة يعقوب المنصور مسجدها الأعظم، وفي عصر بني مرين خربها الإسبان فأعيد بناؤها وشيد بها الباب الكبير المعروف بباب المرسية (قاع الملاح) وكذلك المدرسة المرينية قرب المسجد الأعظم.

وبعد سقوط الأندلس هاجرت إليها جالية كبرى من الأندلسيين ونشطت بها حركة القرصنة في العصر السعدي وأوائل العصر العلوي.

وسلا هي أول مدينة تعرضت لهجوم الأوروبيين حيث ضربها الإسبان سنة ٦٥٨هـ حتى أنجدها السلطان يعقوب المنصور المريني وبنى بها الأسوار لحمايتها ثم تعرضت لضربات الأسطول الفرنسي سنة ١٦٧١م، وأصليت مرة أخرى سنة ١٧٦٥، ومن بين المآثر التاريخية الموجودة بها:

جامع الشهباء المرابطي الذي جدد مراراً، والمنارة الموحدية الموجودة بزنقة بارمادة، وهي شبيهة بمنارة مسجد تينمل بالأطلس، والمسجد الجامع الذي بناه الموحدون وجدده المرينيون ثم المدرسة المرينية بجانبه، ثم زاوية النساك خارج باب الخميس، وهي من الزوايا التي أنشأها أبوعنان المريني خارج المدن لتكون دوراً للضيافة للعلماء والصلحاء والزهاد، بنيت سنة ٧٥٧هـ.

وتربط بين سلا والرباط القنطرة العظمى التي شيدت في أوائل عهد الاستقلال وهي قنطرة مولاي الحسن.

وبساحة باب الخباز توجد الخزانة(٦) الصبيحية التي أنشأها العالم العلامة المرحوم السيد الحاج محمد الصبيحي جزاه الله أحسن الجزاء.

وبضاحية المدينة يمتد حي بطانة وحي تابريكت ثم غابة أشجار البلوط الممتدة في طريقي القنيطرة ومكناس.

٦ يراد بها خزانة الكتب.

وبخارج المدينة على ساحل المحيط يمتد شاطئ سيدي موسى الدكالي بمناظره العجيبة وعلى مقربة منه توجد قصبة كناوة من آثار العصر الإسماعيلي.

وعلى بعد ١٤ كلم في طريق القنيطرة توجد حديقة النباتات الغريبة التي جلبت من عدة أقطار أوروبية وإفريقية، وتعد هذه الحديقة من أكبر حدائق النباتات في الشمال الإفريقي.

إنتهى.

وقالت النشرة الحكومية المغربية: سلا: مدينة تكون مع الرباط بناءات شبيه مستطيلة لولا أن نهر أبي رقراق الذي يفرقهما لم يجعل منهما مدينتين مستقلتين، فرغم أن سلا لم تكن من العواصم التاريخية فإنها تمتاز بمناظر فتانة، وآثار ضخمة تشهد بالدور الذي لعبه موقعها من البحر وبقربها للعاصمة الملكية.

فباب مرنيسة العالية ومدرستها ذات الصحن الفتان تمثلان نموذجاً رائعاً للفن والبراعة المغربية.

وإذا كانت الرباط مدينة الحدائق فإن سلا مدينة الأضرحة وأكبرها ضريح سيدي عبدالله بن حسون بقبته الغريبة ورواقه الخارجي المزركش بعدة ألوان، ثم ضريح سيدي ابن عاشر الذي يلفت نظر الزائرين ببياضه الناصع تحت السماء الزرقاء.

ولا ننس أن هذه الأضرحة توجد ازاء أسوار تطل ومدافعها القديمة على البحر.

هذا وبمدينتي الرباط وسلا، يوجد صناع عديدون اختصوا بصناعة الجلد والأواني النحاسية والحديدية، والجدير بالذكر أن لهم مهارة في تجديد منتوجاتهم حسب التقدم الصناعي مع الاحتفاظ بالطابع التقليدي.

اشتهر صناع هذين المدينتين أيضاً بنسج الزرابي(٧) والطرز، أما أهل سلا على الخصوص فقد اشتهروا بنسج الحصر من السمر.

إنتهى.

ننبه هنا إلى أن بناء الأضرحة على القبور لا يجوز في الشرع، ولكن إيراد ذلك من باب بيان وجود الأبنية التاريخية القديمة.

٧ المزرابي: السجاد: جمع زربية بمعنى سجادة.....

يوم السبت ١٤١٣/٢/١٠هـ ١٩٩٢م:

السفر إلى طنجة:

كنت ذهبت البارحة إلى محطة القطار واشتريت منها تذاكر لأربعة مقاعد طلبت أن تكون في أرفع درجة من القطار فقالت الموظفة: إنها الأولى الممتازة، قيمة كل تذكرة للسفر من الرباط إلى طنجة مائة وعشرة دراهم ويساوي ذلك ٥٤ ريالاً سعودياً وقد وصلنا إلى محطة القطار قبل موعد انطلاقه المقرر في العاشرة والربع بنصف ساعة فوقفنا أمام موقف الدرجة الأولى أو لنقل أمام الصعود إلى الدرجة الأولى من القطار.

وعندما وصل القطار رأيت تزاحماً شديداً من ركاب الأولى على الصعود، فرابني ذلك وكنت طلبت من الموظف الذي باع عليَّ التذاكر أن تكون أرقامها متجاورة، فقال: نحن لا نرقم المقاعد.

وبالفعل كان الأمر مريباً بل عجيباً، إذْ صعدنا إلى القطار ونحن نرفع أمتعتنا بصعوبة فوجدنا مع طائفة من الركاب أن المقاعد كلها مشغولة، وأنه لا يوجد مقعد خالٍ فقد شغلها الذين أسرعوا في الركوب، كما كان بعضها مشغولاً قبل ذلك.

ولك أن تتصور رب أسرة جاء مع أسرته سائحين، والسائح ينشد الراحة فلا يجد مقعداً يجلس عليه، والقطار يسير ويهتز فتتمايل معه الأجساد فتحاول أن تتشبث بما قرب منها من حوائطه.

وجاء الإنقاذ النسبي عندما شكونا الحال إلى موظف في القطار ففتح لنا شرفة كانت وحدها مغلقة بقفل أسرعنا نندفع فيها و أنا أمدد جسمي واضع حقيبتي في المكان وأنادي أهلي حتى جاءوا فبقينا كلنا و نحن أربعة على ثلاثة مقاعد، لأن كل صف فيها مؤلف من ثلاثة مقاعد واسعة.

وجلس أخ مغربي كهل مع فتاة ذكر أنها ابنة اخته وطفلين في المقاعد الثلاثة التي أمامنا، وقال: إن (عائلتي) موزعة في أربعة أماكن من القطار لأن الركاب تزاحموا ولم يمكنها أن تجتمع في مكان واحد.

وعندما جلسنا واطمأننا على أن حقائب اليد التي فيها ما نخشى عليه من الضياع والانتهاب في ممرات القطار، نظرت إلى طائفة من السياح الأجانب من أوروبيين وغيرهم وقد افترشوا أرض الممر حيث وضعوا حقائبهم وجلسوا فوقها يقومون لكل من أراد أن يمر ثم يعاودون الجلوس، فخجلت من نفسي وبني قومي المغاربة من هذا الموقف غير اللائق،

ولماذا يقطعون تذاكر أكثر من عدد المقاعد، ثم لماذا لا تكون هناك إجراءات تخفف من وقع هذا على نفوس الذين دفعوا أغلى ثمن في القطار ثم لم يجنوا إلا التعب وقد رأيت نسوة مغربيات من راكبات الدرجة الأولى قد افترشن المكان الواقع بين عربتين من عربات الدرجة الاولى وفيه الحمام، وجلسن يتحدثن وهن يتمايلن مع تمايل القطار.

وقال الأخ المغربي الجالس أمامي: إن التنظيم هنا غير ممكن لأن القطار يأتي به ركاب من أماكن قبل الرباط، وهم ذاهبون إلى طنجة أو ما دونها من المدن كالقنيطرة والعرايس وأصيلة، فلا يمكن للموظف أن يعرف عدد المقاعد الخالية.

فقلت له: إنه لو كان هناك جهاز للحاسب الآلي لأمكنه أن يعرف ذلك، ويمكن أن تضاف قيمة الحاسب الآلي على أقيام تذاكر الدرجة الأولى على أن يضمن من يقطع تذكرة فيها أنه سيحصل على مقعد يجلس فيه.

سار القطار والأخ المغربي يضفي علينا من كرم المغاربة ما ينسي المتاعب، فقد سارع يعتذر بأنه من أهل الرباط وليس من أهل طنجة- وإنما ذهب إليها مثلنا تلبية لدعوة من أصهار له، قال ذلك وهو يعطيني عنوان بيته في الرباط، ويقول: إنه يسرني أن أستضيفكم في بيتي في الرباط.

سار القطار ويعتبر سريعاً لأنه يقطع المسافة التي تصل إلى حوالي (٤٠٠) كم في ٥ ساعات إلا أنه وقف في مدن مهمة.

كانت أكثر المناطق التي سار فيها القطار مناطق معمورة تنتشر فيها القرى التي رأينا أكثر ما فيها معروضاً للبيع البطيخ الأصفر (الشمَّام) بلونه الفاقع الصفرة، وبمقادير كثيرة، بل هائلة وسررنا بمزارع منه ترى الأرض كلها صفراء، ولا تكاد الأوراق الخضر تسترها وذلك لأن هذا هو موسم إدراكه.

والإخوة المغاربة على خلق عظيم حتى مع هذا الحرج في الركوب وقلة المقاعد لا تسمع صياحاً ولا ترى نزاعاً، وقد دخلت حمام القطار فوجدته نظيفاً فيه الماء الجاري وورق التنظيف.

لم أكن في حالة نفسية أو وضعية أقيد فيها ما أراه أو ألاحظه من أماكن مر بها القطار ولكن الملاحظ أنها بلاد معمورة مزروعة وأن مناطق قليلة فيها لا تزال برية غير معمورة إلا أنها مغطاة بالحشائش وأعشاب الرعي فكنا نرى فيها في بعض الأماكن أغناماً ترعى ولكنها قليلة بالنسبة إلى حجم المراعي واتساعها.

هذه طنجة:

وصلنا إلى مشارف مدينة طنجة بعد نحو خمس ساعات على إنطلاق القطار من الرباط، فكان أول ما شاهدناه منها شاطئ البحر الذي يعج بالسابحين الذين ربما صح وصفهم أيضاً بالسائحين،، لأن معظمهم من السياح الذين وصلوا إلى طنجة من سائر انحاء المغرب لأن (طنجة) مصيف جميل مقصود من الجميع.

ورأينا المتشمسين من الأوروبيين ومن لف لفهم موجودين في أماكن من هذا الشاطئ، إلا أن المرء مثلي الذي سبق أن زار العالم واطلع على شواطئ البرازيل الجميلة يرى أن لباس النساء على البحر هنا فيه احتشام أو قل: إن فيه قلة في التهتك رغم العري الفاضح وعدم الحياء الواضح.

ذلك بأن البرازيل قد قل فيها اللباس حتى كاد يشرف على النفاد، واقتصر بالنسبة للمرأة على حبلين فوق السبيلين في الحبل الأمامي رقعة هي أصغر من ورقة التوت حقيقة لا مجازاً، وحبل آخر على الصدر فيه رقعتنان كأنهما غشاء البيضتين على رأسي النهدين.

وقف القطار في المحطة وجاء شاب حمّال حمل بعض الامتعة ثم اقتسمهما مع كهل آخر فأعطيت كل واحد منهما عشرة دراهم لم ترضه ولكنه لم يقل شيئاً لأنه يعرف أنها ليست أقل من حقه الذي يعطيه إياه المغاربة.

العناء في البحث عن فندق:

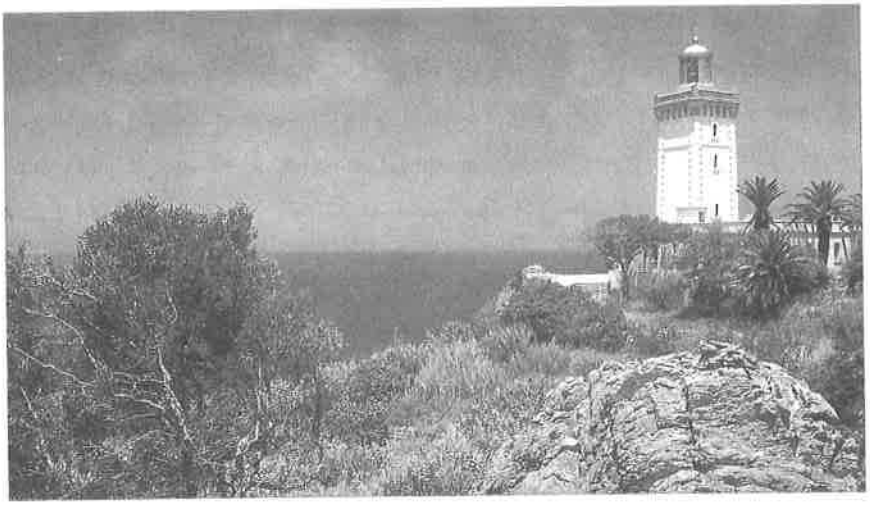

مرتفع يطل على البحر في ضاحية طنجة

ركبنا مع سيارة أجرة طلبنا من سائقها أن يذهب بنا إلى فندقين ذكرهما لي الأخ المغربي فلم أجد فيهما مكاناً خالياً، وكان قال قبل ذلك: إنه يعرف فندقاً مناسباً فتركته يبحث عن غرفتين أو عن شقة في فندق فطرقنا جميع أبواب الفنادق الكبيرة والصغيرة فكان الجواب بالعربية (صافي) أو (عَمْران) بفتح العين وإسكان الميم، أو مْعَمَّر بفتح الميم المشددة، أو عامر أو بالفرنسية كومبليت.

وقد أردنا الذهاب إلى مكتب خدمات السياحة ليدلنا على شقة، أو غيرها إن لم يجد فندقاً ولكن أحد ارباب الفنادق ذكر اسم فندق في ضاحية من المدينة ذهبنا إليه فذكر أنه توجد لديه غرفتان يستطيع أن يؤجرهما لنا لليلة واحدة فقط لأنهما محجوزتان غداً فرضينا بذلك.

فندق باسادينا:

كان الفندق الذي حصلنا فيه على ملجأ اسمه فندق (باسادينا) على اسم تلك المنطقة في أمريكا، وجدنا فيه شقة مؤلفة من غرفتين وحمام بأجرة رخيصة بل زهيدة وهي ٤٨٣ درهماً، ولكن تبين أنه غير مناسب لنا لأنه بعيد عن وسط المدينة، والحصول على سيارة أجرة تقف أمامه ليس متيسراً وبخاصة إذا كانت (تاكسياً) كبيراً يتسع لأربعة أشخاص، ومع ذلك اعتبرنا الحصول فيه على موطن قدم نعمة يجب أن تشكر، وأخلدنا للراحة.

مع أن هذا الفندق جيد المداخل والأبهاء، أمامه مواقف للسيارات تحت أشجار باسقة مما يعطيه المزية لمن يأتي إليه بسيارته، وقسم كبير من أهل المغرب بل حتى من أهل أوروبا يأتون إلى طنجة بسياراتهم، أما حالة الغرف والنوافذ فإنها مصابة بداء الدول النامية المتخلفة وهو عدم الترميم والإصلاح، بحيث أن بعض الأبواب لا تغلق إغلاقاً جيداً، وأشياء عديدة في الحمام تحتاج إلى إصلاح بل هو يحتاج إلى ترميم، وذلك مثل شرفة جيدة لاجدى الغرف قصيرة الحيطان بحيث يطل من يكون جالساً فيها حتى على أرضها على المنطقة التي تشمل جزءاً من ضاحية جديدة من مدينة طنجة.

منظر من مدينة طنجة

ويرى مبنى لم نعرفه أول الأمر وإنما ظنناه ملعباً صغيراً لأنه مستدير وداخله شرفات وغرفاً في الطابق الخامس نراه من دون أن نرى فيه حركة أو حتى أي أثر للحياة ثم عرفنا بعد ذلك أنه كان حلبة لمصارعة الثيران، عندما كان الإسبان يحكمون طنجة مع عدد من الدول التي كانت تحكمها حكماً دولياً.

قبل ٢٢ سنة:

حان موعد العشاء ولم نكن تغدينا غداءً ثقيلاً، فسألنا أهل الفندق عن مطعم مغربي راقٍ نتعشى فيه هذه الليلة، فذكروا لنا (مطعم الريحاني) في قلب المدينة.

ركبنا إليه (تاكسياً) كبيراً انتظرنا وصوله فترة و عندما أنزلنا عند باب المطعم رأيت لافتة على باب بجانبه أعادت إلى ذهني ذكرى مضت عليها اثنتان وعشرين سنة.

وذلك عندما زرت مدينة (طنجة) لأول مرة وهي آخر مرة قبل وصولي إليها اليوم، فنزلت في فندق اسمه (فندق استوريا) وهو واقع بجانب مطعم الريحاني هذا.

حي القصبة في طنجة

وكنت بقيت يوماً واحداً لم يزد، أثناء زيارتي تلك القديمة لطنجة، وقد مضى ذلك اليوم مع صديقي العلامة الشيخ (عبدالله كنون الحسني) رئيس رابطة علماء المغرب رحمه الله، وكنا اخترناه عضواً في المجلس الأعلى الاستشاري للجامعة الإسلامية في المدينة المنورة التي كنت أشغل فيها آنذاك وظيفة الأمين العام للجامعة، فكانت بيني وبينه مودة وتبادل للكتب إذْ كلانا محب للكتب، فكان يتحفني بالكتب القيمة التي تطبع في المغرب ولا تعرض للبيع في بلادنا، كما كنت أرسل إليه كتباً مطبوعة في بلادنا أو تتناول ناحية معينة من تاريخها، ومع ذلك ما يصدر عن الجامعة الإسلامية أو يرد إليها من كتب للتوزيع.

وعندما وصلت آنذاك إلى طنجة نزلت في فندق استوريا هذا، دلني عليه سائق أجرة ركبت معه من المطار إلى المدينة فاتصلت بالشيخ عبدالله كنون فأرسل إلي سيارته ولبثت في بيته فترة تناولت طعام العشاء معه فيه.

وهذا اليوم عندما رأيت لافتة الفندق تذكرته فسارعت بالدخول إليه قائلاً لكاتب فيه: يا أخي، لقد نزلت في فندقكم هذا قبل اثنتين وعشرين سنة، و أريدك أن تجد لي فيه غرفتين الآن، فقال: أما هذا اليوم فكل غرفنا مشغولة وغداً سوف أحجز لك غرفة، وأتوقع أن يكون ذلك بعد العاشرة.

وقد قضينا الليلة في فندق (باسادينا) الذي لم أجده مريحاً لنا، وفي الصباح ذهبت إلى فندق استوريا فإذا به قد أعد غرفة واسعة ووعدني بالأخرى بعد الساعة الثانية عشرة، فانتقلنا فوراً إليه.

مدينة طنجة:

تستحق (طنجة) أن يفرد لها كتاب يتضمن الحديث عن واقعها وما يحيط بها من آثار وأماكن تاريخية كما يتضمن الحديث عن ماضيها القديم والقريب، وعن علاقتها بالوطن الأندلسي السليب، والعبر التي ينبغي أن نستخلصها مما حدث للعرب المسلمين فيه، ولكن كتابنا هذا يتحدث عن المغرب كله لذلك أفردتها بعنوان هو عليها قليل، ويتضمن الكلام عليها كما اعتدت أن أفعله في هذا الكتاب ومثيلاته من المشاهدات والملاحظات، إضافة إلى تقديمه بكلمات من الكتب القديمة عن طنجة.

بقايا سور طنجة في الحي القديم (القصبة)

قال الشريف الإدريسي في كتابه (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) وهو من أوائل من كتبوا عن هذه المدينة:

مدينة طنجة قديمة أزلية وأرضها منسوبة إليها وهي على جبل مطل على البحر وسكنى أهلها منه في مسند الجبل إلى ضفة البحر، وهي مدينة حسنة لها أسواق وصناع وفعلة، وبها

إنشاء المراكب، وبها إقلاع وحط، وهي على أرض متصلة بالبر فيها مزارع وغلات، وسكانها برابر ينسبون إلى صنهاجة.

ومن مدينة طنجة ينعطف البحر المحيط الأعظم آخذاً في جهة الجنوب إلى أرض تشمس وتشمس، كانت مدينة كبيرة ذات سور من حجارة تشرف على نهر سفدد وبينها وبين البحر نحو ميل، ولها قرى عامرة بأصناف من البربر، وقد أفنتهم الفتنة وأبادتهم الحروب المتوالية عليهم.

ومن تشمس إلى قصر عبدالكريم وهو على مقربة من البحر وبينه وبين طنجة يومان، وقصر عبدالكريم مدينة صغيرة على ضفة نهر لكس وبها أسواق على قدرها يباع بها ويشترى، والأرزاق بها كثيرة والرخاء بها شامل.

ومن مدينة طنجة إلى مدينة أزيلا مرحلة خفيفة جداً، وهي مدينة صغيرة وما بقي منها الآن إلا نزر يسير، وفي أرضها أسواق قريبة، وأزيلا هذه ويقال أصيلا عليها سور وهي متعلقة على رأس الخليج المسمى بالزقاق وشرب أهلها من مياه الآبار.

وعلى مقربة منها في طريق القصر مصب نهر سفدد وهو نهر كبير عذب تدخله المراكب، ومنه يشرب أهل تشمس التي تقدم ذكرها، وهذا الوادي أصله من مائين يخرج أحدهما من بلد دنهاجة من جبلي البصرة، والماء الثاني من بلد كتامة ثم يلتقيان فيكون منهما نهر كبير، وفي هذا النهر يركب أهل البصرة في مراكبهم بأمتعتهم حتى يصلوا البحر فيسيروا فيه حيث شاؤوا.

إنتهى.

وقال ياقوت الحموي:

طَنْجَةُ: مدينة في الإقليم الرابع، طولها من جهة المغرب ثمانون درجة، وعرضها خمس وثلاثون درجة ونصف من جهة الجنوب: بلد على ساحل بحر المغرب مقابل الجزيرة الخضراء، وهو من البر الأعظم و بلاد البربر، قال ابن حَوْقل: طنجة مدينة أزلية آثارها ظاهرة بناؤها بالحجارة قائمة على البحر، والمدينة العامرة الآن على ميل من البحر وليس لها سور و هي على ظهر جبل، وماؤها في قناة يجري إليهم من موضع لا يعرفون مَنبعه على الحقيقة، وهي خصبة، وبين طنجة وسَبتَة مسيرة يوم واحد، وقيل: إن عمل طنجة مسيرة شهر في مثله، وهي آخر حدود إفريقية، عن السكري عن أبي عبيدة.

وبينها وبين القيروان ألفا ميل، وينسب إليها أبو عبدالملك مروان بن عبدالملك بن سَنجُون اللّوَاتي الطنجي، روى عن أبي محمد عبدالله بن الوليد الحجازي وطبقته ورحل إلى المشرق فأقام به سبع عشرة سنة يقرأ الحديث ويتردد فيه، ومن جملة مشايخه طاهر بن

بابشاذ النحوي، وكان له شعر وإنما قرأ المسائل والوافي بعد رجوعه إلى المغرب، وكان يقول: لم أدخل إلى الشرق حتى حفظت أربعة وثلاثين ألف بيت من أشعار الجاهلية.

وله خطبٌ وهو من الفصحاء الكبار بطنجة، وينسب إليها أيضاً أبو محمد عبدون بن علي بن أبي عزيزة الطنجي الصنهاجي، روى عن الأصبغ بن سهل ومروان بن سنجون وغيرهما، وُلي القضاء ببلده.

وقال الحميري في الروض المعطار:

طنجة: مدينة بالمغرب، قديمة على ساحل البحر، فيها آثار كثيرة للأول وقصور وأقباء، وكان فيها ماء مجلوب، وبخارجها عين ماء طيب يسمونه برقال، ويقال إنه يحدث الحمق لشاربه، فهم يعيرون بذلك فيقال لمن تهافت منهم: شربت ماء برقال، لا جناح عليك، وقال (الشاعر):

لذيذ ماؤه كالسلسبيل بطنجة عين ماء وسط رمل
يطير بشاربيه ألف ميلَ خفيف وزنه عذب ولكن

وبين طنجة وسبتة ثلاثون ميلاً في البر، وفي البحر نصف مجرى، وتعرف طنجة بالبربرية (وليلي) افتتحها عُقْبة بن نافع وقتل رجالها وسبى من فيها، وهي على شاطئ بحر الزقاق.

وكان فيها رخام كثير و حجر منحوت جليل، ومنها كانت القنطرة على بحر الزقاق إلى ساحل الأندلس التي لم يكن في العالم مثلها، وكانت تمر عليها القوافل والعساكر من ساحل طنجة إلى ساحل الأندلس، فلما كان قبل الفتح الإسلامي طغى ماء البحر وزاد وخرج من البحر المحيط إلى بحر الزقاق، وأغرق هذه القنطرة، وكان طولها اثني عشر ميلاً، وسعة المجاز اليوم في موضعها ثلاثون ميلاً أو نحوها، وتبدو هذه القنطرة لأهل المراكب فيتحفظون منها، ويقال إنها ستنكشف في آخر الزمان، ويجوز عليها الناس، والله أعلم.

قالوا: وطنجة آخر حدود إفريقية من المغرب، ومسافة ما بين طنجة والقيروان ألفا ميل، وهي طنجة البيضاء المذكورة في التواريخ، وقيل إن عمل طنجة مسيرة شهر في مثله، وأن ملوك المغرب من الروم وغيرهم من الأمم كانت دار مملكتهم مدينة طنجة، وإذا حفرت خرائب طنجة وجدت فيها أصناف الجوهر، وهو يدل على أنها كانت دار مملكة لأمم سالفة.

ولطنجة نهر كبير تدخله السفن يصب في البحر، يأتي من جبال بغربي طنجة، وتأتي منه سيول عظام تذهب ببعض دورها.

قالوا: عقد الوليد(٨) لموسى بن نصير على إفريقية وما خلفها سنة ثمان وثمانين، فخرج في نفر قليل، فلما ورد مصر أخرج من جندها بعثاً فأتى إفريقية فأخرج معه من أهلها ذوي القوة، وصيّر في مقدمته طارق بن زياد، فلم يزل يقاتل البربر ويفض جموعهم ويفتح بلادهم حتى بلغ طنجة، وهي قصبة بلاد البربر، فحصرها حتى افتتحها، واختلف: هل كانت فتحت قبله أو لا.

قول حديث:

قال الصديق بن العربي في كتاب (المغرب):

تعد مدينة (طنجة) من أقدم المدن المغربية التي لعبت أدواراً هامة في تاريخ المغرب في القديم والحديث، وتقع هذه المدينة في رأس بوغاز جبل طارق بين البحر الأطلنطي والبحر المتوسط في مقابلة الشاطئ الأسباني لا يفصلها عنه سوى مسافة ١٧ ك.م وقد عرفها في القديم القرطجنيون والرومان، وإليها التجأ المولى إدريس عند وصوله إلى المغرب قبل ذهابه إلى زرهون.

وكانت المدينة خلال العصور الإسلامية مركزاً هاماً للجيوش العربية والمغربية التي كانت تتوجه لإسبانيا لتثبيت قواعد الإسلام بالأندلس منذ طارق بن زياد إلى أواخر العصر المريني.

وعرفت المدينة خلال تاريخها الطويل كلاً من الاستعمار الإسباني ثم البرتغالي ثم الإنجليزي، وفي عصر المولى إسماعيل تحررت طنجة من الاحتلال الأجنبي.

وتعرضت طنجة لهجوم الأسطول الفرنسي سنة ١٨٤٤م بعد احتلال الفرنسيين للجزائر، وكانت محل اهتمام العالم عندما نزل بها امبراطور ألمانيا غليوم الثاني سنة ١٩٠٥م وألقى بها خطاباً ضد سياسة فرنسا في المغرب.

وفي أواسط القرن المنصرم أصبحت هذه المدينة عاصمة المغرب الدبلوماسية بعدما استقر بها قناصل الدول الأجنبية وبقيت كذلك إلى سنة ١٩١٢م، حيث أصبحت خاضعة لنظام دولي خاص.

وفي سنة ١٩٤٠م احتلتها إسبانيا ثم انجلت عنها ورجعت إلى نظامها الخاص بعد الحرب الأخيرة إلى أن ألغي هذا النظام بعد الاستقلال.

ويقطن بطنجة اليوم عدد من الأوروبيين من مختلف الأجناس وتضم المدينة عدة مآثر تاريخية كالقصبة والمشور وبيت المال ودار المخزن ودار النيابة وبعض القصور الملكية،

٨ هو الخليفة الأموي.

وبضاحيتها توجد هضاب مرشان والشرف، وحديقة هاريس وسيدي عمرو وراس سبارطيل وكهوف هرقل وسيدي قاسم وشرف العقاب ورأس مالاباطا. وفي وسط المدينة القديمة يوجد ضريح ينسب إلى الرحالة المغربي الشهير ابن بطوطة المتوفى سنة ٦٦٩هـ.

وفي الطريق القديمة بين طنجة وتطوان توجد أطلال حصن روماني يسمى البنيان ما تزال أعمال الحفر والتنقيب جارية به، وأصبحت طنجة بعد الاستقلال مركزاً لمكاتب بعض المنظمات الدولية لما لها من شهرة عالمية.

إنتهى ما أردنا نقله من الكلام عن مدينة طنجة.

أيام طنجة:

طاب لنا المقام في طنجة فانصرفت إلى أوراقي التي معي أعمل فيها تحريراً وتسطيراً وانصرف أهلي إلى الاستمتاع في الفراغ، وهو فراغ ملأته البنتان بالمطالعة وأمهما برعاية الجميع.

وكنا في طنجة على طعام شهي هنيء، وفي هواءٍ بديع أجمل من هواء الربيع في بلادنا، بل هو الربيع الدائم.

والعجيب في أمر طنجة هذه أنها أبرد من الأندلس رغم كونها تقع عنها إلى الجنوب وإن كان ذلك غير بعيد.

وعجب آخر من هوائها وهو أنه لا تكاد تصل الساعة إلى الثانية عشرة ظهراً وهذه هي أشد ساعات اليوم حراً في البلاد الحارقة الجافة إلاّ وتهب على طنجة نسمات باردة لم تكن موجودة في الصباح فتشعر بالبرودة المنعشة فيها أكثر مما تشعر في الصباح، مع أن هواء الصباح يكون بارداً منعشاً، ويقع فندقنا في وسط المدينة التجاري بمعنى قلبها ولذلك تكون منطقته مزدحمة طول اليوم بخاصة في الأصائل والعشايا حيث يخرج أهالي طنجة في جموع يخيل إليك منها أنهم قد خرجوا عن بكرة أبيهم إلى أماكن مرتفعة في جانب من هذا الوسط التجاري المزدحم في منطقة مرتفعة تطل على ميناء طنجة الذي تنحدر إليه تلك الجهة إذا أردت الذهاب إليه انحداراً في درج مبني في متن هذا المرتفع بناءً.

ويرى المرء من هذا المكان أرض الأندلس واضحة قريبة إذا كان الجو صافياً، بل إنني كنت أراها من شرفة في الغرفة التي نحن فيها من فندق استوريا، وهي خلف المضيق من البحر الذي يصل البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلسي.

ولكن الأمر كما قال الشاعر:

فيا دارهـا بالخيف، إنَّ مـزارهـا قريبٌ ولكن دون ذلـك أهـوال

والاهوال التي دون الأندلس القريب هي صعوبة الحصول على سمة الدخول لإخواننا المغاربة وحتى إذا دخلوا فإن المعاملة الخالية من المجاملة هي التي تنتظرهم، إن لم نقل الاحتقار والانتهار هو الذي يقابلهم في الليل والنهار.

بلدة ابن بطوطة:

ابن بطوطة هو شيخ الرحالين، وإمام المتنقلين بين الشرقيين والغربيين، سافر إلى الأمصار وجاب الأقطار، وكتب بقلمه أو بإملائه على ابن جزي أشياء عن العالم القديم، وبخاصة أجزاء من البلاد النائية ما لا يوجد إلا عنده، لولا ما سجله عنها لبقيت في ظلام حالك.

وابن بطوطة ورحلاته فخر للعرب والمسلمين على امتداد السنين، ولو كان عند قوم كالأوروبيين المتعلمين المقدرين لأعمال الرحالين والمكتشفين لملؤا الأسفار بأخباره، وحرصوا على معرفة آثاره، وبحثوا في كل شيء يتعلق بأمره سواء ما سجله أو مما يفهم مما سجله.

ومع ذلك فإن الكلام على ابن بطوطة ورحلته، بل ونواحي حياته والعناية بذلك لدى الغربيين أكثر مما هو لدى الشرقيين.

وابن بطوطة ولد في طنجة هذه ونشأ فيها فهو إذاً طنجي، ومع ذلك لم أر مدينة (طنجة) احتفت به في شيء واضح، فالمفروض أن تسمى باسمه حيًّا كبيراً وحديقة غناء، وأهم ميدان في بطوطة وأن تنشيء متحفاً باسمه، تجمع فيه كل ما كتب عنه، وما نشر حول رحلته، وجميع طبعات رحلته، وكل ترجماتها بمعنى إيجاد نسخة من كل ذلك.

ويجب أن تحيي من يدخلها بأن تضع في مداخلها عبارة تلفت النظر لذلك، مثل: (مرحباً بكم في مدينة ابن بطوطة)أو (مدينة ابن بطوطة ترحب بكم).

فابن بطوطة من حسنات طنجة ولكن (طنجة) فيها مزايا أخرى فهي ملتقى البحرين، وتعانق القارتين، وامتزاج اللونين، و تصارع الثقافتين وغير ذلك مما هو مثل ذلك أو أهم من ذلك.

إطلالة على الأندلس:

ليست بلاد الأندلس جزءاً من المغرب العربي في الوقت الراهن وإن كانت جزءاً منه، طيلة ثمانية قرون، لذلك لن أتوسع في ذكر زيارة خاطفة لي مع أسرتي التي كانت بصحبتي

في المغرب، وإنما ذكرتهاهنا لتسلسل الكلام على شمال المغرب العربي لأننا ذهبنا إليها بطريق البحر من طنجة، ثم عدنا بطريق البحر أيضاً عن طريق سبتة إلى مدينة تطوان.

منظر من العبارة لأول الأراضي الأندلسية

وكانت المدينة الأولى الأندلسية التي وصلنا إليها قادمين من المغرب هي الجزيرة الخضراء، ونود نقل شيء عنها من كتب الأقدمين للاستيناس بذلك في التعرف عليها لأن حديث قومنا المؤرخين العرب عنها وقت أن كانت من بلادنا نحن المسلمين.

قال الإدريسي:

فأما جزيرة طريف فهي على البحر الشامي في آخر المجاز المسمى بالزقاق ويتصل غربيها ببحر الظلمة(٩)، وهي مدينة صغيرة عليها سور تراب ويشقها نهر صغير وبها أسواق وفنادق وحمامات وأمامها جزيرتان صغيرتان تسمى إحداهما القنتير وهما على مقربة من البر ومن جزيرة طريف إلى (الجزيرة الخضراء) ثمانية عشر ميلاً تخرج من الجزيرة إلى وادي النساء وهو نهر جار، ومنه إلى الجزيرة الخضراء.

وهي مدينة مُتحضرة لها سور حجارة مفرغ بالجيار(١٠)، ولها ثلاثة أبواب ودار صناعة داخل المدينة ويشقها نهر يسمى نهر العسل وهو حلو عذب، ومه شرب أهل المدينة ولهم على هذا النهر بساتين وجنات بكلتي ضفتيه معاً وبالجزيرة الخضراء إنشاء، وإقلاع وحط

٩ يعني المحيط الأطلسي.

١٠ الجيار، الجير، وهو نوع من الحصا الرملي.

وبينها وبين مدينة سبتة مجاز البحر وعرضه هناك ثمانية عشر ميلاً وأمام المدينة جزيرة تعرف بجزيرة أم حكيم وبها أمر عجيب وهو أن فيها بئراً عميقة كثيرة الماء حلوة، والجزيرة في ذاتها صغيرة مستوية السطح يكاد البحر يركبها.

و(الجزيرة الخضراء) أول مدينة افتتحت من الأندلس في صدر الإسلام وذلك في سنة تسعين من الهجرة وافتتحها موسى بن نصير من قبل المروانيين، ومعه طارق بن عبدالله بن ونموا الزناتي، ومعه قبائل البربر فكانت هذه الجزيرة أول مدينة افتتحت في ذلك الوقت، وبها على باب البحر مسجد يسمى بمسجد الرايات ويقال إن هناك اجتمعت رايات القوم للرأي.

وكان وصولهم إليها من جبل طارق وإنما سمي بجبل طارق لأن طارق بن عبدالله بن ونموا الزناتي لما جاز بمن معه من البرابر وتحصنوا بهذا الجبل أحس في نفسه أن العرب لا تثق به فأراد أن يزيح ذلك عنه فأمر بإحراق المراكب التي جاز فيها فتبرأ بذلك عما اتهم به.

وبين هذا الجبل والجزيرة الخضراء ستة أميال وهو جبل منقطع عن الجبال مستدير في أسفله من ناحية البحر كهوف وفيها مياه قاطرة جارية وبمقربة منه مرسى يعرف بمرسى الشجرة، ومن الجزيرة الخضراء إلى مدينة اشبيلية خمسة أيام، وكذلك من الجزيرة الخضراء إلى مدينة مالقة خمس مراحل خفاف وهي مائة ميل، وكذلك من الجزيرة الخضراء إلى مدينة اشبيلية طريقان طريق في الماء وطريق في البر.

فأما طريق الماء فمن الجزيرة الخضراء إلى الرمال في البحر إلى موقع نهر برباط ثمانية وعشرون ميلاً ثم إلى موقع نهر بكة ستة أميال ثم إلى الحلق المسمى شنت بيطر اثنا عشر ميلاً ثم إلى القناطر وهي تقابل جزيرة قادس اثنا عشر ميلاً وبينهما مجاز سعته ستة أميال، ومن القناطر تصعد في النهر إلى رابطة روطة ثمانية أميال ثم إلى المساجد ستة أميال ثم إلى مرسى طربشانة إلى العطوف إلى قبتور إلى قبطال وقبطال وقبتور قريتان في وسط النهر ثم إلى جزيرة ينشتالة ثم إلى الحصن الزاهر إلى مدينة اشبيلية فذلك من اشبيلية إلى البحر ستون ميلاً.

إنتهى.

وقال ياقوت الحموي:

الجزيرة الخضراء: مدينة مشهورة بالأندلس، وقبالتها من البرّ بلاد البربر وسبتَة، وأعمالها متصلة بأعمال شذونة، وهي شرقي شذونة وقبلي قرطبة، ومدينتها من أشرف المدن وأطيبها أرضاً، وسورها يضرب به ماء البحر، ولا يحيط بها البحر كما تكون الجزائر، لكنها متصلة ببرّ الأندلس لا حائل من الماء دونها، كذا أخبرني جماعة ممن شاهدها من أهلها، ولعلّها سميت

بالجزيرة لمعنى آخر على أنه قد قال الأزهري: إن الجزيرة في كلام العرب أرض في البحر يفرج عنها ماءُ البحر فتبدو، وكذلك الأرض التي يعلوها السيل و يحدق بها.

ومرساها من أجود المراسي للجواز وأقربها من البحر الأعظم، بينهما ثمانية عشر ميلاً، وبين الجزيرة الخضراء وقرطبة خمسة وخمسون فرسخاً، وهي على نهر برباط ونهر لجأ إليه أهل الأندلس في عام محل، والنسبة إليها جزيريٌّ، وقد نسب إليها جماعة من أهل العلم، منهم: أبو زيد عبدالله بن عمر بن سعيد التميمي الجزيري الأندلسي، يروي عن أسبغ بن الفرج وغيره، مات سنة ٣٦٥، وبخط الصوري بزايين معجمتين، ولا يصح، كذا قال الحازمي.

إنتهى كلام ياقوت.

وقال الحميري في ا لروض المعطار:

والخضراء بالأندلس: وهي الجزيرة الخضراء ويقال لها جزيرة أم حكيم، وهي جارية طارق بن زياد مولى موسى بن نصير، كان حملها معه فتخلفها(١١) بهذه الجزيرة فنسبت إليها، وعلى مرسى أم حكيم مدينة الجزيرة الخضراء، وبينها وبين قلشانة أربعة وستون ميلاً، وهي على ربوة مشرفة على البحر، سورها متصل به، وبشرقيها خندق وغربيه أشجار تين وأنهار عذبة، وقصبة المدينة موفية على الخندق وهي منيعة حصينة سورها حجارة وهي في شرقي المدينة ومتصلة بها.

وبالمدينة جامع حسن البناء فيه خمس بلاطات وصحن واسع وسقائف من جهة الجوف، وهو في وسط المدينة في أعلى الربوة، وأسواقها متصلة بالجامع إلى شاطئ البحر، وعلى البحر بين القبلة والشرق من مدينة الجزيرة مسجد سري يُعرف بمسجد الرايات ركزت فيه المجوس راياتها فنسب إليها وله باب من خشب سفن المجوس، وبها كان دار صناعة بناها عبدالرحمن بن محمد أمير المؤمنين للأساطيل وأتقن بناءها وعالى أسوارها ثم اتخذها المنتزون بها في الفتنة قصراً.

وبغربي المدينة مدخل الوادي في البحر عليه بساتين كثيرة، ومهبطه من حيث تدخله السفن، ومنه شرب أهل الجزيرة ويسمونه وادي العسل، ويمده ا لبحر إلى قدر شطر المدينة، وهو نحو نصف ميل، وتجاهه أثر مدينة الجلندى الملك صاحب قرطاجنة إفريقية بقبليّ مدينة الجزيرة، وهي اليوم خربة تزدرع، وبها حائط عريض مبني بالحجارة داخل البحر، ومن هذا الحائط كانت تشحن المراكب وبنى عليه محمد بن فلان برجاً.

١١ هكذا الأصل، ولعل صوابها: فَخَلَّفها.

ومدينة الجزيرة طيبة رفيقة بأهلها جامعة لفائدة البر والبحر، قريبة المنافع من كل وجه لانها وسطى مدن الساحل وأقرب مدن الأندلس مجازاً إلى العدوة، ومنها تغلّب ملوك الأندلس على ما تغلبوا عليه من بلاد إفريقية، ولها ثلاث حمّامات، ولها كور كثيرة وكانت جبايتها ثمانية عشر ألفاً وتسعمائة.

وأهل الجزيرة هذه هم الذين أبوا أن يضيفوا موسى والخضر عليهما السلام، وبها أقام الخضر الجدار وخرق السفينة، والجلندى هو الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً، حكي ذلك عن وكيع بن الجراح.

ومرسى الجزيرة مشتى مأمون، وهو أيسر المراسي للجواز وأقربها من بّر العدوة ويحاذيه مرسى مدينة سبتة ويقطع البحر بينهما في ثلاثة مجارٍ ويتلوه جبل طارق.

وللخضراء هذه سور حجارة مفرغ بالجير ولها ثلاثة أبوابٍ وبها دار صناعة داخل المدينة، وعلى نهرها المسمى نهر العسل بساتين جنات بضفته معاً، وبالجزيرة الخضراء إنشاء وإقلاع وحط، وأمام المدينة الجزيرة المعروفة بأم حكيم المتقدم الذكر، والجزيرة الخضراء أول مدينة افتتحت من الأندلس في صدر الإسلام سنة تسعين من الهجرة على يد موسى بن نصير من قبل المروانيّين ومعه طارق بن عبدالله بن ونموا الزناتي في قبائل البربر.

وعلى باب البحر مسجد يسمى مسجد الرايات يُقال: إن هناك اجتمعت رايات القوم للرأي، وكان وصولهم أيضاً من جبل طارق، وسمّي بذلك لأن طارق بن عبدالله لما جاز بالبربر الذين معه تحصن بهذا الجبل وقدّر أن العرب لا تثق به، وأراد أن ينفي عن نفسه التهمة فأمر بإحراق المراكب التي جاز بها فبرئ بذلك مما اتهم به.

و بين هذا الجبل والجزيرة الخضراء ستة أميال، وهو جبل منقطع مستدير في أسفله كهوف فيها ماء.

ولها من الأبواب الباب الكبير ويعرف بباب حمزة غربي وباب الخوخة قبلي وباب طرفة جوفي، ولها ثلاثة حمّامات، و تغلب المجوس عليها في سنة خمس وأربعين ومائتين وأحرقت المسجد الجامع بها، وفي الشرق من مدينة الجزيرة مسجد يقال إنه من بناء صاحب من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويُقال إنه أول مسجد بُنِيَ بالأندلس، ويُعرف الموضع الذي فيه بقرطاجنة، فإذا أقحط أهل الجزيرة استسقوا فيه فسقوا بفضل الله ورحمته، والجزيرة في شرقي شذونة و قبلي قُرطُبة، ولها أقاليم عدة.

إنتهى كلامه.

يوم السبت ١٤١٣/٢/١٧هـ ١٥ أغسطس ١٩٩٢م:

من طنجة إلى الجزيرة الخضراء:

قطعنا تذاكرنا على باخرة تقطع المضيق ما بين طنجة والجزيرة الخضراء في ساعتين ونصف، وذلك بألف درهم لأربع تذاكر بواقع (٢٥٠) درهماً للتذكرة الواحدة بالدرجة الأولى، ويساوي ذلك ١٢٠ ريالاً سعودياً وهو مبلغ كبير لهذه المسافة.

صعدنا إلى الباخرة بعد ملء أوراق المغادرة بالفرنسية من فتيان يعترضون الناس ويعملون ذلك لهم مقابل أجر غير معين وإنما يعتمد على أريحية المسافر وقدرته المالية.

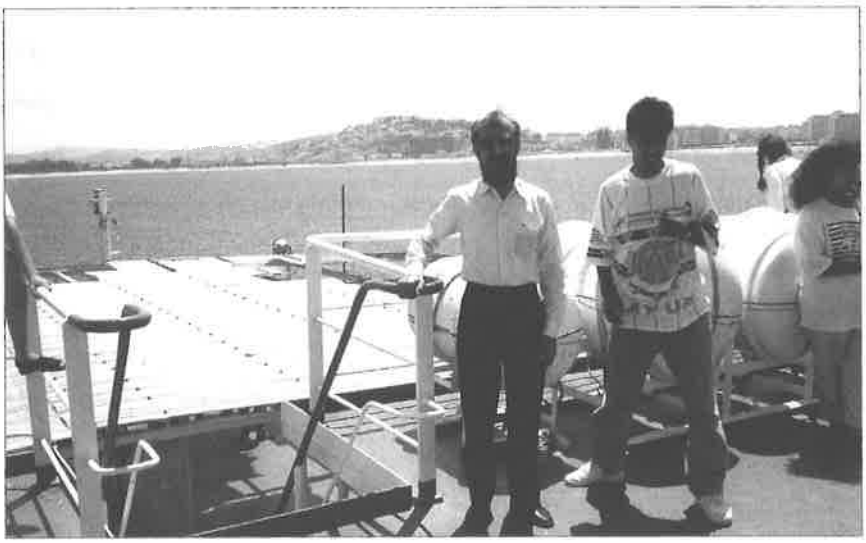

على ظهر العبارة من طنجة إلى الجزيرة الخضراء

ووجدنا عند باب الباخرة من الداخل موظفاً إسبانياً ختم على الجوازات المعتادة التي تحملها أسرتي لأن عليها سمة دخول من السفارة الإسبانية في الرياض ولم يسجلها في سجل أو في حاسب آلي أما أنا فإنه ألقى نظرة عجلى على غلاف جوازي فرأه (دبلوماسياً) فأعطاني إياه دون ختم أو أي إجراء آخر ودون أن يسألني عن شيء.

وجدنا سطح الدرجة الأولى من الباخرة وهي في أعلى الباخرة مريحاً واسعاً شبه خال ماعدا أسرة فرنسية وثلاث نساء لم أدر إلى من ينتمين وإنما الكثرة والزحام كان في الدرجة الثانية والثالثة، وحتى ظهر الباخرة فإنه مليء بأناس أغلبهم من السياح الأوروبيين الذين

ربما كانوا ممن انفقوا ما يملكون على السياحة في المغرب أو غيره من أقطار إفريقية قبله.

تحركت السفينة في الواحدة إلا ربعاً ظهراً مغادرة ميناء طنجة فساحلت أي صارت تسير قرب الساحل المغربي الشمالي أي الذي على البحر الأبيض المتوسط ولبثت فترة كذلك حتى قاربت الوصول إلى محاذاة سبتة، حيث دخلت المضيق الفعلي الذي كان أسلافنا العرب يسمونه الزقاق، وبعضهم يسميه زقاق سبتة ويسميه الناس الآن (مضيق جبل طارق).

قال ياقوت الحموي:

الزقاقُ: بضم أوله، وآخره مثل ثانيه، وهو في الأصل طريق نافذ وغير نافذ ضيق دون السكة، وأهل الحجاز يؤنثونه وبنو تميم يذكرونه، والزقاق: مَجاز البحر بين طنجة، وهي مدينة بالمغرب على البرّ المتصل بالإسكندرية والجزيرة الخضراء، وهي في جزيرة الأندلس، قال الحميدي: وبينهما اثنا عشر ميلاً، وذلك هو المسمى الزقاق.

قال محمد بن طرخان بن بلتكين بن بجكم: قال لي الشيخ عَفَّان بن غالب الأزدي السبتي سعة البحر هناك ستة وثلاثون ميلاً وهي اثنا عشر فرسخاً، وهو أعلم به لأن سبتة على البحر المذكور وهي مولده وبها إقامته ومنشؤه، قال محمد بن طرخان: وقال لي أبو عامر العبدري وأبو بكر مكبول بن فتوح الزناتي وأبو محمد عبدالله بن محمد بن محرز الواحدي: قولُ الحميدي وسعة البحرِ هناك اثنا عشر ميلاً صحيح وهو أضيقُ موضع فيه، وأوسعُ موضع فيه نحو ثمانية عشر ميلاً، والذي ذكره عفان غلط.

وقال الفقيه المرادي المتكلم القيرواني بعد خلاصه من بحر الزقاق ووصوله إلى مدينة سبتَة:

بشدَّة أهوال بحر الزقاق ... سمعت التجارَ وقد حدَّثوا
أَنَشَّفْه من حرّ يوم الفراق ... فقلتُ لهم: قرِّبوني إليه
فعاد كما كان قبل التلاقي ... فلما فعلت جَرَتْ أدمعي

إنتهى.

وقال صاحب الروض المعطار:

الزقاق: بحر الزقاق هو الداخل من البحر المحيط الذي عليه سَبَتة الذي يضيق من المشرق إلى المغرب حتى يكون عرضه ثلاثة أميال وهو بساحل الأندلس الغربي، بمكان يقال له الخضراء ما بين طنجة من أرض المغرب وبين الأندلس، ثم يتسع الزقاق كلما امتدّ

حتى يصير إلى ما لا ذرع له ولا نهاية، وهو مخرج بحر الروم المتصاعد إلى الشام، وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى عند ذكر سبتة.

وفي بعض الأخبار أنه قبل افتتاح المسلمين البلاد المصرية بمائة سنة طمى ماء البحر وزاد فأغرق القنطرة التي كانت بين بلاد الأندلس وبين ساحل طنجة من أرض المغرب، وكانت قنطرة عظيمة لا يعلم لها في معمور الأرض نظير، يقال إنها من بناء ذي القرنين، مبنية بالحجارة تمرعليها الإبل والدواب من ساحل المغرب إلى الاندلس، وكان طولها اثني عشر ميلاً في عرض واسع وسمو كثير، وربما بدت هذه القنطرة لأهل المراكب تحت الماء فعرفوها، والناس يقولون: لابُدَ من ظهورها قبل فناء الدنيا.

إنتهى كلامه.

وكان فوق هذا المضيق قنطرة أو جسر ذكره الأقدمون في أساطيرهم.

قرأت في (مروج الذهب للمسعودي) قصة شيخ مصري معمر سأله ابن طولون حاكم مصر عن أشياء فذكر من ذلك أن قال:

وقد كان بين الأندلس وبين الموضع الذي يسمى الخضراء- وهو قريب من فاس المغرب وطنجة- قنطرة مبنية بالحجارة والطوب تمر عليها الإبل والدواب من ساحل المغرب من بلاد الاندلس إلى المغرب، وماء البحر تحت تلك القنطرة متقطع خلجانات صغاراً تجري تحت قناطرها وما عقد من الطاقات تحتها على صخور صُمّ، وقد عقد من كل حجر إلى حجر طاق، وهو مبدأ بحر الروم الآخذ من أوقيانوس، وهو البحر المحيط الأكبر، فلم يزل البحر يزيد ماؤه ويعلو أرضاً فأرضاً في طول ممر السنين، يرى زيادته أهل كل زمان، ويتبينه أهل كل عصر، ويقفون عليه، حتى علا الماء الطريق الذي كان بين العريش وبين قبرس وعلا القنطرة التي كانت بين الأندلس وبر طنجة، وما وصفت فبينٌ ظاهر عند أهل الأندلس وأهل فاس من بلاد المغرب من خبر هذه القنطرة، وربما بدا الموضع لأهل المراكب تحت الماء فيقولون: هذه القنطرة، وكان طولها نحو اثني عشر ميلاً، في عرض واسع، وسمو بين.

قول حديث:

قال الأستاذ الصديق بن العربي في كتابه (المغرب):

بو غاز جبل طارق:

أو مضيق جبل طارق وهو الصلة بين البحر الأطلنطي والبحر الأبيض المتوسط ونقطة التقاء القارتين الإفريقية والأوروبية، وكان العرب يسمونه ببحر الزقاق.

يمتد هذا البوغاز من رأس سبارتيل غرباً من جهة طنجة إلى رأس الميناء شرقاً من جهة سبتة في الشاطئ الإفريقي، ويمتد من جبل طارق شرقاً إلى رأس مدينة طريفة غرباً بالشاطئ الإسباني فتقع طريفة في مواجهة طنجة ويتقابل جبل طارق مع سبتة.

أما المسافة البحرية بين الشاطئين الإفريقي والإسباني فتتراوح بين ٤٠ كلم في ناحية الأطلنطي، و٢٠ في ناحية المتوسط ولا تتجاوز في الوسط ١٥ كلم.

والمسافة بين المرافئ هي كما يلي: من طنجة إلى جبل طارق بحراً: ٦٠ كلم ومن سبتة إلى جبل طارق ٢٠ كلم ومن سبتة إلى الجزيرة الخضراء ٣٠ كلم.

إنتهى.

كيف أضعنا الأندلس:

لا يستطيع أي عربي أو مسلم يشاهد ساحل الأندلس من الساحل المغربي، أو يتوجه على باخرة إليه إلا ويذكر كيف كان أسلافنا الكرام قد سلكوا هذا الطريق مجاهدين في سبيل الله، مشمرين عن سواعدهم في ذلك، ولذلك صار النصر حليفهم، وعندما فتحوا تلك البلاد حَكَّمُوا شرع الله، وحكموا بين الناس بالعدل فأمن العباد وازدهرت البلاد وصار الحديث عن ازدهارها من الحديث المعاد.

ولكن لا يمكن العربي أو المسلم إلا أن يسأل السؤال نفسه: كيف أضعنا الأندلس؟ والجواب طويل وعريض إذا كنا سنلم بالتفاصيل، ونذكر ما قد قيل، ولذلك سنجيب جواباً مختصراً نرى أنه كافٍ وهو أنه ينبغي أن يكون سؤالنا على الصيغة التالية:

كيف تغيرنا حتى ضيعنا الأندلس؟ لأننا لو كنا كما كان أسلافنا الأوائل لما أضعنا الأندلس!

كيف لم نحافظ على ما حافظوا عليه؟ كيف أهملنا أمورنا الدنيوية النافعة في الحرب والدفاع حتى قوي الأعداء على محاربتنا؟

كيف قبل الحكام في الأندلس أن يستعينوا بالكفار على أبناء دينهم لخلاف بينهم؟

كيف تنازعوا ففشلوا وذهبت ريحهم؟ كيف تركوا الاعتصام بحبل الله وتفرقوا؟ وكيف؟ وكيف؟

والأسئلة كثيرة عن موضوع واحد ذي تشعبات كثيرة، والمهم أن نقول: كيف لم نأخذ العبرة من الأندلس، وها نحن الآن يستعين بعضنا على بعض بأعداء الله الكفار من النصارى واليهود والملحدين ومن لف لفهم؟

ألا يخشى أولئك أن يكون مصيرنا هو مصير إخواننا في الأندلس؟

وهل تغير الزمان أم هل تغيرت سنن الله في الكون؟ (سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا) و(لن تجد لسنتنا تحويلا).

إن الذي تغير هو الإنسان ونحن المسلمين العرب تغيرنا إلى الأسوأ، وما زلنا مع الأسف الشديد نفعل ذلك ونصرُّ عليه، ونحن نعرف ما يعنيه: (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مردَّ له وما لهم دونه من وال).

ها نحن الآن نرى بعض حكام البلدان العربية المسلمة يستعينون على إخوانهم وأبناء جلدتهم من المسلمين بالكفار دفاعاً منهم عن مناصب أومراكز دنيوية زائلة عن الأشخاص

الذين يتولونها، أو هم زائلون عنها.

وها نحن نرى علماء الدين يوجهون لهم كل ما يفعلونه، قبل أن يسألوا عن رأي الدين فيهم فيستعين الحكام بالكفار، ثم يحلل علماء الدين ذلك لهم وهم يعلمون كما يعلم الحكام أن علماء الدين أولئك لو أرادهم الحكام على تحريم هذا الذي حللوه لوجدوا من أوجه الفقه ومن الآراء ما يعلنونه بانه حلال بلال، فاجتمع بعض الحكام وبعض العلماء على هدم الإسلام وعرضوا بلاد المسلمين للضياع كما ضاعت الأندلس.

وقد قال عبدالله بن المبارك قبل ألف ومائتي عام:

وهل أفسد الدين إلا الملوك وأحبار سؤ ورهبانها

وفي وقته لم يكن هناك ملوك وإنما أراد بذلك ولاة الأمر من الخلفاء ومن في حكمهم.

جبل طارق:

استدبرنا ساحل سبتة واستقبلنا جبل طارق وبجانبه أرض الجزيرة الخضراء التي لا تزال تحتفظ باسمها العربي الإسلامي (الجزيرة) مثلما تحتفظ هذه الهضبة الجبلية الرابضة على ساحل الأندلس الذي يحكمه أعداء الإسلام والمسلمين اليوم كما يربض الجواد المعطل عند باب الحصن المهمل، وكما يبرك الجمل الذي هده الحمل وأضناه المسير، والواقع أن هضبة جبل طارق تبدو على البعد كأنها الجمل البارك الذي أخلد برأسه إلى الأرض فكأنه أ خفاه فيها.

نزلنا في ميناء الجزيرة ونحن نشاهد جبل طارق وأصبحنا نشاهده واضحاً من فندقنا الذي نزلناه منها.

لم يسأل أحد فيها عن الجوازات أو غيرها وكأننا في رحلة داخلية لأنهم ختموا على الجوازات التي تحمل سمات الدخول فوق الباخرة.

واقع الإسلام والمسلمون في جبل طارق:
أعده مبعوث رابطة العالم الإسلامي في جبل طارق:

التقرير الفصلي عدد ٧٧٧ يوم أول شوال عام ١٤٠٨هـ:

بمناسبة حلول شهر رمضان المعظم كثفت التنقلات في المنطقة للاتصال بالإخوان والقاء بعض الأحاديث والتوجيهات الإسلامية، وهكذا تفقدت الأوضاع هنا عن كثب واستطعت أن أرقب التيارات الهدامة التي تتسرب من أوروبا وغيرها خاصة تلك التي تأتي على شكل المنشورات والمطبوعات الخمينية والتي ترد بشكل خطير سواء عن طريق العمال والتجار الوافدين، أو بواسطة بعض عملائهم الذين سخروهم لنشرها وتوزيعها، بالمساجد والاندية والأماكن العامة، وأيضاً بارسالها إلى الشخصيات الفكرية والعلمية.

وفي مواجهة ذلك قمت بتوزيع عدة مصاحف وكتب ومنشورات إسلامية كان لها الصدى الطيب في وسط المسلمين خاصة حينما يدركون أنها نفحة من نفحات رابطة العالم الإسلامي.

والشيء الملاحظ عن تلك المطبوعات الهدامة أن نشاطها قد ازداد بشكل يلفت الأنظار وبالخصوص عند قرب حلول أيام رمضان المبارك وشعور أصحابها بالإحباط وخيبة أمل لدى الرأي العام الإسلامي شرقاً وغرباً، هذان العاملان فيما أظن دفعا بأؤلائكم الحاقدين لتحريك نشاطاتهم المسمومة في المنطقة، يبرز ذلك في عدة صور وأشكال، فهذه مجلة تلبس مسحة الإسلام وتتستر في أحضانه، وأخرى تصدر تحت شعار خدمة الشباب الإسلامي وتحريكه هنا وهناك، وهناك منشورات تبرز ما تتمخض عنه مؤتمراتهم ولقاءاتهم المتآمرة، بالإضافة إلى توزيع صور وتراجم لزعمائهم الأحياء منهم والأموات والتي قد يبالغون في تقديسها إلى حد العصمة، والعياذ بالله، كل هذا في أسلوب ثقيل وممل، الشيء الذي جعل المطلعين عليها يرفضونها جملة و تفصيلاً، ولا نستغرب هذا خاصة إذا علمنا بأن لعبتهم تكشفت أمام أنظار المسلمين الذين أدركوا اتصالهم بالطوائف الضالة كالقرامطة والباطنية والبهائية وغيرها التي حاولت النيل من رسالة الإسلام على مدى تاريخه المديد.

إن الهيستيرية والدماغوجية التي ينطلق منها هؤلاء المغرورون تجعلهم يعيشون دوماً تحت تأثير مخدر قوي يسلبهم شخصيتهم وانسانيتهم معاً ويصبحون أبواقاً فارغة لتلك الدعاوي الباطلة والدعاوي المزيفة.

وفي هذا الصدد، فإني اقترح أن تعطى التعليمات المنظمة والمستمرة للدعاة ومبعوثي

الرابطة بمختلف الجهات حتى يتصدوا لهذا الوباء الذي لا يزيد إلا انتشاراً وبذلك سنفتح جبهة أخرى للدفاع عن بيضة الإسلام وتنقيتها من غوائل الانحراف والزيغ والضلال.

الأوضاع في جبل طارق ومدينتي سبتة ومليلية:

تعيش مدينتا سبتة ومليلية المحتلتان هذه الأيام وتعيش معهما الجيوب المغتصبة من التراب المغربي فترات الاضطراب والارهاب والقهر مما يدفع السكان إلى ردود الفعل ليؤكدوا بها تمسكهم بشخصيتهم الإسلامية وهويتهم المغربية، أقول هذا في الوقت الذي تواصل فيه السلطات الإسبانية الاستعمارية تكثيف الوجود العسكري ومبادرات تجنيس المواطنين المغاربة الذين يصرون على التشبث بهويتهم.

ومن الملاحظ أن الجدل القائم بين الحكومة الإسبانية الاشتراكية هذه الأيام والمعارضة يستهدف تعميق السيطرة على المدينتين بالرغم من الخلاف الظاهر حول الأساليب المؤدية إلى إدامة الاحتلال.

وقد لاحظت صحيفة "يا" الإسبانية أخيراً أن الحوار بين الحكومة الإسبانية والرابطة الشعبية، الحزب الرئيسي للمعارضة والذي يتعلق بمشاريع قوانين سبتة ومليلية المحتلتان مجمد منذ نوفمبر الأخير بينما يلاحظ تزايد عدد المغاربة الذين تمنح لهم الجنسية الإسبانية في المدينتين وخصوصاً في مدينة مليلية، وتشهد بذلك اللوائح الطويلة التي تفسر بانتظام في الجريدة الرسمية الإسبانية، فمنذ أحداث فبراير ١٩٨٦م فتحت ٥٠٠٠ بطاقة هوية للمغاربة في المدينتين دون حدوث أية مراقبة من جانب القاضي الاختصاصي الذي أسند هذه المهمة إلى هيئة حرة، وترى الصحيفة أن الحكومة الإسبانية تحاول من جانبها أن تضفي مرونة على الروابط ذات الصبغة القانونية بين المدينتين والبنية الاستقلالية الذاتية لإسبانيا.

وذكرت صحيفة "ايل بايس: الإسبانية من جهتها أن أغلبية الأحزاب السياسية الإسبانية الممثلة في البرلمان باستثناء الحزب الشيوعي متفقة على منح الاستقلال الذاتي لكل من سبتة ومليلية، وأوضحت الصحيفة أنه بذلك تصبح المدينتان مرتبطتين بالتراب الإسباني بروابط قانونية أقوى، ونفت مصادر إدارية إسبانية الأنباء التي ذكرت أن منح الاستقلال الذاتي يعود إلى بعض المشاكل القائمة مع المغرب أوله علاقة باتفاقية الصيد البحري التي تم توقيعها مؤخراً بين المغرب والمجموعة الاقتصادية الأوروبية، وقد أوصى حزب التحالف الشعبي "المعارضة بأن يعين العاهل الإسباني الملك- خوان كارلوس- رئيساً لمدينتي سبتة ومليلية في حين فضل الحزب الاشتراكي إعطاء هذه المهمة لرئيس السلطة التنفيذية، من جانب آخر أصدرت لجنة تضامن المغاربة في مدينة مليلية المحتلة

بلاغاً أخيراً توجهت به إلى جميع القوى السياسية والبرلمانية لحل قضية توثيق وضع المغاربة في مدينتي سبتة ومليلية، وتعني بذلك إصدار وثائق الهوية وترى المصادر المغربية في المدينتين أن حوالي ٨٠٠٠ ملف للتجنس لم تحل لحد الآن.

وعن أوضاع جبل طارق فعلى ما يظهر أن الحرب الإيرلندية انتقلت إلى هذه الصخرة حيث شهدت في الأيام الأخيرة مصرع ثلاثة إيرلنديين والعثور على سيارة ملغومة.

ويأتي استئناف العنف بين الشرطة البريطانية والجيش الإيرلندي في الوقت الذي تشهد فيه مستعمرة جبل طارق حملة انتخابية للانتخابات التشريعية التي تتنافس فيها ثلاثة أحزاب سياسية.

وبالرغم من هذه الأجواء الكالحة في المنطقة فإن الجالية المسلمة تعيش كالعادة بين أمل ورجاء، فمن ناحية لا زالت تشعر بانتمائها الوطني المغربي ومن ناحية أخرى تعتبر نفسها ممثلة للمد الإسلامي في المنطقة متحدية جميع المعوقات التي تعترض سبيلها وفارضة وجودها في الميدان بعمارة المساجد والالتزام بشعائر دينها الحنيف، والحفاظ على مقدساتها وتراثها الإسلامي.

هذا ومن أصداء الدعوات الضالة بالمنطقة فإن المسلمين هنا واعون بها وبما ترمي إليه من هدم للعقيدة الإسلامية ومن محاولة إحداث شرخ في جدار التضامن الإسلامي الذي يزداد قوة ولله الحمد يوماً بعد يوم.

وستجدون رفقة التقرير نماذج من صحف تلك الدعاوي المسمومة والمطبوعات الهدامة، وخاصة تلك التي تصدر عن أتباع الباطنية الجديدة في أوروبا وغيرها وترد على المنطقة بشكل مستمر كما تجدون لقاء صحفياً تكميلاً لهذا التقرير أجراه معي مبعوث جريدة الجزيرة بالمغرب وفي خلاصة الأحاديث التي ألقيها تنويراً للرأي العام الإسلامي هنا وهناك.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

مبعوث رابطة العالم الإسلامي بجبل طارق

الإمضاء: أحمد الفحصي

يومان في الجزيرة:

قضينا في الجزيرة الخضراء وهي مدينة الآن تسمى بالجزيرة وقد أصبحت إسبانية خالصة لولا وجود بعض الكلمات العربية على بعض المحلات، والمطاعم الخفيفة، ومن ذلك كلمة (الصرف) على محلات الصرافة، يكتبها بعضهم كتابة مغربية ذات أصل كوفي كما يكتبها المغاربة اليوم (الصرف) بنقطة تحت الفاء ويكتبها بعضهم كما يكتبها المشارقة (الصرف) بنقطة فوق الفاء.

وما عدا ذلك فإنك لا تحس أنك في بلد كان عربياً لمدة ثمانمائة سنة ولا يفصله الآن عن العالم العربي إلا رمية حجر.

ولا شك أن ذلك راجع إلى ضعف العالم العربي الذي لو كان قوياً على كثرة ما يملكه الآن من مال ورجال، وماله من أرض واسعة وممالك شاسعة لاستطاع أن يرغم أهل هذه البلاد بالترغيب لا بالترهيب على التعريب، وإعادة الماضي القريب، بل الوجه الحبيب إلى هذا الجزء السليب.

أما إخواننا المغاربة فإنهم كثير في الجزيرة لا يكاد المرء يفقدهم من أي مكان فيها و لكن أكثرهم على حالة من الحركة وعدم الاستقرار، فأكثرهم مارون بها، وليسوا قارين فيها، ولا تستطيع تمييز أكثرهم عن سكان الجزيرة الإسبانيين لأنهم مثلهم في الألوان وتقاسيم الوجوه وإن كانوا من المغاربة من الوسط أو الجنوب حيث السمرة الزائدة هي الغالبة.

السفر إلى ماربيا:

وقد كتبتها (ماربيا) بالباء جرياً على النطق الإسباني، وإلاَّ فإنها في كتبنا العربية الأندلسية (ماربيلة) أي ماربيلا.

ركبنا حافلة عامة كبيرة مريحة وليس فيها مراوح ولا تكييف من تكييف الهواء لأن الجو بارد لا يحتاج إلى ذلك في هذا الفصل الحار من السنة وهي أغنى من ذلك في غيره.

سارت الحافلة من الجزيرة إلى ماربيا وكلتاهما على ساحل البحر الأبيض المتوسط، لذلك كان الطريق يساحل فكنا نرى البحر في أكثر الأحيان وقد اعتنوا بالساحل الذي يسمونه (شاطئ الشمس) وهذه صفة ذم عندنا ولكنها صفة مدح عند الأوروبيين الشماليين الذين لا يرون الشمس إلا لماماً.

وقد زينوا الساحل هذا على طوله بالحدائق الصغيرة وبنوا عليه الأنزال والمطاعم وتنقية أرض الشاطئ الصالح للسياحة من الشوائب التي تشوب رمله.

وتخلل الطريق قرى وتجمعات سكنية كلها عصرية حديثة ما عدا بعض المدن الصغيرة.

وليس الساحل بالشاطئ الجميل في أكثر مواضعه، وإنما هو معتاد، إلا أنهم جملوه ووفروا فيه أسباب الراحة، حتى غدا مقصد طلاب الراحة والتمتع بالشمس الحارة والتمدد على رمال الشاطئ.

ماربيا:

وقفت الحافلة في محطة للحافلات مسقوفة فيها مكاتب بيع التذاكر ومطعم ومقهاة، ومقاعد للجلوس والتمست فيها مكتب حكومة لخدمة السياح أو للمساعدة في حجز الفنادق، فأسرعت إلى فندق قريب منها، أسأل فتاة إسبانية عابسة فيه عن غرفتين فأجاب: إنه مليء فسألتها عن أي مكان آخر يمكن أن أجد فيه غرفتين أو شقة صغيرة فأجابت ببرود بل بجفاء عرفناه من الإسبانيات اللائي يعملن في الخدمة العامة: إنه في كذا يحتاج إلى خمس دقائق مشياً على الأقدام.

فرجعت إلى موقف الحافلات، ونقلت الأمتعة فجلست مع أسرتي في مقصف أكلنا وشربنا فيه ماشئنا بثمن غالٍ يستحقه لنظافته وحسن خدمته وإن كان غالياً، ثم ذهبت وحدي إلى المكان فوجدته بناء عالياً من طوابق عديدة واسعة يطل على البحر وفيه شقق فندقية ولكن لا يوجد فيه شيء خالٍ، وقال موظف فيه: إن الحصول على مكان هنا صعب الآن.

ثم كتب لي عنوان مكان آخر.

الدروشة:

إنني ممن يجدون متعة في حياة (الدروشة) هذه التي لا يستقبلني فيها أحد ولا يخدمني فيها إلا من أطلب معونتهم ممن لا أعرفهم، ومن ذلك أن لي في المغرب أصدقاء، وأناساً تربطني بهم رابطة علم، وطالما تمنوا عليَّ أن أحضر للمغرب وأخبرهم قبل ذلك حتى يرتبوا لي الاستقبال وما أريد ترتيبه.

ولكنني لم أفعل.

لذلك لم أجد صعوبة في هذا الوقت المحرج وإنما بحثت في شارع قريب جداً من المكان الذي نحن فيه عن شقة أو فندق فوجدتها في فندق اسمه (ماربيا إن) وجدت في الاستقبال فيه امرأة إسبانية أرتني شقة فيه قالت: إنها الوحيدة الخالية وهي مؤلفة من غرفتين بينهما

قاعة جلوس مفروشة، فيها التلفاز والهاتف وفي الشقة مطبخ مجهز وحمام وطلبت أجرة لها (٢٤٠) دولاراً في اليوم، ولما قلت لها إن هذا مبلغ كبير، قالت: إنني لم أحسب الخدمة عليك، ونحن نحسبها في العادة ولكنني سألغيها فيكون ما ذكرته سعراً نهائياً.

فقلت: لا مانع سأحضر أمتعتي وأسرتي الآن، فامتنعت من ذلك قائلة: يمكن أن تتأخر فيأتي نزيل آخر لا استطيع إنزاله فيفوتني يوم دون أن أؤجر الشقة وكانت الساعة تقارب الرابعة والنصف ظهراً.

فقلت لها: يا هذه أنا قلت لك: إنني قبلت الإيجار بهذا السعر ولن أتحول عن ذلك، ولكن ما دمت تصرين على عدم الثقة بي، فأنا أعطيك الآن جواز سفري وعشرة آلاف بيزه (بسيطة) فاطمأنت لذلك وأحضرت الأسرة من المقصف المجاور مع الأمتعة ولبثنا في هذا الفندق يومين، ولكن المرأة قبل أن ننزل طلبت مني أن أدفع أجرة اليومين مقدمة أو أن أدفع دولارات تأميناً لذلك، ففعلت.

ولقد رأيتها في الوقت نفسه وفيما بعد تفعل الشيء نفسه مع الأوربيين المستأجرين ولم أر أحداً من غير الأوروبيين يسكن عندها.

ويقع الفندق في قلب المدينة التجاري قريب من شاطئ البحر إلا أن البحر لا يرى منه.

الإسبان:

كنت زرت إسبانيا من قبل زيارات خاطفة، وفي هذين اليومين في ماربيا واليومين الذين قبلهما في (الجزيرة) تأكدت من أن الإسبان هم دون غيرهم من الأوروبيين في حسن المعاملة للأجانب ومحبة المساعدة للغريب، وفي أخلاقهم التعاملية عامة.

وشيء آخر لافت للنظر وهو أن الأوروبيات العاملات يكن في الغالب أحسن معاملة للغريب وأكثر مجاملة له من الرجال، ماعدا الإسبان فإن المرأة العاملة فيهم أقل رقة مع العملاء، بل أكثر قسوة عليهم من رجالهم.

وقد يصل الأمر إلى عدم الأمانة من بعض النساء والرجال فمثلاً أردت صرف مائة دولار من أحد المصارف المنتشرة في أسواق المدينة فكانت فيه امرأة كتبت السعر بالبيزة التي هي كلمة عربية أصلها بسيطة تحولت إلى بيزيتا عند الإسبان وفيه أن الدولار بـ٩٢ (بيزيتا) فسألتها عن السعر فقالت بالإنكليزية ٩٣ فيما فهمته فوافقت ويلاحظ أنه حتى بيع العملة خاضع للأخذ والرد فأعطتني القيمة بسعر ٨٣ بيزيتا للدولار زاعمة أنها قالت لي: إن السعر هو (٨٣) ومن يرغب أن يصرف بـ٨٣ وقد صرف أمس بـ٩١.

وهكذا بعد أخذ ورد نالها خلاله مني ما نالها من ذم وشتم تركتها متأكداً من أن في الإسبان أوباشاً من الناس من رجالٍ ونساءٍ يصح أن يسموا بأوباش أوروبا في القرن العشرين.

وقل مثل ذلك عن سائق الحافلة والموظف في مكتب التذاكر.

وبخاصة إذا كان الذي يحدثه رجلاً عربياً وهم يعتبرون العرب كلهم مغاربة أو كالمغاربة فإنه لا يكاد يتكلم معه إلا بعنف أو يهمله.

وأذكر أنني تكلمت مع موظف في المحطة أسأله عن مكتب لحجز الفنادق فلم يجبني مع أنني كلمته بكلمات من الإسبانية أحسنها لمثل هذا الأمر السهل ثم كلمته بالإنكليزية فرأيت امرأة مغربية تكلمه بالإسبانية ولا يرد عليها فطلبت منها أن تسأله عما أريد أن أعرف فقالت: إنهم يحتقرون العرب، إنهم لا يريدون أن يكلموهم.

العرب أبغض الناس إليهم:

نشرت الصحف الإسبانية استطلاعات قبل أيام قريبة نشرتها جريدة العلم المغربية بالعربية كما نشرها غيرها من جرائد المغرب وتوضح تلك الاستطلاعات التي أجريت على طوائف مختلفة من الإسبان بأن أبغض الناس إليهم هم الغجر يليهم العرب، ويأتي السود من إفريقية واليهود في رتبة أقل بغضاً لديهم من العرب.

ويرجع كثير من الناس ذلك إلى اختلاف الثقافة غير أن هذا ليس بصحيح لأن اليهود والسود ليست ثقافتهم كثقافة الإسبان.

وعلى أية حال فإن جفاءهم وغلظتهم في معاملتهم تجاه العرب أمر مشاهد في هذه الاماكن التي يؤمها العرب بكثرة.

فإذا أضيف ذلك إلى الغلاء الفاحش الذي لا يقل عن بقية أقطار أوروبا الغالية وإلى تبرج نسائهم في أسواق البيع والشراء بحجة قربها من البحر فإن المرء ذا العائلة لا ينبغي أن يقربها وحتى إذا كان بمفرده فإنه يستطيع أن يجد من بلاد الله ما هو أرخص منها أسعاراً وأحسن معاملة، وأكثر أمناً، سواء في أوروبا من الناحية الطبيعية او في المغرب، وإن كان يقل عنها من ناحية الترتيب والإعداد، ولكن يعوض ذلك ما يشعر به بين إخوته العرب المغاربة من أنه في بلاده وأن نقوده التي ينفقها لا تنفق في بلاد يكن أهلها له العداوة والبغضاء.

يوم الأربعاء ١٤١٣/٢/٢١هـ:

العودة إلى الجزيرة الخضراء:

ولم تكن العودة إلى (الجزيرة) هذه المرة بقصد الإقامة فيها بعض الوقت كما كانت في المرة الأولى وإنما هي بقصد المرور منها بل إجتياز المجازة بينها وبين مدينة (سبتة) المغربية المحتلة.

فركبنا حافلة من (ماربيا) والمسافة بينهما حوالي ٧٠ كيلومتراً وهي حافلة جيدة، لولا أنهم لم يلتزموا بأرقام التذاكر فيها فوجدت غيرنا قد جلسوا في أماكننا، فقال السائق: اجلسوا في أي مكان.

واسترحنا حال وصولنا إلى محطة الحافلات في (الجزيرة) في مقصف جيد فيها يدخله الناس عادة ومعهم أمتعتهم لأنهم يكونون في الغالب من المسافرين أو القادمين على الحافلات.

وبعد الاستراحة ذهبنا إلى الميناء حيث وجدنا الباخرة التي يصح أن تسمى أيضاً العَبَّارة لأنهم يركبون فيها سيارات كبيرة وصغيرة تعبر بها (المجازة) ما بين الجزيرة ومدينة سبتة وهي مسافة قصيرة أقصر من تلك التي تفصل بين طنجة والجزيرة.

قبل الوصول إلى سبتة:

(سبتة) جزء عزيز من المغرب العربي الذي هو الجناح الثاني من أجنحة العالم العربي.

ولكن (سبتة) لا زالت محتلة من الإسبان لم ترجع إلى الوطن المغربي الأم، وقد طال حبسها تحت ذلك الاحتلال حتى زعم الإسبانيون أنها جزء من بلادهم محتجين بالأكثرية السكانية التي هجَّروها إليها من الإسبان، نسأل الله أن يرد غربتها، ويعجل أوبتها إلى أهلها المغاربة الأشقاء، وقد أحببت أن أنقل شيئاً مما ذكره علماؤنا الأوائل عن سبتة لأبين أهميتها وقدم عمارتها.

شارع في سبتة

تنبيه مهم:

ينبغي أن نعلم أن (سبتة) القديمة هي أوسع من (سبتة) الحالية بعدة أضعاف، فسبتة الحالية صغيرة الرقعة، ضيقة المساحة بالنسبة إلى منطقة سبتة القديمة، بحيث أن (سبتة) الحالية لا تستطيع أن توفر لسكانها الحاليين الماء والخضرات والفاكهة وإنما تستوردهما من المغرب المجاور.

قال الشريف الإدريسي في (نزهة المشتاق) وهو من أهل القرن السادس:

فاما مدينة سبتة فهي تقابل الجزيرة الخضراء وهي سبعة جبال صغار متصلة بعضها ببعض معمورة طولها من المغرب إلى المشرق نحو ميل ويتصل بها من جهة المغرب وعلى ميلين منها جبل موسى، وهذا الجبل منسوب لموسى بن نصير وهو الذي كان على يديه افتتاح الأندلس في صدر الإسلام، وتجاوره جنات وبساتين وأشجار وفواكه كثيرة وقصب سكر وأترج يتجهز به إلى ما جاور سبتة من البلاد لكثرة الفواكه بها ويسمى هذا المكان الذي جمع هذا كله بليونش، وبهذا الموضع مياه جارية و عيون مطردة وخصب زائد.

ويلي المدينة من جهة المشرق جبل عال يسمى جبل المينة وأعلاه بسيط وعلى أعلاه

سور بناه محمد بن أبي عامر عندما جاز إليها من الأندلس وأراد أن ينقل المدينة إلى أعلى هذا الجبل فمات عند فراغه من بنيان أسوارها وعجز أهل سبتة عن الانتقال إلى هذه المدينة المسماة بالمينة فمكثوا في مدينتهم وبقيت المينة خالية وأسوارها قائمة، وقد نبت حطب الشعراء فيها.

وفي وسط المدينة بأعلى الجبل عين ماء لطيفة لكنها لا تجف البتة، وهذه الأسوار التي تحيط بمدينة المينة تظهر من عدوة الاندلس لشدة بياضها ومدينة سبتة سميت بهذا الاسم لأنها جزيرة منقطعة والبحر يطيف بها من جميع جهاتها إلا من ناحية المغرب فإن البحر يكاد يلتقي بعضه ببعض هناك ولا يبقى بينهما إلا أقل من رمية سهم، والبحر الذي يليها شمالاً يسمى بحر الزقاق، والبحر الآخر الذي يليها في جهة الجنوب يقال له بحر بسول وهو مرسى حسن يرسى به فيكنُّ من كل ريح.

وبمدينة سبتة مصايد للحوت ولا يعادلها بلد في إصابة الحوت وجلبه ويصاد بها من السمك نحو من مائة نوع ويصاد بها السمك المسمى التن الكبير الكثير وصيدهم له يكون زرقاً بالرماح وهذه الرماح لها في أسنتها أجنحة بارزة تنشب في الحوت ولاتخرج وفي أطراف عصيها شرائط القنب الطوال، ولهم في ذلك دربة وحكمة سبقوا فيها جميع الصيادين لذلك.

ويصاد بمدينة سبتة شجر المرجان الذي لا يعدله صنف من صنوف المرجان المستخرج بجميع أقطار البحار، وبمدينة سبتة سوق لتفصيله وحكه وصنعه خرزاً وثقبه وتنظيمه ومنها يتجهز به إلى سائر البلاد وأكثر ما يحمل إلى غانة وجميع بلاد السودان، لأنه في تلك البلاد يستعمل كثيراً.

ومن مدينة سبتة إلى قصر مصمودة في الغرب إثنا عشر ميلاً وهو حصن كبير على ضفة البحر تنشأ به المراكب والحراريق التي يسافر فيها إلى بلاد الأندلس وهي على رأس المجاز الأقرب إلى ديار الأندلس ومن قصر مصمودة إلى مدينة طنجة غرباً عشرون ميلاً.

إنتهى.

المؤلف في ضاحية غرب سبتة حيث ترى الأراضي المغربية أيضاً

وقال ياقوت الحموي:

سبتة: بلفظ الفَعْلة الواحدة من الإسبات، أعني التزام اليهود بفريضة السبت المشهور، بفتح أوله، وضبطه الحازمي بكسر أوله: وهي بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ومرساها أجود مرسى على البحر، وهي على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق الذي هو أقرب ما بين البر والجزيرة، وهي مدينة حصينة تشبه المهدية التي بإفريقية على ما قيل لأنها ضاربة في البحر داخلة كدخول كفّ على زَنْد، وهي ذات أخياف وخمس ثنايا مستقبلة الشمال وبحر الزقاق، ومن جنوبيها بحر ينعطف إليها من بحر الزقاق، وبينها وبين فاس عشرة أيام.

وقد نسب إليها جماعة من أعيان أهل العلم، منهم: ابن مرانة السبتي، كان من أعلم الناس بالحساب والفرائض والهندسة والفقه، وله تلامذة وتآليف، ومن تلامذته ابن العربي الفَرضي الحاسب، يقولون إنه من أهل بلده، و كان المعتمد بن عباد يقول: اشتهيت أن يكون عندي من أهل سبتة ثلاثة نفر، ابن غازي الخطيب وابن عطاء الكاتب وابن مرانة الفَرَضي.

إنتهى.

وقال صاحب الروض المعطار:

سبتة: مدينة عظيمة على الخليج الرومي المعروف بالزقاق، وهو أول البحر الشامي المنتهي إلى مدينة صور من أرض الشام،وهي تقابل الجزيرة الخضراء- والمعروف أنها مفتوحة السين والنسب إليها بكسرها مثل بصرة وبِصْري.

والبحر يحيط بسبتة شرقاً وجوفاً وقبلة، وليس لها إلى البر غير طريق واحد من ناحية الغرب لو شاء أهلها أن يقطعوه قطعوه، ولها بابان أحدهما محدث، ولها من جهات البحر أبواب كثيرة، وفي آخر المدينة بشرقيها جبل كبير فيه شعراء كثيفة يسمى جبل المينا، وقد كان عبدالملك بن أبي عامر أمر أن تبنى بهذا الجبل مدينة ينقل إليها أهل سبتة، فبنى سورها ومات ولم يتم له المراد، و السور باق إلى الآن كأنه بني بالأمس، وهو يظهر من بر الأندلس لبياضه.

ومن غرائب ما في ذلك السور أن فيه شقة مستطيلة بأبراجها مبنية بالزيت عوضاً عن الماء، وكان غرضه إتمام عمله على هذا النعت لولا الانفاق الكثير، فإن البناء بالزيت أصلب وأبقى على مرور الدهر فلم يساعده الأجل.

وسبتة سبعة أجبل صغار متصلة بعضها ببعض، معمورة، طولها من المشرق إلى المغرب نحو ميل، ويتصل بها من جهة المغرب وعلى ميلين منها جبل موسى، وهذا الجبل منسوب إلى موسى بن نصير الذي على يديه كان افتتاح الأندلس في صدر الإسلام، وتجاوره جنات وبساتين وأشجار وقرى كثيرة وقصب سكر وأترج يتجهز به إلى ما جاور سبتة من البلاد، وهو الموضع المسمى بليونش، وبه مياه جارية وعيون مطردة وخصب زائد، ويلي المدينة من جهة المشرق جبل عال أعلاه بسيط، في أعلاه سور بناه محمد بن أبي عامر حين جاز إليها من الأندلس، وأراد أنّ ينقل المدينة إلى أعلى هذا الجبل عند فراغه من بناء أسوارها، وعجز أهل سبتة عن الانتقال، فمكثوا في مدينتهم وبقيت المدينة خالية وأسوارها قائمة قد نبت حطب الشعراء فيها وهذه الأسوار تظهر من عدوة الأندلس لبياضها.

وسبتة مدينة قديمة سكنها الأول، وفيها آثار كثيرة، وكان لها (ماء) مجلوب من نهر على ثلاثة أميال منها، يجري إليها من قناة مع ضفة البحر القبلي فكان (يدخل) كنيستها التي هي الآن جامع سبتة، وكان يوسف بن عبدالمؤمن، سنة ثمانين وخمسمائة، أراد أن يجلب الماء إليها من قرية بليونش على ستة أميال من سبتة في قناة تحت الأرض على حسب ما فعله الأوائل في قناة قرطاجنة، وشرع في عمل ذلك ثم اقتصر عليه، وعلى قرية بليونش جبل عظيم فيه القردة، عبر من تحته موسى بن نصير إلى ساحل طريف، وكان عليه حصن

هدمته مصمودة المجاورون له، ثم بناه الناصر عبدالرحمن المرواني فهدموه ثانية، وتحته أرض خصيبة فيها مياه عذبة وعليه قرية تعرف بقصر مصمودة، ولها نهر يصب في البحر عذب.

والبحر يحيط بسبتة من جميع جهاتها إلا من جهة الغرب، فإن البحر يكاد يلتقي بينهما إلا أقل من رمية قوس.

وبسبتة مصايد للحوت، ويصاد بها منه نحو مائة نوع، ويصاد بها التن زرقاً بالرمح وفي أسنتها أجنحة تثبت في الحوت ولا تخرج وفي أطراف عصيها شرائط القنب الطوال ولهم في ذلك دربة وحكمة، ويصاد بها أيضاً شجر المرجان الذي لا يعدله مرجان، وبها سوق لتفصيله وحكه وثقبه وتنظيفه:

قالوا: وتظهر سبتة عند صفاء البحر من الجزيرة الخضراء ولذلك قال بعض المتأخرين:

والقلب يرجو أن يحول حالهُ لما حططت بسبتة قتب النوى
والبحر يمنع أن يصاد غزاله أبصرت من بلد الجزيرة مكنساً
قربت مسافته وعزَّ مناله كالشكل في المرآة تبصره وقد

إنتهى.

وقال الصديق بن العربي في كتاب (المغرب):

سبتة: مدينة فنيقية الأصل استوطنها القرطاجنيون واستعمرها بعدهم الرومان وغزاها الوندال ثم دخلت في حوزة القوطيين إلى أن فتحها العرب، وهي ميناء عظيم على شاطئ البحر الأبيض المتوسط في مواجهة جبل طارق في رأس داخل البحر يقطنها نحو (٦٠) ألفاً من الأسبان ونحو ٥ آلاف من المغاربة.

وقد لعبت هذه المدينة دوراً هاماً في تاريخ المغرب في عهد الفتح الإسلامي عندما نزل بها موسى بن نصير، ومنها توجهت الحملات الإسلامية لفتح الأندلس، وكانت مطمح أنظار الأمويين بالأندلس والفاطميين بإفريقية، وقامت بها إمارة بني عصام بالقرن الثاني ثم إمارة بني العزفي في العهد المريني، ونبغ فيها عدد من فطاحل العلماء والأدباء كالقاضي عياض والشريف الإدريسي وغيرهما، واستولى عليها البرتغاليون سنة ٨١٨هـ وهي أول مدينة إسلامية استولى عليها البرتغال بالمغرب ثم احتلها الإسبانيون بعد ذلك، وما زالت في حوزتهم إلى الآن.

وبالمدينة عدة آثار إسلامية مندثرة أو مطموسة المعالم كالمسجد والمدرسة والحمام والأبراج والأسوار والقناطر والأبواب، وجلها من بناء المرينيين والأندلسيين.

ومساحة المدينة ١٩ كم، وهي أقرب ميناء مغربي إلى الشاطئ الإسباني حيث لا تتجاوز المسافة بين الضفتين ١٦ ميلاً وأمامها يعرض البحر على بعد ١٢ ميلاً توجد جزيرة صغرى تسمى ببرخيل أو جزيرة المعدنوس أو تاورة، احتلها الإنجليز في القرن الماضي ثم احتلها الإسبان، وبضاحيتها توجد خلوة الولي الصالح أبي العباس السبتي دفين مراكش التي بناها الإسبان وأطلقوا عليها هذا الاسم تودداً وتقرباً للسكان المسلمين الذين يعيشون في حالة مزرية في أحياء خاصة بهم كحي سيدي مبارك، والروصاليص وحي الأمير الفنصو قرب الحي الإسلامي بها المسمى خادو.

كما توجد أطلال منتزهات بليونش قرب جبل موسى بن نصير، وهي منتزهات سبتة الشهيرة على عهد الموحدين والمرينيين كانت تشمل منطقة كبرى من الجنان والبساتين والحقول وعيون المياه الدافقة والأبنية والقصور خربها البرتغاليون سنة ١٤١٥هـ بعد احتلالهم سبتة.

وبضاحيتها جبل موسى الذي ينسب إلى موسى بن نصير الفاتح العربي الشهير.

أما وضعية المدينة في الوقت الحاضر فهي جيب من الجيوب الاستعمارية الإسبانية بالتراب الوطني.

أما سكانها من المسلمين فهم يعتبرون أنفسهم مسلمين مغاربة، ويعتزون بدينهم وقوميتهم، كما يعتزون بمدينتهم ويتشبثون بها، ولكن إسبانيا تعتبرهم من الأجانب، وتعاملهم معاملة الأجانب، وكل المواطنين المسلمين في سبتة يعيشون في فقر مدقع، واهمال واضح، وميز عنصري بغيض، وأغلبهم يشتغلون كعمال بسطاء وبأجور زهيدة، بينما اليهود والهنود يتمتعون في المدينة الأسيرة برعاية ملحوظة وامتيازات بارزة.

وفي سبتة من المساجد ثلاثة: المسجد الأعظم، ومسجد سيدي مبارك، ومسجد شارع الأمير، زيادة على خمس زوايا، وفي مجموع هذه المساجد والزوايا يذكر اسم الله في مختلف المناسبات الإسلامية.

تقع المدينة على بعد ٦٠ كلم شمال تطوان.

إنتهى.

الوضع الإسلامي في سبتة:

طلبنا من الأخ الشيخ أحمد الفحصي أحد الدعاة إلى الله الذين تدفع رابطة العالم الإسلامي رواتبهم من أجل التفرغ لإرشاد الإخوة المسلمين وتوجيههم التوجيه الديني الصحيح وهو من الإخوة المغاربة يعمل في المنطقة أن يكتب لنا تقريراً عن الوضع الإسلامي في سبتة فكتب ذلك وضمنه أشياء أخرى مهمة قال:

تقديم:

لقد حاولت في هذا التقرير الموجز أن أحدد الصورة للأوضاع العامة للمغاربة المسلمين، سكان مدينة سبتة، وللوجود الإسلامي بها، مع الإشارة إلى بعض المعاناة التي يعيشها هؤلاء السكان في ظل الاحتلال الإسباني، مستعيناً بممارستي اليومية لمتابعة الأحداث التي أحرص عليها، وعن طريق الاتصال المباشر ببعض الأساتذة القاطنين بنفس المدينة، وأيضاً ما تنشره وسائل الإعلام، حيناً بعد آخر، عن مصير هذه المدينة السليبة حالاً ومستقبلاً.

الموقع والسكان:

تمتد مدينة سبتة على مسافة تقدر بـ (١٩) كيلومتراً مربعاً وتطل على البحرين الأبيض المتوسط والمحيط الأطلسي، وصخرة جبل طارق، وتبعد عن مدينة تطوان بأقل من (٤٥) كيلومتراً.

ويبلغ تعداد سكان المدينة على اختلاف أجناسهم نحو (٧٥) ألف نسمة، من ضمنهم (٣٠) ألف جندي، أما المغاربة المسلمون فيبلغون (٣٥) ألفاً تجنسوا بالجنسية الإسبانية، و (٩)آلاف في طريق التجنس نتيجة للمضايقات الاستعمارية حيث تقدموا رسمياً بطلباتهم لهذا الغرض.

ويتألف معظم السكان المغاربة من مواطني شمال المنطقة وشرقها، تطوان، وطنجة، العرائش، الريف، جبالة، وزان، شاذة، وكذلك من سكان الأندلس الأصليين المتشكلين من بقايا الطوائف القديمة، هؤلاء السكان كما أشرت ، يشتغل الكثير منهم بالتجارة والصيد البحري، بالإضافة إلى معطوبي الحرب ومتقاعدي الجيش الإسباني، والحرب الأهلية في إسبانيا.

وهنا تجدر الإشارة أن المغاربة المتجنسين يتقاضون أجوراً ورواتب تزيد على (٣٥٥٥) درهماً شهرياً، ولو كانوا عاطلين، وبذلك استقطبت السلطة الحالية بالمدينة الأفواج الكثيرة

من الشيوخ المعطلين عن العمل، ومن الشباب المغاربة الطامعين للحصول على حقوقهم الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، وينتج عن هذه الإشكالية، خلق ظاهرة الضياع، و التشرد والانحراف وسط الشباب المسلم المنتسب للمدينة.

هذا وتتوزع المناطق السكنية للمغاربة في المدينة على عدة أحياء: مهشة لحصي، سيدي مبارك، وحي خاذو، وحي بخاضي، وحي المغربة، و حي بريسبي، وهذا الأخير آهل بالسكان المغاربة، حوالي ١٤ ألف نسمة، وأخيراً الحي الجديد الذي أطلق عليه، العقبة الحمراء، وهو عبارة عن عمارات شاهقة و مكتظة شيدتها السلطات المحلية بعد الانتفاضة التي عرفتها المدينة خلال عام ١٩٨٩م.

سبتة كموقع عسكري:

تعتبر مدينة سبتة من القلاع العسكرية النموذجية لدى الحكومة الإسبانية لذا فإن و زارة دفاعها تولي اهتماماً بالغاً للجانب العسكري في المدينة وتخصص لها أحسن النخب من الكوادر العسكرية المتخرجة من الأكاديميات والمدارس الحربية، لأنها ترصد ميزانية ضخمة لتغطية استقبال أفواج الشباب المتطوع في القوة المسلحة، وتجري بهم مناورات فورية على الحدود المغربية، هادفة بذلك إلى ترهيب السكان المسلمين من جهة، وترسيخ احتلالها للمدينة من جهة أخرى.

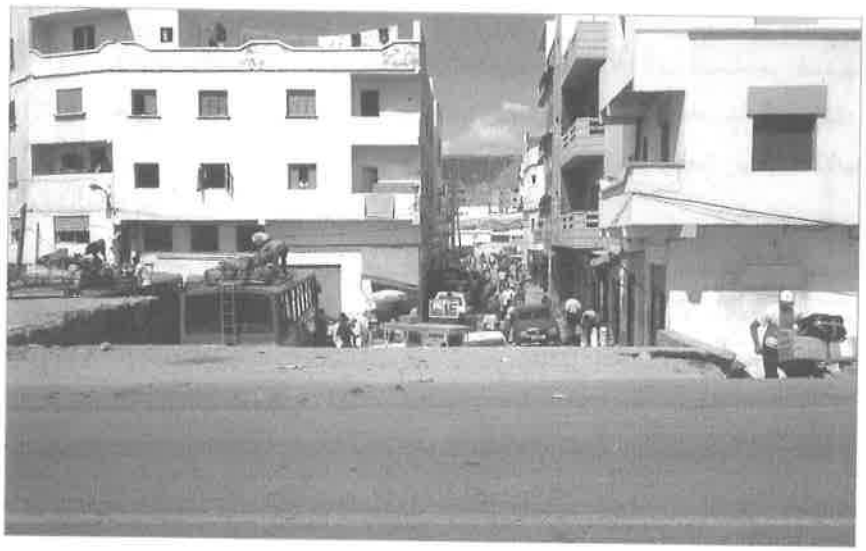

منظر من مدينة سبتة

وبالرغم من هذا كله فإنها أصبحت تدرك مرامي العمل السياسي الصامت الذي تقوم به السلطة المغربية تجاه المدينة، وحتى مفكرو وزعماء إسبانيا أضحوا ينادون بإعادة النظر في قضية مدينة سبتة وأخواتها من المستعمرات الإسبانية بشمال المغرب، وإعادتها إلى التراب المغربي، احقاقاً للقانون الدولي.

الرواج الاقتصادي:

مع ظاهرة التهريب والمضاربة التي تجتاح المدينة وتنخفض أثمان معظم المواد الغذائية والآلات الإلكترونية، وكل السلع الأخرى المجلوبة، وما ذلك إلا لأنها معفاة من الضرائب المباشرة وغير المباشرة، خصوصاً بالنسبة للسكان الإسبان والتجار اليهود والهنود.

وبذلك أصبحت من المناطق التجارية الحرة العالمية، واستطاع الإسبان أن يجعلوا منها منفذاً دولياً هاماً للتجارة الخارجية ، وتحويلها إلى قاعدة اقتصادية تنطلق منها أغلب الصادرات الإسبانية إلى العالم، وهذا ما جعلها تستقطب المغاربة والسواح الوافدين على المغرب الذين يفضلون التوجه إليها لصرف عملاتهم في السوق السوداء، وتلبية رغباتهم في اقتناء بضائع ممتازة ومن أحدث طراز بثمن مناسب.

ولم يقف عمل السلطات الإسبانية في المدينة عند هذا الحد، بل صيرتها بؤرة خطيرة لتهريب السلع، العملات، المخدرات، وحتى السلاح، فأصبحت تشكل مثلث التهريب المنظم الدولي، مع مدينة مليلية وجبل طارق، وأضحى سكان المناطق المجاورة لهذا المثلث يعيشون تحت رحمة كابوس التهريب بكل أنواعه، وهكذا، ما من يوم تطلع فيه الشمس إلا وتطالعنا الأنباء بحجز وتوقيف الأطنان من السلع والمخدرات، والعملات الصعبة.

ويمارس هذه العملية مختلف طبقات السكان، رجالاً ونساءا شيوخاً وأطفالاً، بواسطة المراكب البحرية والسيارات، والدواب، والحمل على الأكتاف.

الأوضاع العامة:

بالرغم من وجود بعض الظواهر المغرية، يشعر المغاربة في سبتة أنهم يعيشون فعلاً تحت القهر والتمييز العنصري الإسباني، فلا ذكر لحقوق الإنسان معهم، ولا كرامة تذكر، علاوة على ذلك، فهم مهددون بالطرد دوماً، ومطالبون بدفع ضرائب جائرة كالضريبة التي تفرض عليهم من أجل السكن، ولو كانوا يملكونه، كما يؤدون واجبات استهلاك الكهرباء والماء بطريقة تعسفية، ولا يسمح لهم بالحصول على الماء إلا ٦ ساعات في اليوم من ٨ صباحاً إلى ٢ بعد الزوال.

وفي إطار هذه المعاملة الغير الإنسانية تختفي أية حقوق للمغاربة، إلا بواسطة الحصول على الجنسية الإسبانية، ولكن يتم الاحتواء تحت غطاء قانون الجنسية، فتحت السلطات الباب أمام الأطفال البالغ سنهم ٤ سنوات للحصول على الجنسية المذكورة، وذلك حتى يتسنى لعائلاتهم الحصول على بعض الحقوق المدنية، وقد نتج عن توريط الأطفال بهذا الشكل، تمزق نفساني واجتماعي للأسرة المغربية، أدى إلى فصل العديد من الأبناء عن أسرهم وذويهم، وتردهم والانغماس في حياة الانحراف أو التشرد.

من المعاناة:

تشتد وطأة الاستعمار الإسباني على المغاربة: سكان سبتة يوماً بعد يوم، خصوصاً منهم الرافضون لاكتساب الجنسية الإسبانية، وقد تتمثل معاناتهم في العراقيل التي تعترض سبلهم باستمرار سواء بالنسبة لحياتهم العادية، واستقرارهم بالمدينة، أو لدى رغبتهم في السفر خارجها، حيث تسلم لهم بطاقة خاصة للتعريف، تهم الأجانب، ولا تسلم لهم شهادة الإقامة بعد ذلك إلا للذين ولدوا بالمدينة، أو الذين قضوا أزيد من عشر سنوات بها، وأتوا بضمانة مالية، وعقد عمل، وحتى هؤلاء لا يحق لهم تملك العقارات من دور وأراضٍ ولا رؤوس الأموال والشركات إلا بالمساهمة مع أفراد إسبانيين، ورغم هذه المعاناة ستبقى مدينة سبتة في النهاية ثغراً إسلامياً، ومعبراً مغربياً هاماً نحو البوغاز، والقارة الأوروبية، ولو كره الإسباني المحتل.

الوضعية القانونية:

يخضع المغاربة بسبتة للقوانين الإسبانية والقضاء الإسباني، وذلك منذ سنة ١٩٥٠م.

ويذكر بهذا الخصوص أن إسبانيا كانت في بعض الأحيان تعين مغاربة حكاماً وقضاة للبت في النزاعات والقضايا التي تقع بين المغاربة المسلمين من سكان سبتة، أما اليوم فنشير هنا إلى مرسوم قانون الأجانب الذي أصدرته وزارة الداخلية الإسبانية، وطبقته على سكان سبتة، وأصبح ساري المفعول ابتداء من يوم ٦ مارس ١٩٨٩م، هذا المرسوم الذي بدأت تبرز خطورته يوماً بعد يوم، على وجود سكان سبتة وحياتهم العامة، فهو مرسوم يحمل في طياته ترسيخاً للتفرقة العرقية، والجنسية، في ظل دولة أصبحت تفتخر بمؤسساتها الديمقراطية، ومنظماتها الإنسانية.

التعليم:

يوجد بمدينة سبتة، عشرة كتاتيب قرآنية، شبه حرة، تعطى فيها الدروس الأولية بالإضافة إلى تحفيظ القرآن الكريم، و تدرس اللغات: العربية والإسبانية، كما توجد بها مدرسة أهلية- حرة- تابعة للمدرسة الأهلية بتطوان، وهناك مدرسة مغربية ابتدائية رسمية، تدعى مدرسة جبل طارق، وكل هذه المدارس تحظى بعناية ورعاية وزارة التربية الوطنية في الرباط، كما أنها تحظى بنفس العناية والدعم من الحكم الإسباني المحلي.

غير أن استكمال الدراسة الثانوية يبقى الحلقة المفقودة لأبناء المغاربة في سبتة، إذ يتحتم عليهم السفر إلى مدينة تطوان يومياً، وهذا ما يشكل عراقيل لأسر التلاميذ، خاصة إذا علمنا أن المسافة التي تفصل بين مدينتي سبتة وتطوان تربو على ٤٥ كيلومتراً.

المساجد والزوايا:

منذ قديم عمل المواطنون المغاربة على تشييد ١٣ مسجداً لأداء شعائرهم الدينية واجتماعاتهم اليومية والموسمية، ويوجد بجانب كل مسجد من هذه المساجد كتاب لتحفيظ القرآن الكريم، وتلقي مبادئ اللغة العربية.

ولثلاثة من هذه المساجد مآذن كبرى مرتفعة إلى عنان السماء هي: المسجد العتيق بحي سيدي مبارك، ومسجد مولاي المهدي، بحي مورو أو العقبة الحمراء ومسجد حي بريسبي.

أما المساجد العادية الباقية فهي، مسجد الزاوية القادرية وهو أعظمها ومسجد الأزهر، ومسجد بلانو، ومسجد العلويين، ومسجد الزاوية، ومسجد حي سافريكو، ومسجد دار الحديد، ومسجد الزاوية الدرقاوية.

ويتمتع خطباء المساجد الثلاثة الكبرى عن غيرهم من خطباء الجمعة الآخرين بالدعم المادي السخي الذي تخصهم به وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالرباط، بالإضافة إلى ما تخصص لهم السلطات المحلية من رواتب وتعويضات مجزية.

الطرق الصوفية:

في ظاهرة غريبة يتوزع سكان مدينة سبتة على العديد من الطرق الصوفية، ينتسبون إليها، وتحافظ كل فرقة أو طائفة منها على تقاليدها ومراسمها، ووصايا شيوخها.

فهناك زاوية القادريين، وأخرى للتجانيين، وثالثة للدرقاويين، ورابعة للعساويين، وهلم

جرا، وكلها تودي فيها الصلوات الخمس بانتظام إلى جانب تنظيم حلقات الذكر، والبعض منها تقام فيه صلاة الجمعة كالمساجد الكبرى السابقة، وتوجد لهذه الزوايا أوقاف حسبة عليها، كما أنها مشمولة برعاية ودعم الحكومتين المغربية والإسبانية.

والملاحظ في هذا الأمر أن سكان مدينتي سبتة ومليلية متشبثون اليوم بالزوايا والطرقية أكثر من مواطنيهم داخل التراب المغربي الذين يفضلون طريقة السلف الصالح، منذ قديم.

النشاط الإسلامي:

نشأت بالمدينة بعض جمعيات إسلامية صغيرة، احتوت أخيراً فيما يسمى بـ (الجماعة الإسلامية لسبتة) هذه الجماعة التي يتزعمها اليوم بعض أفراد وفي مقدمتهم السيدان، محمد علي وأحمد الزبير، وكلاهما من مواليد سبتة ويحملان الجنسية الإسبانية.

هذه الجماعة تتمتع بدعم مادي ومعنوي من طرف سلطات المدينة، كما أن االحكومة المغربية ترعاها وتحتضن نشاطاتها.

ومن أبرز الأهداف لهذه الجماعة حسب قانونها الأساسي، المحافظة على الهوية المغربية لسكان سبتة، والوقوف بجانبهم حينما يتعرضون لأية مضايقة إسبانية، وقد تصدر عنها بيانات وتصريحات، منددة ومستنكرة بالإضافة إلى محاولة ربط الصلة بينها وبين بعض الجهات المعنية في المغرب وخارجه.

وهكذا ينحصر نشاط هذه الجماعة في تكثيف الاتصال بالحكومة الإسبانية وبغيرها، وقصد الحصول على المساعدات المادية، دون أن تتغلب على مشاكلها الداخلية التي تهددها، مثل التخاصم على كسب أكبر قدر من المساعدات المادية التي تتأتي إليها من عدة قنوات.

اقتراح:

حسب رؤيتي فإن طرح أية مساعدة من طرف الرابطة لمساعدة مسلمي مدينة سبتة، داخل قلب هذه المدينة في الوقت الحاضر يجب أن يراعى الظروف السياسية الحساسة التي تعيشها، وذلك تجنباً لأي اعتراض أو ملاحظة قد تنجم عن ذلك، سواء من لدن المغرب البلد الحريص على استرجاع المدينة أو من طرف السلطات الحاكمة بها.

لذا فإن أفضل مساعدة يمكن لرابطتنا العتيدة أن تقدمها لسكان مدينة سبتة، في الوقت الحاضر هو ما جاء في اقتراحي القديم الجديد، الرامي إلى إنشاء مؤسسة تعليمية ثانوية،

بالتعاون بين الرابطة وبين إحدى الجامعات في المملكة العربية السعودية كجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية أو الجامعة الإسلامية في المدينة المنورة، تقام على الحدود القائمة بين مدينتي سبتة وتطوان وبالضبط بمدينة الفنيدق المغربية، ذات الرواج التجاري المتزايد، والتي تجمع ألواناً شتى من سكان المدن والقبائل المجاورة.

وبهذه المناسبة فإنني آمل أن تتحقق هذه الفكرة الخيرة على يد رابطتنا العتيدة، لتتبناها وتتخذ الاجراءات المناسبة في شأنها بالتعاون مع الجهات المعنية في المملكة المغربية.

وعندي اليقين أنها ستلبي حاجة ماسة لأبناء مدينة سبتة ونواحيها، وسترحب بها كذلك الجهات المغربية من جهتها اعتباراً لما يجمعها بالمملكة العربية السعودية من أواصر الأخوة والتفاهم والتقدير.

إنتهى كلامه.

إلى سبتة المحتلة:

تحركت الباخرة من ميناء الجزيرة في الساعة الخامسة عصراً في وقت يبدو كأنه الثانية ظهراً، وكأننا في منتصف النهار، وذلك بأن توقيت إسبانيا متأخر من توقيت المغرب الذي يساوي توقيت (قرينتش) ساعتين كاملتين فالخامسة في إسبانيا تعادل الثالثة في المغرب مع أن المسافة بينهما لا تزيد على ٣٠ كيلومتراً، بل إن المرء الذي يكون في شأطئ إحداهما يبصر الشاطئ الآخر بوضوح إذا لم يكن في الجو ضباب.

كانت الباخرة تسير رخاء على متنها ركاب أكثرهم من المغاربة واللغة العربية الدارجة في المغرب هي السائدة، وبين الركاب أوروبيون من مختلف الجنسيات ولكن الطابع الغالب عليهم هو أنهم من الشبان ذوي الدخول المحدودة الذين يحبون السياحة ولا يقوون على نفقات السفر إلى البلدان البعيدة.

هذه سبتة:

لا أقول: لاحت سبتة لأننا كنا نرى منطقتها ونحن على الساحل الأندلسي الذي هو الإسباني في الوقت الحاضر، وإنما صرنا الآن بعد سير ساعة وربع نرى منازلها وشوارعها، إذْ صرنا نقترب منها رويداً رويداً.

وعندما أرست السفينة في الشاطئ الذي يسمونه (المرسى) وهي تسمية عربية فصيحة، بل هي أفصح من كلمة ميناء، كانت قد انفقت ساعة وثلثاً فقط ما بين الجزيرة الخضراء وسبتة المحتلة.

المؤلف في مدينة سبتة

وأسرعت ألتقط صوراً عديدة للمدينة الاسيرة، ولا أقول: الشهيدة لأنها ما تزال حية في وجدان إخواننا العرب المسلمين أجمعين، وكأنما كنت أسارع الوقت لئلا تذهب عني أو أ ن أذهب عنها والأمر ليس كذلك وتختلط مدينة سبتة أو لنقل المنطقة التي فيها سبتة بأرض المغرب، إذْ تطل عليها هضاب مغربية، فتكمل تطويقها مع البحر الذي يحيط بها من أكثر من جهتين، فلا تقول: إن ما تراه هو (سبتة) أو (سويتا) كما ينطق بها الإسبانيون لأن ذلك غير صحيح، وإنما تقول إنها سبتة المغربية لأنك ترى أرضها مقترنة بأمها أرض المغرب الأقصى.

في مرسى سبتة:

نزلنا من الباخرة بعد أن أرست في المرسى، ولا أدري ملكية الباخرة، ولكن الغالب إنها إسبانية إذْ رأيت العاملين فيها على قلتهم من الإسبانيين الذين لا تستطيع أن تفرق بينهم وبين المغاربة الشماليين في أكثر الأحيان إلا بحملقة في العيون وإصغاء بالآذان، ثم زمة في الشفتين إذا كلمت أحدهم بالعربية كأنه لا يعلم أن هذه (العربية) كانت لغة العلم والثقافة في بلاده وفي بلاد العالم كله لعدة قرون.

ميناء سبتة

والأمر الظاهر أن أحداً لم يطلب منا إبراز جوازاتنا في الباخرة ولا في المرسى وذلك لكوننا جئنا من أرض إسبانية هي الأندلس إلى أرض يزعمون أنها إسبانية هي (سبتة).

والغريب أن أكثر الركاب فيها هم من المغاربة الذين يجتازون البحر تلقائها مما جعلني أسأل نفسي عن السبب الذي لم يجعل المغرب له ميناء خاصاً أو لنقل بلغتهم الأفصح مرسى خاصاً بالسفن التي تعتمد بالدرجة الأولى في عملها على المغاربة يكون في منطقة مجاورة لسبتة بحيث يكون مثلها في القرب من الساحل الأندلسي، وتكون البواخر الناقلة فيه مغربية أو نصفها مغربية بالإتفاق مع إسبانيا على ذلك.

انحدرنا من الباخرة مع درج طويل متدرج ليس فيه زلفات مما أراحنا في حمل الحقائب لأنها تسير على عجلات، فوجدنا في أرض الميناء رجلاً عربياً مغربياً سيء المظهر يدخن بشراهة، ويظهر أن صحته ليست على ما يرام فبادرنا يسأل بلهجة مغربية قائلاً: أنتم ماشين للمغرب؟ فقلت: لا وتركته ثم التفتُّ إلى شخص مغربي آخر أحسن منه مظهراً، فسألته عما إذا كان يوجد فندق قريب فنادى بأعلى صوته ذلك الشخص قائلاً: (ابن عْمَر) بكسر النون واسكان العين وفتح الميم، أي مثلما نلفظها في نجد تماماً، وإذا بابن عمر هذا هو الذي سألنا ثم قال له: الجماعة باغين أوتيل، فتركتهما.

وسألت شابين مغربيين مظهرهما حسن فذكرا فندقاً قريباً وقالا: تعال معنا.

سرنا فترة هي طويلة بالنسبة إليَّ فوجدت الفندق اسمه (رزيد نكال أفريكا) أخذ اسمه من وقوع سبتة على الساحل الإفريقي، على حين أن من يسمعه في غير هذا المكان يتبادر إلى ذهنه السواد والحر وهما من خصائص القارة الإفريقية حاشا طرفيها الشمالي والجنوبي.

وحجزت عنده غرفتين ثم عدت إلى الميناء فانتقلت مع الأسرة إلى الفندق بسيارة أجرة كنا جميعاً فرحين، بل طربين لعودتنا إلى البلاد الشقيقة المغرب، بل إلى بلدنا في الحقيقة، لأن مثلنا لا يحس بالغربة في المغرب أبداً.

ولكن الذي كدر من ذلك أنني وقد رايت نسوة يلبسن اللباس المغربي المميز وهو الجلابة كن يبادرننا بالسؤال والاستجداء حتى الرجال الذين عليهم اللباس المغربي، وهم ثلاثة من كبار السن ومن ذوي المظهر الزري بادرونا بمد أيديهم بالسؤال والاستجداء، فقلت: لا حول ولا قوة إلا بالله، أيكون مستقبلونا في بلادنا المغربية المستغربة هذه هم الشحاذين؟

نزلنا في غرفتين في الفندق كل غرفة بسبعة آلاف بسيطة (بيزيتا) أو (بيزه) كما نلفظ بها في لغتنا العامية، ويساوي ذلك ٧٨ دولاراً أمريكياً للغرفة الواحدة وهذه أجرة معتدلة بالنسبة إلى الأسعار في أوروبا مع العلم بأنهم أخبروني أن الفندق من ذوات الأربع نجمات وأظنه لا يصل إليها.

في مدينة سبتة:

أخلدنا للراحة في مدينة سبتة وتنسمنا الهواء العربي الذي اشعرنا بالانتعاش ولو لم يكن هواء عربياً نقياً فمدينة سبتة لا تزال محتلة، وحتى الأجزاء من العالم العربي غير المحتلة يكون جوها السياسي غير نقي حاشا المغرب الأقصى الشقيق، فإن هواءه الحسي مثل المعنوي رائق رقيق.

وأخلدت البنتان خاصة إلى راحة ذكرتا أنهما لم تشعرا بها في إسبانيا، وذلك لكون نظرات الفضوليين والفضوليات من الإسبانيين والإسبانيات كانت تلاحقهما مع الوالدة، وذلك لغرابة الملابس السابغة التي كن يرتدينها في تلك البلاد الكافرة التي خلعت فيها النساء في هذا الفصل الصائف ما كان أبقاه الشتاء الشاتي عليهن من ملابس لا تعرف الحياء.

تمشية ما بعد الغروب:

غربت الشمس فانطلقت مع (أم ناصر) زوجتي وحدها نسير على أرصفة هذا الحي الذي يلي الميناء أو المرسى في سبتة وأجمل ما فيه ارصفته العريضة التي رأينا الناس أزواجاً فيها يتمشون وبعضهم كانوا أفواجاً من الأسر، لأن الجو معتدل، وتلك المنطقة واقعة على شاطئ البحر الذي تطل عليه قلعة قديمة، ويقع ميناء للقوارب على أقدامها.

وقاربنا أن نصل في سيرنا إلى قلب المدينة التجاري من دون أن نعرفه ولكنه مثل غيره من المحلات كان مغلقاً تماماً حتى لم نجد بقالة واحدة نشتري منها بعض الفاكهة والمآكل الخفيفة.

يوم الخميس ١٤١٣/٢/٢٢هـ - ١٩٩٢/٨/٢٠م:

جولة في مدينة سبتة:

كان شوقنا بالغاً لوصول المغرب النقي الذي لا يلوثه نفوذ أجنبي بالوصول إلى مدينة تطوان العريقة المجاهدة، لذلك سألت صاحب الفندق ومحلاً بجانبه عما إ ذا كان يوجد سيارة أجرة سائقها مغربي يحسن العربية فنفوا ذلك فطلبت أن يبحثوا لي عمن يحسن الإنكليزية وذلك لكوننا نريد أن نجول جولة كاملة في سبتة قبل أن نتوجه إلى مدينة تطوان.

ووجدوا السائق الذي يحسن الإنكليزية وهو إسباني اسمه (خوزيه) ذكر أنه مولود في سبتة وأنه إسباني لا نصيب للعرب فيه، فقلت: الحمد لله على ذلك.

فاتفقنا معه على أن يجول بنا في المدينة لمدة ساعة على أن يحملنا وأمتعتنا فيوصلنا إلى موقف سيارات الأجرة الذاهبة إلى تطوان بعد الجولة، وذلك بألفي بسيطة (بيزيتا) في الساعة.

وفي العاشرة والنصف كنا نتحرك معه بسيارته التي هي سيارة أجرة.

القلعة الملكية:

كانت أولى الأماكن الأثرية التي مررنا بها قلعة قديمة ظاهر عليها القدم، إلا أنها ليست فخمة ولا شامخة البناء ذكر أن اسمها الملكية (ريال) وأنها من بناء البرتغال قبل وصول الإسبان إلى المنطقة، بمعنى قبل أن يحكموها.

بقايا مبنى عربي في سبتة

ولاحظنا أن مدينة سبتة أشبه ما تكون بلسان أعوج ممتد على شاطئ البحر، أما الجهة التي تربطه باليابسة فإنها مغربية ليس ما يتبع سبتة منها إلا رقعة صغيرة من الأرض.

وأكثر ما يراه المرء من وسطها لا طابع له إلا بقايا سور قديم عليه بعض الأبراج أو القلاع.

تلة آتشو:

غير أن الذي يبحث عن الآثار أو بقاياها في المدينة يجدها منزوية في عدة أماكن منها.

صعدنا إلى تلة جبلية اسمها (آتشو) عليها بيوت إسبانية قديمة لا أثر للفخامة فيها، وفي هذه التلة بقايا حصون عربية من حيطان وأبراج متهدمة.

ذكر السائق وهو إسباني أن السكان في هذه التلة كلهم من الإسبان.

ومما ينبغي تذكره أن السائق ذكر لنا ما كنا نعرف غيره من قبل وهو أنه قال: إن مجموع السكان في سبتة يبلغ ٨٥ ألف نسمة منهم ١٥ ألف نسمة من العرب المغاربة ولكن الذي كنت أعرفه من قبل من المعلومات الموجودة لدينا في مكتبي برابطة العالم الإسلامي في مكة المكرم مستقى من مصادر مغربية أن نسبة السكان المغاربة ألى بقية السكان في سبتة تتراوح ما بين ٢٨ إلى ٣٠٪.

ثم انتقلنا إلى تلة أخرى متصلة بالأولى تشرف على قسم من الشاطئ القصير الذي تتألف منه أراضي سبتة مثلها في ذلك مثل الأماكن الأخرى الواقعة على شاطئ البحر، أما تلك الواقعة في الداخل فإنها تقع على الحدود المغربية التي تزاحمها حتى لا تكاد تدع لها شيئاً من اليابسة.

ذلك بأن الأراضي المغربية وهي تلال ترى حتى من وسط مدينة سبتة فضلاً عن جهاتها كلها التي إما أن تكون مستندة إليها أو ترى منها ظاهرة.

تلة المنار:

وتلة أخرى أشبه ما تكون بقمة صغيرة وسط جبل يجمعها مع سائر التلال في سبتة في مساحة ضيقة وهذه التلة فيها منار السفن التي تمخر عباب هذا المضيق ما بين جبل طارق وسبتة أو هو الزقاق زقاق سبتة كما كان أسلافنا العرب يسمونه.

ولاحظنا كثرة البرشومي الذي هو ثمر الصبار، وهو التين الشوكي بلغة العامة من المصريين، وليس في هذه التلة الصغيرة سكان وإنما رأينا بقربها مكاناً مرتفعاً منفرداً واسع المساحة جداً، ذا حيطان حجرية ذكر السائق أنه السجن الحربي.

ولا شك أنه كان قد شيد إبان الاستعمار الإسباني لبلاد تطواتن وما خلفها من جبال الريف، وإلا فإن سعته لا تتناسب مع سكان سبتة القليلي العدد في الوقت الحاضر.

سان انطونيو:

وقفنا في مكان مرتفع اسمه سان انطونيو عليه منتزه يصعد إليه على درج يعد موقف للسيارات مزفّت.

وقد لبثنا برهة في هذا المكان المشرف الذي ترى منه بوضوح جبل طارق الذي يسميه الإسبانيون (جبرتار) واضحاً بجانبه ملاصق له مرتفعات الجزيرة الخضراء، بل المرء يرى بالعين المجردة الجزيرة الخضراء الأندلسية.

وعلى ذكر الخضرة في اسم هذه المدينة الأندلسية أقول إنها ليست بالغة الخضرة، بل إنه لا يكاد يميزها مميز من اخضرار عن مدن الشاطئ المغربي المقابل لها.

وحتى سبتة عندما وصلناها كنا نظن أنها تكون أكثر خضرة من بقية الشاطئ المغربي المتصل بها على اعتبار أن الأوروبيين يحرصون على الأكثار من البقع الخضراء عن طريق غرس الأشجار، والإكثار من الحدائق واستنبات الأزهار فيها، ولكنني رأيتها ليست كذلك وإنما هي تبدو مثل بقية الشاطئ المغربي في هذه المنطقة.

وفي هذا المكان الذي يجمع المرء فيه بين يديه الشاطئين الشاطئ العربي المغربي و الشاطئ الأوروبي الإسباني الذي كان شاطئاً عربياً إسلامياً فضيعه العرب المسلمون مثلما يفعلون اليوم في تضييع أجزاء من العالم العربي بأفعالهم السيئة سواء أعرفوا ذلك أم لم يعرفوه.

في هذا المكان تعاود المرء الذكريات التاريخية ويعاوده الأسف الشديد الذي لا يفيد، إلا في أخذ العبرة والادكار في درء الأخطار عن الديار غير أنه ما أن يذكر حال قومه في يومه حتى يكاد يتيقن أنهم أبعد ما يكونون عن الاعتبار بماحصل في هذه الديار، وأنهم في غيهم سادرون، وفي الدفاع عن مصالحهم الشخصية ماضون، لا يرعون في ذلك إلاً ولاذمة، ولا يراعون قرابة أو حرمة، فلا حول ولا قوة إلا بالله، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

القلب التجاري للمدينة:

انحدرنا من المكان المرتفع المسمى (سان انطونيو) وكأن هذا الشارع سيغوص أخره في البحر لأنه يبدو في النظر وكأنه لا يحجزه عن البحر حاجز ولكنا وصلنا قبيل نهايته إلى

السوق الرئيسي أو القلب التجاري في المدينة ويسمونه شارع الرئيس (خوزي انطونيو).

أوقف السائق سيارته، وقال يمكنكم أن تشتروا ما شئتم من البضائع الرخيصة في هذه السوق كالمصورات (الكاميرات) والساعات والأقلام ونحوها.

سوق حرة:

ثم أضاف قوله إن سبتة سوق حرة، يأتي إليها المغاربة من أجل التسوق وشراء السلع الرخيصة.

وقلت في نفسي: ولولا ذلك لاختنقت فهي صغيرة المساحة، قليلة الموارد، لذلك تعتمد في اقتصادها على المغرب، فالمغاربة يشترون البضائع من سوقها الحرة الرخيصة المعفاة من الرسوم الجمركية، ويأتون إليها بالفاكهة والخضرات والأغذية الطازجة، بل حتى الماء العذب يأتي إليها من المغرب.

وأمر مهم آخر وهو أن ميناءها المزدهر إنما سبب ازدهاره استعمال المغاربة له.

ولا شك في أن إخواننا المغاربة عندما يجمعون أمرهم على استعادة مدينة سبتة هذه الرقعة المغربية الصغيرة بل البالغة الصغر في النسيج المغربي الوطني، فإن ذلك سيكون أول ما يكون باتباع الخطوات الاقتصادية التالية، و ذلك إذا لم تنفع المباحثات السلمية الودية مع إسبانيا في استرجاعها.

أولاً: عدم السماح بإدخال البضائع المشتراة منها إلى المغرب.

ثانياً: عدم استعمال مينائها البحري من قبل المغاربة سواء للركاب العابرين من كان منهم معه سيارته ومن كان راجلاً، وسواء في ذلك نقل البضائع والسيارات ونقل البضائع وحدها.

ثالثاً: عدم إمدادها بالمياه والخضرات والفواكه، وغير ذلك من الأغذية الطازجة.

رابعاً: اعادة النظر في الاتفاقيات الاقتصادية المعقودة بين إسبانيا والمغرب على ضوء موقفها من تحرير سبتة هذه، وأختها (مليلية) الواقعة عنها جهة الشرق، وعلى ضوء معاملة العمال المغاربة في إسبانيا نفسها.

هذا وقد قال لي السائق ونحن نقف في السوق: إذا أردت أن أنقلك إلى (تطوان) فأنا مستعد بعشرة آلاف (بيزيتا) أي بسيطة، وذلك يساوي مائة واحد عشر دولاراً أمريكياً تقريباً، قال: ويشمل هذا أجرة جولتكم في سبتة، وسوف أقوم بالنيابة عنك بإنزال حقائبك من السيارة عند الجمرك، وإعادة تحميلها في السيارة، فقلت له: إن حقائبي لن تحتاج إلى

تنزيل أو تحميل لأن جوازي (دبلوماسي) لا يحتاج بسببه ما يعرض ما معي من متاع إلى تنزيل أو تحميل.

وقد أعجبني تصرفه في الجولة فوافقت، وقلت في نفسي: هذا خير وإن كان أغلى من أن أبحث عن سائق أجرة أتعرف عليه.

مع العلم بأن المسافة بين سبتة وتطوان تبلغ ٤٣ كيلومتراً.

فقال هذا إذاً يحتاج مني إلى أن أمر ببيتي، وأغير هذه السيارة بسيارة أخرى ثم ننطلق إلى تطوان، فقلت له: لي عليك شرط وهو ألا تدعنا في تطوان حتى تنزلنا في فندق، فقال: لا بأس.

عود إلى منطقة الميناء:

عاد بنا إلى منطقة الميناء ليريني إياها مع أننا جئنا معها أمس إلى سبتة وتمشينا فيها البارحة، وقال وهو يشير إليها إنها (بورتو) ثم قال (مَرْسَى) بهذه اللفظة العربية.

وقد رأينا لافتة كبيرة مكتوبة في منطقة القدوم من الميناء عليها بالعربية: (إلى المغرب) وذلك لأن كثيراً من المغاربة الذين يعملون في أوروبا أو يقيمون فيها يأتون بسياراتهم إلى المغرب عن هذا الطريق.

ويلاحظ أن هذه المنطقة مثل باقي مناطق مدينة سبتة ليست فاخرة المباني والأرصفة والطرق بل هي مثل مثيلاتها في المغرب، ولكن الشيء الذي تتميز مثلما تتميز به الأماكن التي رأيناه من إسبانيا في هذه السفرة هو التعهد بالصيانة والترميم فلا ترى مثلاً رصيفاً واسعاً قد كلف بناؤه ولا أقول تبليطه مبالغ كبيرة فيه حفرة أو نقرة تشوه جماله، وتنقص من روعته، وتنغص على قدم من يسلكه.

هذا أمر ظاهر في المدن المغربية مثلما هو ظاهر في أكثر المدن العربية، بل المدن الآسيوية والإفريقية وربما كان المغرب مع وجود النقص الذي ذكرته هو أحسن تلك الدول المسماة بالنامية حالاً في هذا المجال.

ثم صعدنا إلى تلة من المدينة القديمة مسكونة كلها وبيوتها ذات طراز عتيق، وليس فيها شوارع واسعة، وإنما هي أزقة ضيقة بحيث لا يتسع الشارع الرئيسي فيها لمرور السيارة الواحدة إلا بشق الأنفس، ولم أر شرفة واحدة بارزة في بيوت هذا الحي.

قال السائق: هذه (انتيك) أي تحفة قديمة والحي يسكنه الإسبان والعرب.

بقايا العز القديم:

أوقف السائق سيارته في بناية متعددة الطوابق ذكر أن بيته شقة فيها.

ثم أدخل سيارة الأجرة التي كانت معه مكان سيارة ركوب خاصة جديدة من طراز مرسيدس، ونقل أمتعتنا إليها قائلاً: هذه سنسافر بها إلى تطوان.

وفهمت من عمله ذلك أنه غير مسموح لسيارات الأجرة الإسبانية أن تنقل الركاب إلى المغرب، أو أن ذلك يترتب عليه رسم خاص.

وانطلق ليرينا بقايا قلعة عربية قديمة قال: إنها كانت مبنية قبل أن يصل نفوذ البرتغاليين والإسبانيين إلى سبتة، وذكر أن اسمها (ماردينا).

والعجيب أن هذه القلعة العربية تفوق في قوة بنائها وضخامة جدرانها كل القلاع التي بناها بعدها البرتغال والإسبان، وتشير البقايا الباقية منها إلى فن عربي عظيم في البناء، وقوة في إعداد الحصون، فقد كان ما بقي من القلعة من حيطان شامخة دليلاً جديداً على أن البرتغاليين والإسبانيين في الوقت الذي انهزم فيه العرب المسلمون من الأندلس كانوا أقل شأناً منهم في هذه الفنون، غير أن الذي أوصل المسلمين إلى ما وصلوا إليه هناك من الهزيمة والاندحار إنما كان سببه الاختلاف والتطاحن على أمور الدنيا والتكالب على المطامع، وتغليب المصلحة الفردية لحاكم من الحكام على المصلحة العامة لأمة الإسلام، وتعاون المسلمين مع الكفار ضد إخوانهم المسلمين حتى شملهم جميعاً البوار والدمار.

الحي المغربي:

بقايا أبنية عربية قديمة في سبتة

ذهب السائق بنا إلى حي مغربي خالص اسمه (عبده) فيما ذكره السائق شوارعه ضيقة، لكنها أقل ضيقاً من الحي القديم الذي سبق أن رأيناه قبل قليل، وبيوته ليس فيها شرفات مفتوحة إلى الخارج، وقال السائق: هذا الحي سكانه كلهم من العرب.

وقد رأينا النساء فيه أكثرهن يلبسن الملابس المغربية، وأما الألوان فإن ألوانهم لا فرق بينها وبين ألوان الإسبان المقيمين في المدينة.

وأما بيوته فإن أغلبها مؤلف من طابق أو طابقين على طراز عربي عريق يمتاز بالبساطة وعدم التعقيد.

ثم انطلق مع شارع على البحر ما كدنا نسير فيه حتى رأينا الحدود الإسبانية الإدارية، وهي حدود مدينة سبتة مع المغرب التي لم يكن لها معها حدود في التاريخ لأنها جزء من المغرب وهو المكمل لها، والحدود التي يسميها إسبانية وهي استعمارية بلا شك هي على هيئة بوابة واسعة تدخل معها السيارات الذاهبة للمغرب والآيبة منه.

لم ينظروا إلى جوازاتنا:

مر السائق على ضابط عند الحدود الإسبانية فحياه و انطلق خارجاً من بوابة الحدود، وقال: خرجنا من سبتة ونحن الآن ذاهبون إلى حدود المغرب، ولم يوقفنا الضابط الإسباني ولم ينظر في جوازي الذي ليس فيه ختم للدخول أيضاً بل ليس فيه ما يشير إلى أنني قد دخلت إسبانيا.

وحتى جوازات الأسرة التي فيها سمة دخول إلى إسبانيا فقد ختم عليهما ضابط في الباخرة التي ركبتها من طنجة إلى الجزيرة الخضراء، ولكن لم يختم عليها الضابط ختم الخروج فكأننا- من الناحية النظرية- لم نخرج من إسبانيا.

ورأينا المنطقة الفاصلة بين مركزي الحدود مليئة بأناسي أكثرهم إن لم يكونوا كلهم من المغاربة فيهم الجالسون على الأرصفة، وفيهم المشاة، وقال السائق الإسباني: إنهم ينتظرون الجمرك، إن معهم ساعات وأجهزة استقبال الإذاعة (راديو هات) وغير ذلك.

ووصلنا المركز المغربي للحدود بسرعة، وقال السائق لضابط واقف (دبلوماتيك) فلم يوقفنا بعد أن ألقى نظرة علينا دون أن تقف السيارة عنده، وإنما وقفت عند مكتب الجوازات.

فأرونا مكتباً خاصاً قالوا إنه للجوازات (الدبلوماسية) في داخله ضباط من المغاربة يتكلم الشخص معهم من نافذة المكتب.

فأخذ أحدهم الجوازات مني وملأها بنفسه، وكان أحد الإخوة المغاربة واقفاً كان جاء

إلينا من أجل الكتابة على الجوازات بالفرنسية إن لزم الأمر، وذكر لنا أنه دليل سياحي، وبمقارنة شكله الظاهري بأشكال الإسبان تبين أنه وزملاءه الموظفين المغاربة أكثر وجاهة في الأشكال، وأجمل منظراً من الإسبان.

ولكن الشي الذي لاحظته على الإخوة المغاربة الذين كانوا في هذا المركز كثرة الناس عندهم مما يدل على أحد أمرين، أولهما أن يكون الناس كثراً بالفعل، والثاني: الا يكون الأمر كذلك، وإنما هو التباطؤ في العمل وعدم انجازه، وربما كان هذا أقرب للواقع، لأن هؤلاء الموجودين عند المركز الحدودي المغربي كلهم مروا بالمركز الإسباني وانتهوا منه بسرعة، ربما يكون سببها أن سبتة تعتبر بمثابة السوق الحرة التي لا يتطلب الخروج منها ببضائع إجراءات طويلة.

على أن هذا بمجرده لا يكفي للحكم على ما ذكرته من عدم السرعة في انجاز الأعمال لأن موقف المركز الإسباني لمن يدخلون إلى المغرب من سبتة سلبي من ناحية الجمرك لكون (سبتة) منطقة تجارية حرة ليس فيها مكوس بخلاف المغرب.

وهذا هو ما لاحظته على الأخوة الموجودين في المركز، أ ما بالنسبة إلينا فإن الأمر كان سهلاً وسريعاً، بل إن السائق الإسباني عجب من ذلك، وكيف أن الضابط هو الذي تولى تعبئة الاستمارات من الجوازات بنفسه، ثم ختم على جوازاتنا بختم الدخول للمغرب.

وإنما الشيء الذي رأيته ظاهراً في الجانب المغربي من الحدود هو أن المرء لا يعدم بين الحاضرين من يكون ذا ثياب تدل على عدم العناية، أو ذا مظهر يدل على العوز، وإن كان ذلك على قلة، فإنه ليس موجوداً في الجانب الإسباني، حيث الناس كلهم في مظهر واحد تقريباً.

وفي داخل المغرب رأينا الزحام على أشده من السيارات الكثيرة التي تعد بالمئات فيها سيارات الأجرة وفيها سيارات الركوب الصغيرة وهناك صف طويل من الحافلات التي لها محطة على غير الشارع العام.

مدينة الفنيدق:

واسمها على لفظ تصغير (فندق) التي معناها نُزُل وهي أول بلدة مغربية بعد سبتة وليس بينها و بين الحدود إلا قرابة ثلاثة كيلات.

أبرز ما فيها مما يميزها عن المدن الإسبانية التي رأيناها في هذه الزيارة مسجدها الجميل ذو الصومعة الأندلسية المربعة الشامخة التي تزهو بحلل بديعة من النقش الأندلسي البديع في

وسطها من جهة الخارج، وهذا المسجد الجليل هو أجمل ما في المدينة بناء، وأحسنها مظهراً، وسميت (فنيدق) لأن مكانها قبل انشائها كان فيه فندق صغير.

وقد أوقفت السيارة، والتقطت صورة لجامعها على البعد.

شارع مهمل داخل المغرب بين سبتة وتطوان

ولكن المفاجأة غير السارة أن شارعها بيدو مهملاً فيه النفايات والمهملات متروكة دون إبعاد وشارعها العام الذي هو الطريق الرئيسية ليس فيه أرصفة وإنما حواشيه ترابية يتطاير منها الغبار وشيء مهم آخر حز في نفسي وهو أنهم وضعوا على جزء منه إطارات سيارات خربة مهملة من أجل تحديد الازفلت حتى لا تسير السيارات على جانب الطريق المغبر.

وأسفت لهذا الذي رأيت أسفاً مقروناً بالعجب، لأن مثل هذه الهنات تمكن إزالتها بدون عملات صعبة وبدون تقنية (تكنولوجيا).

لاسيما أنها تأتي بعد الحدود الإسبانية الإدارية مباشرة، فهي عنوان على الإدارة المغربية وغالباً ما يعلق بذهن السائح أو الواصل إلى بلدٍ ما، ما يراه أول مرة فيه، تنطبع في ذهنه صورة عنه من خلال ذلك.

وقد صادف أن المنطقة نفسها ليست خضراء بطبيعتها، بل هي جرداء من أصلها، ولكنها تشترك بهذه الصفة مع الجانب الذي يحتله الإسبان.

ومع ذلك لا أشك في أنه يمكن تشجير شارعها بسهولة مع تنظيفه، واضفاء الطابع المظهري الجميل عليه.

كنت سمعت ذكر الفندق في (الفنيدق) هذه من أخ مغربي لقيته في الباخرة التي اقلتنا من الجزيرة إلى سبتة أمس وسألته عن فندق للمسلمين في سبتة، فقال: يمكنك أن تسكن في الفنيدق ففيها فندق رخيص للمسلمين وفيها طعام حلال، ومنها تتجول في سبتة.

فقلت له: إنني أجنبي لا أستطيع أن أدخل إلى سبتة عدة مرات بدون سمة، والسبب في ذلك هم الذين معي من أسرتي وإلا فإنني لا احتاج سمة دخول للتردد عليها، لأن جوازي دبلوماسي، وقد رأيت (الفنيدق) الآن وسررت لأنني لم أسكن فيها لما رأيته من مظاهر الإهمال في شارعها الرئيسي الذي سرنا معه.

سرنا مع الطريق مبتعدين عن (الفنيدق) ولم أر فيها فندقاً ظاهراً على الشارع العام، ولكن المنطقة التي رأيناها بعدها لا تزال جبلية ذات طبيعة جرداء، وأكثر ما يشد الإنتباه هنا كثرة السيارات في المغرب سواء منها سيارات الركوب وسيارات النقل مما جعلني أقارن في ذهني عددها هنا مع أعدادها في إسبانيا فأجد أنها متقاربة.

وكنا ولا نزال نسير مع طريق يدع البحر على يساره في شاطئ رملي صالح للاستجمام لذلك رأيت غابات من المظلات الواقية عن الشمس ومن الخيام الصغيرة مقامة على الشاطئ.

مركز بهية:

اخضرت الأرض بأعشاب من أعشاب المراعي رغم كوننا في آخر فصل القيظ، وبأشجار من أشجار الفاكهة واقتربت من العين جبال كانت تبدو جهة الغرب بعيدة، وأكثرها تجلل الأشجار سفوحها، والمواضع غير المرتفعة منها.

فوصلنا إلى لافتة مكتوبة باللغة العربية (مركز بهية) وهو مركز سياحي ناشيء بدليل أنهم غرسوا عليه حديثاً نخيلاً طويلاً لا يقل ارتفاعها عن عشرة أمتار، بغية تجميل المنطقة، وذلك مثلما صرنا نفعله الآن في بلادنا من غرس النخيل الطويل في الأماكن المهمة.

وبعد مركز بهية كثرت الأبنية الجيدة المبنية من الآجر والأسمنت، وانتشرت أشجار التين الشوكي المثقل بالثمار في المنطقة.

ومن أجمل ما رأيت فيه مبنى أندلسي الطراز يوحي لمن يراه مثلي بالجمال لشكله العربي الإسلامي الذي يتماشى مع ذوقنا العربي، ويوحي معناه بالجلال للمدنية الإسلامية الأندلسية التي نشأ في ظلالها هذا الطراز الراقي الجميل من البناء.

شاطئ العليني:

هكذا كتبوا اسمه في لافتة على الطريق ونحن نطل من الطريق الذي يسير في مكان مرتفع على يساره ذلك الشاطئ البحري ذو الرمل الأحمر الذي هو أجمل من الشواطئ الإسبانية التي أكثر الإسبان من الدعاية لها والطنطنة في مدحها.

وقد صارت المنطقة جميلة المظهر وكثرت فيها الخضرة وتدنت الجبال البهيجة المنظر التي يتنقل البصر ما بينها وبين رمل الشاطئ البحري الأحمر في منظر بديع هو أجمل من المنطقة التي تحيط بالبحر من مدينة (ماربيا) الشهيرة في اسبانيا بمراحل.

وقد تجلت العناية الحكومية في تجميل هذه المنطقة حتى الطريق الذي حسن أمره، وقلت النفايات الملقاة في حواشيه، والحقيقة أنه لو بذل فيه من العناية بعض ما بذل في الشاطئ الإسباني لصار أجمل وأشهر، ومن مظاهر العناية بهذا الشاطئ فندق ضخم على الرمل الأحمر قرب شاطئ البحر.

محلة مارينا:

وصل الطريق إلى محلة من البيوت الجميلة التي تشبه البيوت في أوروبا، وتوشح منطقتها على البعد بيوت متفرقة بيض الطلاء، عربية الطراز فتزيدها جمالاً على جمال.

وتمنيت لو أن هذه المنطقة هي التي على الحدود مباشرة من (سبتة) إلى المغرب، أو أن إخواننا رجال الإدارة في المغرب يستطيعون أن يجعلوها كذلك، وحتى لو لم يستطيعوا أن يجعلوها كذلك فإنهم يستطيعون أن يجعلوها جميلة بخلوّها من القمائم والنفايات، وبترميم ما يحتج منها إلى ترميم، وبترصيف شارعها المحاذي لبلدة (الفنيدق) ولضواحيها المسكونة.

وفي منطقة (مارينا) هذه رأينا ثلاثة أبعرة، والأبعرة: جمع قلة للأباعر، وقد جللوها بأجلة وهي الأردية الملونة وجاءوا بها هنا ليتفرج السياح برؤيتها وركوبها إن أرادوا، وإلاّ فإن منطقة تطوان هذه مثلها في ذلك مثل منطقة طنجة ليست بذات إبل ولا تصلح للإبل لكونها باردة ذات مراعٍ أصلح للبقر والغنم منها للإبل.

وعلى ذكر الإبل ينبغي أن ننوه هنا بتعليق على ما ذكرناه قبل هنيهة من كونهم غرسوا نخلاً طوالاً لتجميل المنطقة، فنقول: إن النخل هنا أكثره من نخيل الزيت وهو نوع ضخم الجذوع غليظ المنظر لا يثمر تمراً، وإنما يثمر شيئاً آخر لا ينضج، وإن كان مظهره مظهر (الفحّال) وهو ذكر النخل الذي يُلقح منه نخيل التمر.

وهناك نوع من النخيل عندهم هو نخلنا العربي بعينه الذي يثمر التمر، ولكنه هنا لا

يتمر- بالتاء المثناة- بمعنى أن طلعه لا يصير تمراً، وقد رأيته في ضواحي طنجة وفي تطوان بعد ذلك قد أزهي طلعه أي اصفَرَّ ولكنه لم يتمر لأن الصيف فيها قصير والنخل يطلع بعد انقضاء البرد حتى ما إذا اخرج طلعه وبدا زهوه داهمه البرد ثانية قبل أن يصبح رطباً وهكذا لا يصلح له ثَمر، ولا يكون له تمر.

بلدة سدا سمير:

لا أدري معنى هذا الاسم (سدا سمير) مع أنه مكتوب بالعربية وكلمتاه عربيتان.

شارع مشجر داخل المملكة المغربية بين سبتة وتطوان

بلدة (سدا سمير) مكتظة بالسيارات وهي ذات ألوان شعبية بدليل أنني رأيت فيها شيخاً هرماً عليه ملابس شبه ملابس الدراويش وراعي غنم بثياب ليست في غاية النظافة.

وفي ضاحية منها على الطريق (مقهى بغداد) بحروف عربية بارزة.

وعلى ذكر الحروف العربية أقول: إن كل اللافتات في هذا المنطقة ومنذ أن دخلنا حدود المغرب بلغة عربية تحتها الحروف اللاتينية، والكتابة العربية أكثرها مشرقية الخط، وليست بالخط المغربي التقليدي الذي أصله الخط الكوفي، هجرناه في المشرق إلى الخط النسخي وغيره من أنواع الخط الأخرى وحافظ عليه إخواننا المغاربة وإن لم يبقوا عليه على أصله الكوفي العريق من كل وجه وإنما أصابته سنة التطوير والتحوير.

ومن أهم مميزات الخط المغربي الحاضر الذي يستعمل أيضاً في أقطار إفريقية المسلمة حتى قرب خط الاستواء ما يتعلق بالنقط، فالفاء تكتب بنقطة تحتها، والقاف تنقط بنقطة واحدة فوقها لا بنقطتين كما هي الحال عندنا.

ولكن هذه الطريقة والخط المغربي كله قد بدأ في التراجع وربما في التلاشي لأن حروف الطباعة التي تطبع بها الصحف والمجلات والكتب تتخذ الطريقة المشرقية في الخط وحسناً فعلوا لأن ذلك من عوامل توحيد الكتابة والمصطلحات.

كما أن الإخوة المغاربة في المغرب العربي الكبير إبتداء من تونس فما كان عنها غرباً استمروا يستعملون الأرقام العربية التي صارت الآن عالمية، ولكن الأوروبيين لا يزالون يسمونها الأرقام العربية، ونحن ضيعناها إذْ تحولنا إلى الأرقام الهندية التي كنا ونحن صغار لا نسميها إلا (الهندي).

والأفظع من ذلك جهل بعض المتعلمين عندنا حينما يسمون الأرقام المستعملة الآن في أوروبا والعالم بالأرقام الأفرنجية، وأرقامنا المشرقية بالعربية، ظناً منهم أنها من اختراع أوروبا وأن إخواننا المغاربة عندما استعملوها كانوا يقلدون الأوروبيين في ذلك.

وفي شارع هذه المدينة لافتات ترحيب بالمهاجرين المغاربة العائدين إلى أرض الوطن لقضاء الإجازة فيه، وكلها – بطبيعة الحال- باللغة العربية.

على مشارف تطوان:

ضاحية في تطوان والجبال المطلة عليها

صعد الطريق بعدها أقدام جبال خضر جميلة المنظر يزيد جمالها أن التربة التي يسير فوقها الطريق صارت حمراء اللون، وكثرت الأشجار عليه، إلا أن النفايات والمهملات كالأوراق المتروكة أو الممزقة كثرت عليه أيضاً.

وقد أصبح المنظر السائد هو منظر الجبال الجميلة وشاطئ البحر المنخفض البعيد.

وكثرت السيارات في الطريق وعلى حاشيته، وتيقنت أن بلدة (الفنيدق) لا تمثل تطوان، بل لا تمثل الأرض المغربية الجميلة من هذه المنطقة الرائعة.

وظني أنه لو وجدت الدعاية الكافية لهذه المنطقة العربية المغربية لغدت من مصائف العرب الشهيرة، ففيها كل ما يريده السائح العربي، وبخاصة من يصطحبون أسرهم معهم من جو بديع وهواء هو الربيع لا حر ولا قُر، وفيها الجبال العالية الجميلة المنظر، حتى ألوانها هي زاهية بهيجة وفيها البحر ذو الشواطئ الرملية، وفيها المطاعم المتعددة المشويات وأغلبها مما يصلح للسائح العربي المتوسط الحال في ذوقه وفيما يستطيع أن يرصده من مال لنفقة سياحته.

وفيها الفاكهة الطازجة المنوعة التي أهم ما يميزها أنها قليلة النظير ومن ذلك التين والخوخ والعنب التي لم أر لها نظيراً في طيب مذاقها، وكثرة مائها، وحلاوة طعمها، وربما كان مرد ذلك أو جزء منها إلى كونك تأخذها طازجة قد قطفها الفلاح من شجرها في سحرها.

وفي هذه المنطقة قبل ذلك وبعد ذاك ما هو أهم وهو الشعب المغربي الشقيق ذو الطبع الرقيق، والتعامل الأنيق الذي ينسيك أهلك إن لم يكونوا معك وينسيك وينسيهم بلادهم إن كانوا معك.

فتشعر هنا أنك في نزهة حلوة في بيتك، وفي جو غريب قريب من دارك، مما لا تجد له مثيلاً في أي مكان آخر في العالم.

هذه تطوان:

شارع في تطوان (تصوير المؤلف)

وصلنا إلى مدينة تطوان قبيل الثانية بعد الظهر بتوقيت إسبانيا الذي تتبعه مدينة سبتة وهي قبيل الثانية عشرة بتوقيت المغرب المساوي لتوقيت (جرينتش).

فكان مدخلها من هذه الجهة مزداناً ببضائع منشورة على الأرض من فخار محلي مختلف الألوان والأحجام من ا لأواني إلى الأوعية إلى الأدوات.

ومدخل مدينة تطوان جميل حقاً إذْ تنتصب الأشجار السامقة على الطريق كما تنتصب جبال الريف خلف المدينة فتبدو كأنما تحتضنها وتشعرك أنها ستحتضنك معها.

قصدنا فندقاً كان ذكره لنا الدليل السياحي المغربي عند حدود سبتة واسمه فندق السفير وقال: إنه أحسن فندق في تطوان، فكان ا لجواب أنه (عامر) وفرحت بهذه الكلمة لأن معنى كونه عامراً أنه جيد، ولكن الموظف الذي قال لي هذه الكلمة أردف كلمة أخرى توضحها عنده وهي (صافي) فذكرت ما نغَّص عليَّ الفرح بالكلمة الأولى مع أن العمارة والصفاء من الصفات المطلوبة في الفنادق.

فقلت له: يا أخي أنا قدمت مع أسرتي وأريد النزول في فندقكم لأنه لم يذكر لي غيره إلا فندق آخر ذكروا أنه دونه في المستوى وهو فندق باريس فهل لديك حيلة في إيجاد غرفتين لي في فندقك؟

فقال: أسف يا سيدي كل الغرف عامرة أي مليئة.

وقد أسفت، ولكن تبين لي أن ذلك كان بمثابة الغلطة بالصواب، إذْ فندق السفير يقع في ضاحية خارج المدينة فليس في وسطها القديم وأنا أبحث عن فندق يكون في وسطها، كما أنه ليس بعيداً عن البحر وإن لم يكن على البحر مباشرة وأنا لا أريد منطقة البحر.

داخل مدينة تطوان:

سار السائق الإسباني بسيارته داخلاً مدينة تطوان فوقف عند فندق أو فندقين من الفنادق الأحسن مظهراً وإن كانت كلها تبدو من فنادق الدرجة الثانية أو الثالثة ولكنها كلها (صافي) أو (عمران) أو (كومبليت) ومعنى ذلك الا مكان فيها.

إحدى البوابات القديمة في تطوان

حتى صرت أقول له: إننا سننزل في أي فندق الآن مهما كان مستواه لليلة واحدة نتدبر أمرنا بعد ذلك إلا أنه وقف عند واحد شعبي ثم جاء يقول لي: وجدت لك فيه غرفتين ولما رأني صاحب الفندق قال لي: أنتم سعوديون؟ قلت: نعم، قال: هذا لا يصلح لكم أنتم تبون حمامات خاصة في الغرف وماء ساخناً ولا يوجد ذلك عندي.

فقلت في نفسي ونحن ندور في شوارع المدينة القديمة أيوم كيوم طنجة؟

وذهبنا إلى الفندق الموصوف بالحسن بعد فندق السفير وهو فندق باريس فوجدت في

مكتبه رجلاً سمح الوجه قال لي: إنه يتوقع أن توجد عنده غرفتان ولكن الأمر يحتاج إلى بعض الوقت فوضعنا امتعتنا عنده وأعطينا السائق الإسباني أجره، وزدناه ما أرضاه عن جولته في البحث عن الفنادق.

بين يدي تطوان:

لم أجد نصوصاً قديمة كثيرة عن تطوان، ولا شك في أن المدينة قديمة وأنها موجودة في عهد تدوين الكتب العربية المتعلقة بالبلدانيات، ولكن لأمر ما اهمل ذكرها أو ربما كانت دثرت في وقت من الأوقات إضافة إلى كون اسمها اسماً بربرياً يختلف النطق به عندما يكتب.

ومن العجب أن الحميري صاحب كتاب (الروض المعطار) قد أورد ذكرها مختصراً مع أنه مغربي على علم ببلاد المغرب، وما ألف فيها قال:

تيطاوان بقرب مليلة: مدينة قديمة كثيرة العيون والفواكه والزرع، طيبة الهواء والماء.

هذا كل ما ذكره عن تطوان مع ملاحظة أنه غلط في قوله إنها بقرب (مليلة) والصواب أنها بقرب (سبتة) أما مليلة فإنها بعيدة عنها شرقاً.

وهو من أهل القرن الثامن الهجري.

ولا شك في أن إخواننا علماء المغرب الذين أرخو لتطوان قد بحثوا ذلك، بل أشبعوه بحثاً ولكنني لم أطلع على ما كتبوه أخذاً مني باعتبار هذا الكتاب كتاب رحلة ومشاهدات يكتفي باليسير من المعلومات القديمة المتيسرة عن الكثير لأن هذه هي طبيعة الكتب المؤلفة في الرحلات أمثاله إلا ما تمس الحاجة إليه.

أما اسم (تطوان) فإنه من اللغة البربرية التي صار أهلها من إخواننا المغاربة يفضلون أن تسمى (الأمازيغية) نسبة إلى الأمازيغ أهل المغرب الذين سماهم الرومان البربر أو البرابرة ولكن لحقه التحريف على مدار الزمان إذْ كان (تيطايون) وهذه مؤلفة من كلمات (تيط) وتعني العيون و(أيون) علامة الجمع فمعناه: إذا (العيون) التي يراد بها عيون الماء.

تطورت الكلمة الآن فصارت (تطوان) مثلما تطورت لغة أهلها الكرام فصارت العربية، بحيث أصبح المرء لا يسمع إلا العربية في أسواقها ومجمعاتها.

قال الأستاذ الصديق بن العربي في كتابه: (المغرب) وهو مؤلف حديث العهد:

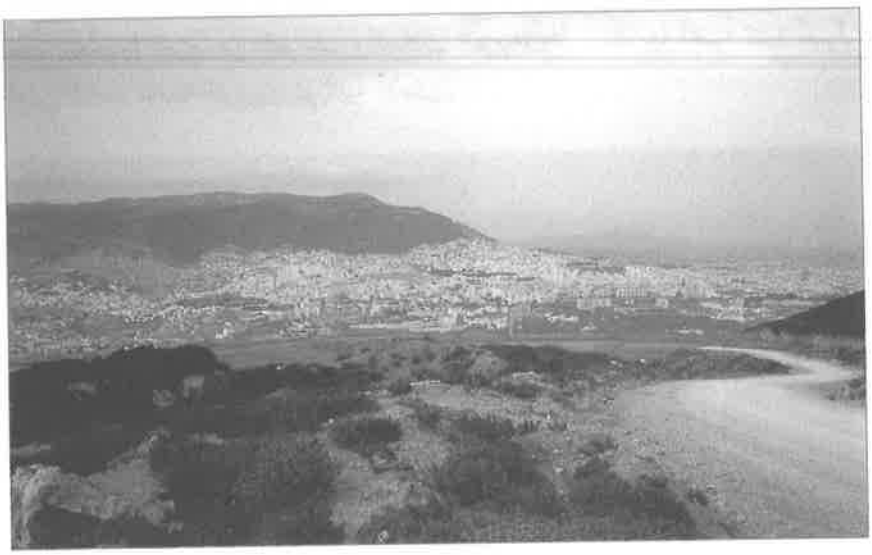

تطوان كما ترى على البعد

تطوان:

أسست قصبة تطوان في عهد يوسف المريني سنة ٦٨٥هـ ثم اتسعت عمارتها طيلة العصر المريني إلى صدر القرن التاسع ثم هاجر إليها الأندلسيون فجددوا بناءها وأصلحوا الكثير من مرافقها، واحتلها الإسبان أول مرة سنة ١٢٨٦هـ عقب الحرب التي وقعت بين المغرب وإسبانيا ثم انجلوا عنها بعد ذلك وأعادوا الكرة في أوائل هذا القرن فاحتلوا المنطقة الشمالية برمتها بعد إعلان الحماية على المغرب سنة ١٩١٢م وأصبحت تطوان عاصمة للمنطقة الشمالية المحتلّة.

وفي قلب المدينة توجد القصبة القديمة التي بناها أبو الحسن المنظري الغرناطي المتوفي ٨٨٩هـ الذي أعاد بناء المدينة.

كما توجد بها عدة مآثر تاريخية تعطي صورة صادقة عن تطورات المدينة في القرون الأخيرة ويتمثل ذلك في مختلف الأسوار والأبراج والأبواب والدور الكبرى والمساجد والأضرحة والتحف الفنية للصناعات المحلية التي ازدهرت فيما قبل كصناعة الأسلحة ودبغ الجلود والحياكة والنسج والزليج والأواني الفخارية وصياغة الذهب والفضة.

ويوجد بداخل المدينة عدد من المدارس والمعاهد والأندية وبها متحف جميل للآثار التاريخية يضم عدة قطع أثرية نفيسة كما يوجد بها متحف للفنون الشعبية ومكتبة عامة تضم مجموعة كبرى من الصحف والمجلات العربية، وتأسست بها أخيراً كلية أصول الدين التابعة لجامعة القرويين، ثم كلية الآداب.

أبنية على الطراز القديم في تطوان

وتحيط بالمدينة عدة حدائق وبساتين كيتان وجنان أنشأها الأندلسيون الذين كان لهم ولوع خاص بفلاحة البساتين.

وعلى مقربة من المدينة توجد بعض الآثار الفينيقية في مكان يدعى تمودا، وفي الطريق إلى سبتة يوجد المركب السياحي (ريستنكا) المصطاف الشهير على ساحل البحر الأبيض المتوسط في طريق سبتة.

أول تمشية في تطوان:

تتميز شوارع تطوان القديمة بعدم السعة، والمراد بذلك المدينة القديمة التي فيها القلب التجاري وما حوله مثلها في ذلك مثل شوارع الأقسام القديمة من مدينة طنجة.

بين قسم حديث وقسم قديم في تطوان

كان موقع فندق باريس الذي نزلنا فيه في وسط المدينة التجاري مما جعلنا نقع في الأسواق التجارية فور خروجنا منه، وكان من أهم ذلك ساحة فيها نخيل عالية وتزينها نافورة تتوسط الوسط التجاري ويقع عليها مبنى البريد الرئيسي الذي فيه الهواتف اللآلية المباشرة التي تستطيع أن تكلم منها من شئت في أي مكان من العالم بالإتصال المباشر.

وهذا النظام يوجد في كثير من البلدان التي لم تعمم الاتصال المباشر في هواتفها المعتادة، ولكنه في أكثرها يخضع لاجراءات مطولة منها أن تذهب إلى الموظف المختص وتخبره بالبلد الذي يجب أن يحصل عليه قبل أن يأذن لك بدخول المحراب الذي فيه الهاتف فتعطيه التأمين قبل الكلام.

أما المغرب الآن وقد جربت ذلك قبل الآن في طنجة فإنه يسمح لك بالاتصال المباشر فوراً، وبدون دفع أي تأمين، وبعد أن تتكلم تذهب أنت إلى موظف موجود في القاعة وتخبره بالرقم الذي تكلمت منه إذا كان لم يرك بسبب الزحام حوله، أو لسبب آخر فينظر في الحاسب الآلي ويخبرك بالمبلغ.

وقد اتصلنا بأهلنا في الرياض وأخبرناهم أننا الآن في تطوان في شمال المغرب وهم وإن عرفوا تطوان مثل غيرهم من الأناشيد وكتب الجغرافيا فإنهم لم يعرفوها معرفة شخصية لقلة الذين زاروها منهم.

شارع في تطوان يرى منه جبل (أبو عنان) على البعد

تطوان وطني:

وما رأيت أصدق في الشعور والاحساس من نشيد كنت أسمعه وأقرأه في صغري.

فقد والله شعرنا عندما وصلنا إلى (تطوان) بما يشعربه من وصل إلى وطنه، وكأننا قد وصلنا الرياض، بل كأنما قد وصلنا الطائف، وبخاصة أننا وصلناها من بلاد غربية غريبة هي إسبانيا، وهذا بعض النشيد:

مـــن الـشـــام لـتـطـوان بـــلاد الـــعـــرب أوطـــاني
ألى تـــخـــوم لـبـنـانَ ومـــن نجـــد إلى يَمَـــنِ

شارع في تطوان في حيّ شعبي

اللغة العربية في تطوان:

المفاجأة التي حصلت لي أن سمعت ورأيت أن اللغة العربية في تطوان على درجة من الفصاحة تفوق فصاحة كثير من المدن المغربية الأخرى، وكنت أظن عكس ذلك لكونها طرفاً للبلاد المغربية وللاستعمار الإسباني المكثف.

وطاب المقام أيضاً في تطوان:

استقر بنا المقام في فندق باريس في تطوان، وهو فندق كبير نظيف قد كسيت أسافل حيطانه كما فرشت أرضه بفسيفسا مغربية إلا أنه ليس فيه مصعد، وإنما على النزيل أن يصعد الدرج حتى ولو كان يحمل معه أمتعته الثقيلة.

ووجدنا الجو في تطوان مثل الجو في طنجة، بارداً ذا هواء عليل لا تشتكي منه ضعفاً ولا عنفا، بل إنه في الليل أكثر برودة من طنجة.

ووجدنا في تطوان نفسها من المناظر المتنوعة في موقعها وفي ناسها، وفي أبنيتها ما يستهوي السائحين، فهي تقع على مكان مرتفع بالنسبة إلى وادٍ منخفض يقع إلى الجنوب منها، ويطل عليها أيضاً جبل مرتفع أخضر فهي ما بين الجبل المرتفع الأخضر، وذلك الوادي المنخفض الذي يطل عليه جبل آخر مرتفع كانما هي في حضن حنون.

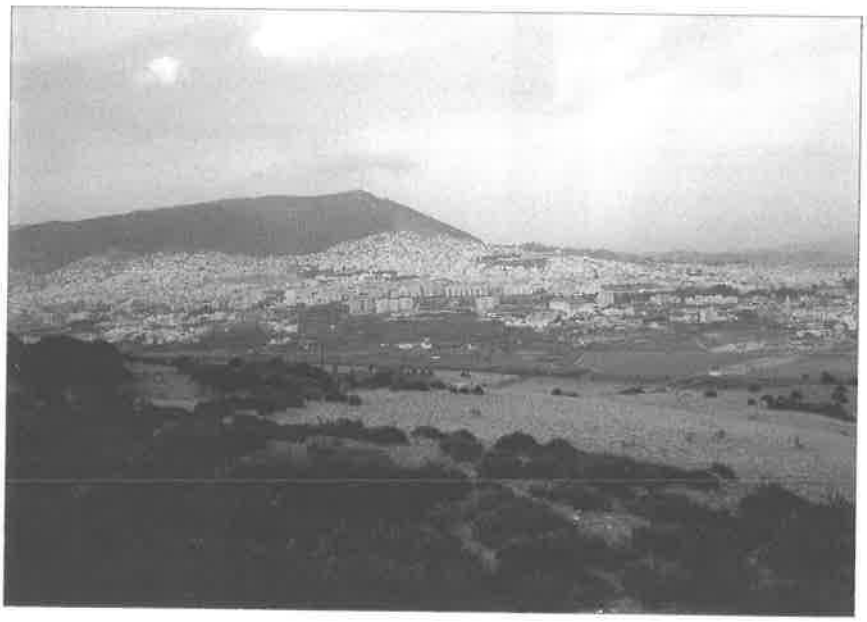

تطوان كما تبدو من جبل (أبو عنان)

وترصع سفوح الجبال الخضر فيها أبنية بيض الطلاء، كأنها الحصباءُ من الدر على البساط الأخضر، وتجد بضائعها وبخاصة الفاكهة والمأكل رخيصة جداً فيها حتى لا يشكو زائرها غلاء.

ويجد من أهلها من لطيف الكلام وحسن المعاملة ما يجعله يحدد إقامته فيها إلى الحد الأقصى الذي يسمح له به وقته وظروف عمله.

يوم الاثنين ١٤١٣/٢/٢٦هـ:

جولة في مدينة تطوان:

لبثنا في مدينة تطوان خمسة أيام في راحة تامة دون القيام بأي عمل خارجها حتى الجولات الواسعة لم نقم بشيء منها، وإنما انصرفت إلى أوراقي التي أحملها أعمل فيها تحريراً وتسطيراً وانصرفت ابنتاي إلى شراء ما راق لهما من كتب و منشورات، وأما أمهما فإنها تعتني بالجميع، ويقضي الجميع أوقات الفراغ الخاصة وبخاصة الأمسيات في الاطلاع على المحلات التجارية والتمشي في وسط المدينة.

وفي هذا اليوم الذي حجزنا فيه للسفر إلى الدار البيضاء اتفقت مع سائق أجرة حصيف من أهل تطوان على أن يأخذنا في جولة على المدينة وضواحيها تكون بمثابة الجولة الوداعية قبل مغادرتها فكان ذلك.

الدرج العام النازل من مدينة تطوان إلى الوادي المجاور لها (تصوير المؤلف)

في الوادي:

وهذا الوادي هو الذي كنا ننحدر إليه إذا أردنا مشياً فيه رياضة لانني مَنْ يريده، وفي مثل فندقنا (فندق باريس) من وسط المدينة لابد له من أن ينزل إليه بدرج طويل معتنى به اعتناء مكلفاً إلا أنه وللأسف الشديد قد ربطته النفايات والأكدار حتى غمرته أكواماً فيه.

والغريب أن الوادي نفسه الذي هو أسفل منه والمدينة نفسها التي هي أعلى منه ليس فيها مثل هذه الأكوام المكومة من النفايات والأقذار.

وفي مرة رأينا أحدهم يتبرع بحرق هذه القمائم فصار لها دخان كثيف عكر الجو ووسم الحائط الذي بجانبه بوسم أسود من الصعب أن يمحى.

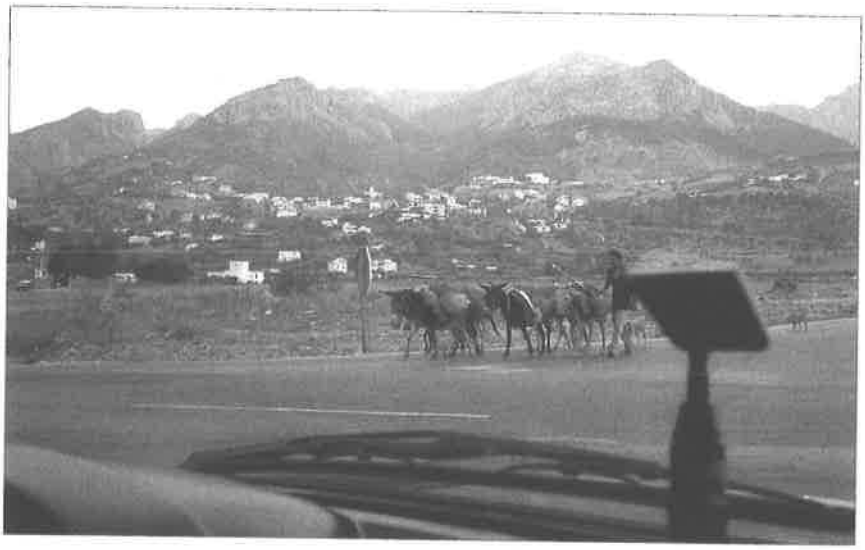

مجموعة حمير في الوادي المجاور لتطوان

ويسأل المرء منا كيف يمكن الجمع بين السخاء العظيم الذي رأيناه في العناية بهذا الدرج المنحدر إلى الوادي بل في كل الشوارع والأرصفة في المدينة وبين التقاعس عن إزالة هذه القمائم والنفايات، وهل يكون مرد ذلك إلى النقص في العمال، ونحن نرى الآلاف من الشبان يملأون الأرصفة بدون عمل.

نهر طابولا:

اخترقنا الوادي الذي يجري فيه نهر صغير شحيح المياه اسمه (طابولا) فوق جسر مقام عليه قاصدين جبل (بوعنان) أي ذو العنان والعنان هنا هو عنان الحصان في الأصل.

ويمكن وصفه بأنه الجبل الجنوبي لمدينة تطوان الواقعة فوق التلال الجبلية، وبين أحضان الهضاب الجبلية.

أوقفنا السيارة في أثناء الجبل، واستجلينا منظر مدينة تطوان في منظر فتان بدت منه وهي تطل عليها الجبال الشمالية العالية التي كانت قد حجبت بمبانيها لمن يكون في الوادي وهي

تمتد في عدة اتجاهات إلا في اتجاه هذه الجبال العالية فإنها تقف في أحضانها وعند أقدامها فلا تستطيع تجاوز ذلك.

المدينة البيضاء:

عندما ذكرت إعجابي بهذه البيوت البيض في أحضان الهضاب الخضر من تطوان ذكرت ما ذكره لي الإخوة المغاربة من أن مدن المغرب كلها مدن بيض ما عدا مدينة واحدة وهي (مراكش) فإنها حمراء.

والشيء الجامع الجميل المهم للمدن المغربية هو العناية بالآثار القديمة من أسوار وبوابات وأبراج وقلاع، وعدم السماح للتنظيم الحديث بأن يؤثر فيها.

إحدى البوابات القديمة في مدينة تطوان

وشيء آخر وهو العناية الكبيرة بالحدائق والمساحات الخضر، ففي تطوان وبخاصة حواشي هذا الوادي الواقع تحت أقدام جبل (أبو عنان) ترى الحدائق على الطريق العام مستندة إلى أسوار المدينة القديمة وأبراجها وبقايا آثارها لا يطغى شيء منها على غيره.

وادي (أبو سملال):

دخلنا إلى واد في جبل (أبو عنان) اسمه (وادي أبو سملال) وهو في أحضان الجبل ذكر لنا مرافقنا أنّ (أبو سملال) هذا ولي من أولياء الله مدفون في هذه المنطقة من الوادي، فسألته عما يفعله الناس عند (أبوسملال) هذا فتوقف قليلاً وقال: أنا لا أذهب إليه، وبعض الناس يذهبون إليه لأنه ولي.

وفوق (أبو سملال) أوقفنا السيارة وألتقطنا صوراً عديدة للمنطقة من مرتفع هناك في الجبل.

ومن الطريف أنني عندما سألته عن اسم هذا المكان المرتفع من الجبل قال: هو تابع لحملة أبو سلال، قلت له: ما هي حملة (بو سملال)؟ قال: قوته.

قرية بوعنان:

وفي أقدام جبل بوعنان تقع قرية ذات بيوت بيض غير مسفلتة الشوارع ما عدا الشارع العام تسمى (بوعنان) أيضاً على اسم الجبل يفصل بينها وبين تطوان الوادي المنخفض الذي يجري فيه نهر (طابولا).

وأجمل ما في هذه القرية مسجدها، وكذلك المساجد الموجودة في الوادي فكلها معتنى بها من حيث العمارة، بحيث أنها مبنية على طراز أندلسي تقليدي جميل وذات مآذن أو هي صوامع كما يسمونها مربعة عالية، تعد تحفة للناظرين حتى في القرى التي لا يعتنى الناس عادة بالمساجد فيها.

ثم عدنا إلى المدينة مع شارع في الوادي المنخفض عريض حديث عليه كنيسة حولت إلى مسجد وكتبت عليها كلمة (مسجد) بالعربية.

المدينة القديمة:

ذهبنا لرؤية المدينة القديمة التي يصح أن يقال فيها إنها المدينة القديمة جداً لأنها غير قلب المدينة التجاري القديم الذي يقع بالقرب من فندقنا (فندق باريس).

ولا يزال هذا القسم القديم مسوراً بسور محكم لم يخرب منه شيء حتى أبوابه موجودة وفيه الأبراج والمحاريب التي أصبحت الآن ليست بذات بال إلا لكونها أثراً من الآثار.

ولهذه المدينة القديمة سبعة أبواب هي باب الرموز، وباب العقلة، وباب صعيده وباب المقابر وباب المراوح، وباب جياف وهم اليهود لانهم كانوا يسكنون هناك وقد رحلوا عنه

الآن، أما السابع فلا أذكره، ويقال لهذا القسم القديم المسور من المدينة: إنه المدينة الرومانية أي الموجودة في عهد الرومان قبل دخول الإسلام إلى المنطقة.

ذكروا أن سورها كان يغلق إغلاقاً محكماً، ولكنها الآن صارت لا تمثل من حيث المساحة والسكان إلا أقل من ٥٪ أو نحو ذلك من مساحة مدينة تطوان بأجمعها لأن رقعتها انفسحت، وأحياؤها اتسعت، بل تمددت وزاد سكانها زيادة طبيعية وزادت بكثرة من ورد إليها من ضواحيها وأريافها التي في جبال الريف وفي غيرها.

جزء من السور القديم على مدينة تطوان

باب العقلة:

وبعضهم يسميه: (باب عقله) من دون (أل) وهو باب قديم على السور القديم الباقي ما حوله من دون تغيير، تزعم العوام أن (العقله) التي يسمى الباب باسمها ملكة رومانية سمي هذا الباب باسمها ولا أظن أن ذلك صحيح، لأن اللفظة تشعر بأنها عربية الأصل، أو معربة تعريباً بعد بها عن أصلها.

ومن طريف ما صنعته بلدية تطوان أنها عرضت بجانب هذا الباب الأثري المهم مدافع أثرية قديمة.

وقد التقطت عدة صور لباب العقله هذا ولم يكن النور مناسباً لالتقاط صورة واضحة

له، وإنما ارجو أن تكون إحداها واضحة.

باب صعيدة:

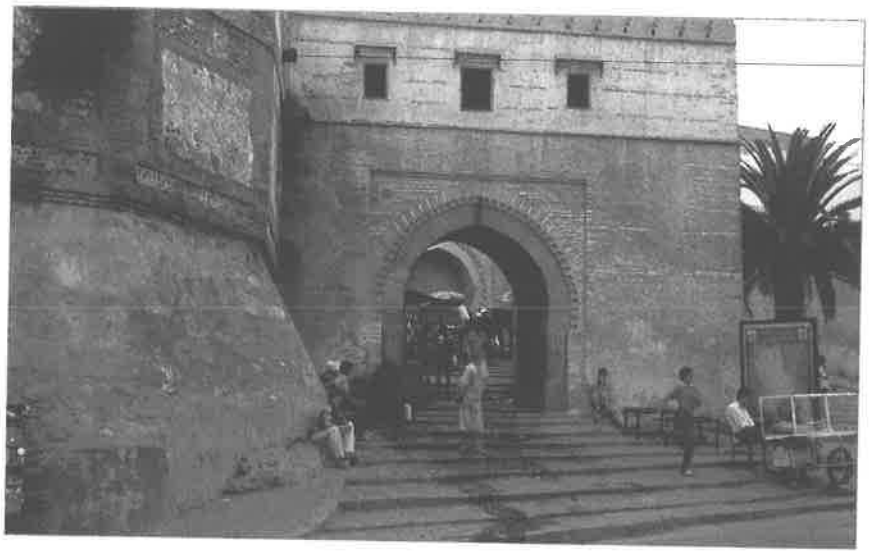

أحد الأبواب السبعة لمدينة تطوان القديمة

تركنا باب العقله سائرين مع شارع لا يبعد عن محاذاة السور القديم فوصلنا بسرعة إلى باب (صعيدة) وسبب تسميته أن في داخل سوره مباشرة مسجد فيه شيخ من الصالحين حسبما ذكروه اسمه الصعيدي سميت المنطقة باسمه، وسمي الباب أو البوابة لأنها مؤنثة (صعيده) كأن معنى ذلك الصعيدية نسبة إلى الصعيدي المذكور.

وقفنا عند باب (صعيده) ولم ندخل إلى المدينة القديمة الأثرية منه، لأن خروجنا سيكون منه فيما بعد، وإنما التقطت له صورة.

وهو مثل الباب الذي قبله باقٍ على حالته التي كان عليها قبل قرون ومتصل بالسور وقربه برج قديم.

برج الأفعى:

ذهبنا إلى ناحية أخرى ونحن لا نزال نسير خارج المدينة القديمة فوقفنا عند برج صغير قديم اسمه (برج الأفعى) هكذا ينطقون باسم البرج والأفعى لكن بتسهيل الهمزة.

وقال سائقنا (راشد قدوري): إنه كان في هذا البرج في القديم أفعى يخاف الناس منه.

باب جياف:

وبرج الأفعى بجانب (باب جياف) الذي هو باب اليهود، لأن اسم اليهود هو (جياف) في اللغة المحلية، والباب والبرج باقيان على ما كانا عليه في القديم، إلا أن اليهود والأفعى قد رحلوا جميعاً من المكانين فاليهود ذهب أكثرهم إلى فلسطين وبعضهم إلى أوروبا، ومن بقي منهم في المغرب ترك هذه المحلة من البلدة القديمة.

وعلى ذكر اليهود أقول: إنه من المعروف أن إسحاق شامير رئيس وزراء اليهود الذي استهان بالعرب والمسلمين، بل أهانهم وجعلهم بتحقيرهم والتهوين من شأنهم في مرتبة أدنى في نظر العالم الممتدن من اليهود أصله من مدينة تطوان هذه.

أحد أبواب تطوان القديمة

وكان يسكن في حي يسمى (الملاّح) في مدينة تطوان القديمة، ولكنها أقل قدماً من هذه.

قلت للسائق عندما ذكر أن اسم أسرته (قدوري): إن هذا اسم يشبه أن يكون سورياً فهل أصلكم من الشام، فأجاب: لا، نحن من الأندلس هاجر أجدادنا من هناك إلى منطقة تطوان، قال: ولي أحد عشر أخاً واختاً من أم واحدة.

ثم دخلنا إلى المدينة القديمة مع (باب جياف) هذا فوجدتها قديمة بالفعل أسواقها وأزقتها مبلطة بالحجارة وأزقتها متعرجة وبيوتها على طراز قديم خالٍ من الشرفات أو أي وسيلة

للاتصال بالخارج إلا من خلال باب المنزل أو من نافذة في الحائط على قلة النوافذ التي تفتح على الشارع في بيوتها.

وهي عامرة بالسكان الذين رأينا لهم عدداً لا بأس به من الأطفال على عادة الأحياء الشعبية التي يكون للأطفال فيها وجود ظاهر.

وهي على درجة من النظافة جيدة رغم كون أرضها غير مستوية ففيها الأماكن المرتفعة والمنخفضة وإن لم يكن ذلك بصفة حادة.

وبيوتها تقريباً كلها بيض الطلاء جرياً على العادة المتبعة في طلاء مدينة تطوان وضواحيها باللون الأبيض كما تقدم.

مدرسة سكينة بنت الحسين:

مررنا بمدرسة أشار إليها سائقنا راشد باهتمام قائلاً: هذه مدرسة سكينة بنت الحسين للبنات قد قرأت فيها جدتي، إنها مدرسة قديمة.

والواقع أن منظر المدرسة يوحي بالقدم فضلاً عن كون وجودها في هذه المدينة يشعر بذلك.

جزء حديث من تطوان

وقد أوقفنا السيارة هنيهة في شارع أو الأصح زقاق فيها ضيق ونزلت أتأملها والتقط صوراً فيها وهي ليست واسعة، بل هي صغيرة.

وخرجنا منها من باب (صعيده) المجاور لمسجد الشيخ الصعيدي الذي رايته بصومعته وهي مئذنته المربعة ولكن لم أدخله ولا أدري مكان قبر الشيخ الصعيدي فيه.

معهد محمد الخامس:

تركنا المدينة التاريخية وسورها الأثري القديم وبواباته التي لا تزال عامرة كأنما تركها بانوها أمس إلى منطقة لا نقول إنها مدينة ولكنها ليست قرية أظهر ما فيها مدرسة دينية قديمة يقومون الآن بترميمها واسمها الآن (معهد محمد الخامس) وهو معهد ديني.

ثم انطلقنا في جولة على الضواحي الحديثة التي ليس فيها ما يسترعي الانتباه لأمثالنا إلا ما شعرنا به من أن المدينة كبيرة متشعبة الضواحي، حافلة بالسكان.

فمررنا بمصلى العيد ويسمونه (المصلّى) وهو مسور مثلما هو مقتضى السنة، ومثلما كان عليه الأمر في بلادنا قبل اتساع المدن، وزيادة عدد السكان التي حتمت إقامة صلاة العيد في عدة مساجد كبيرة بديلة من المصلى الذي ينبغي أن يكون في صحراء ظاهرة غير مبنية وأن يكون واسعاً، بحيث يكفي لأكثر المصلين، لأن هذا هو المقصود الأعظم من مشروعية صلاة العيد في الإسلام وهو أن يعقد المسلمون على مستوى البلدة اجتماعاً سنوياً عاماً هو أحد الاجتماعات المتكررة المشروعة في الإسلام وأولها اجتماع أهل الحارة أو المحلة لأداء الصلاة جماعة في اليوم والليلة خمس مرات، يليه اجتماع أسبوعي على صلاة الجمعة على مستوى جزء أكبر من المدينة إن لم يكن على مستوى البلدة كلها، ثم الاجتماع السنوي في العيدين وآخرها اجتماع عالمي يكون في السنة مرة واحدة لمن استطاع إليه سبيلاً وهو الاجتماع في الحج.

هذا وقد مررنا بمسجد كبير ذكر السائق أن اسمه (مسجد الأمة).

سانية الرمل:

وصلنا إلى حي اسمه (سانية الرمل) لم أفهم المقصود من اسمه، ولم يستطع السائق افهامي إلا قوله: إن السانية (ذاك اللي فيه الما) فهل هي الإبل أو الماشية السانية التي يستخرج عليها الماء من البئر؟ إذا كان الأمر بالإيجاب يكون السؤال هو: ما علاقة السانية بالرمل؟

وعلى أية حال فإن حي (سانية الرمل) يقع جزء من بيوته على أعتاب جبل عالٍ يسمى جبل (دَرْعه) هو الذي يطل من جهة الشمال على مدينة (تطوان) وترصع سفوحه بيوت متفرقة بيض.

ثم مررنا بمقابر لليهود والنصارى مسورة بسور عالٍ ذكر أن كل طائفة من الطائفتين لها مقبرة أو جزء من المقبرة مسور بسور خاص.

في مدينة تطوان

مسجد ابن عُبُود:

هكذا نطق السائق الاسم بكسر النون وإسكان العين وتخفيف الباء المضمومة.

وقال: (ابن عْبُود) بنى هذا المسجد كله وحده، ولم يقبل أن يساعده أحد على بنائه أو يشاركه فيه، فسألته: هل هو من أهل تطوان؟ فقال: أصله من السعودية الجد (دياله) من تطوان، ودياله: كلمة شائعة في المغرب تأتي للإضافة والاختصاص كما نقول في الحجاز حقه وفي مصر (بتاعه) يريد أن يقول إن أصله من السعودية ولكن جده مولود هنا فهم منذ فترة يعتبرون من سكان مدينة تطوان.

هذا ولم يعرف أننا من السعودية قط، لأنه سألنا أول الأمر من أين نحن فقلت: من منطقة الخليج قرب عُمَان، فاكتفى بهذا التعريف.

ثم قال: ابن عْبُود من عائلة (العبودي) الكبيرة نطق بالاسم (العبودي) كما ننطق به في نجد بإسكان اللام والعين معاً وهما متجاوران وتخفيف الباء مثلما نطق باسم (ابن عبود) مثلما ينطق به عندنا تماماً.

وقد استرعى انتباهي ذلك لكون أسرتنا كانت تسمى في أول الأمر (العبود) بدون ياء النسبة ومعنى ذلك (آل عبود) وكان يقال للواحد منا (ابن عْبُود) واجدادنا في الوثائق القديمة هم (ابن عبود) ومنذ مائة سنة فقط أصبح اسمها (العبودي) عندما اشتهر منا عدة أشخاص تكررت أسماؤهم على ألسنة الناس فاقتصى الأمر أن ينسبوهم فيقال لهم (العبودي) بدلاً من (ابن عبود).

وكان صديقي الدكتور عبدالسلام الهراس وهو من أهل تطوان وعضو في المجلس الأعلى العالمي للمساجد الذي يتبع رابطة العالم الإسلامي قد أخبرني عن أسرة (العبودي) في تطوان وأن اسمها مطابق لاسمنا وإن منها شخصيات كبيرة خرجت من تطوان إلى بعض أنحاءِ المغرب ومنهم قضاة وموظفون كبار.

وهذا السائق التطواني الأندلسي الأصل يقول لي ما لم يقله الدكتور الهراس وهو أن أصل أسرة بن عبود من (العبودي) وأن أصل الجميع من السعودية، وقد حملني ذلك على التساؤل عما إذا كانت لأسرتهم علاقة بأسرتنا بأن يكون أحد من قومنا قد سافر إلى المغرب ولم نعرف من أمره شيئاً لأن سفره إليها سيكون حتماً مرحلة ثانية لسفرة معتادة كان تكون للشسام، أو مصر أو حتى مكة المكرمة بعد أن يكون لبث فيها مدة ونسي أمره والله أعلم.

المؤلف في المرتفع المجاور لمدينة تطوان

وتنتصب منارة (مسجد ابن عبود) شامخة مربعة على طراز أندلسي جميل مثل المسجد الذي هو كبير جليل.

دار الخليفة:

وصلنا (حي الطويلة) وهو حي معتاد ولكن استرعى انتباهنا فيه شيئان أولهما دار جليلة قديمة يسمونها (دار الخليفة) مبنية على ربوة عالية، بحجارة مهذبة على طراز أندلسي قديم خالص.

ولا يعرفون من هو الخليفة ذاك الذي نسبت إليه.

وثانيها قصر ذو سور قوي على طراز مغربي قديم أيضاً يسمى (قصر الملك) ذكروا أنه قصر للملك الحسن ، وإن كان قد بني بعده بمعنى أنه قصر لملك المغرب وإن كان الملك الحسن لم ينزله قط.

الجو البديع:

مبنى أنيق في تطوان

منذ أن دخلنا تطوان ونحن ننعم بجو بديع هو جو الربيع مع أننا في القيظ، ولا يزال كبار السن منهم يلبسون ملابس كثيفة تناسب جو الخريف بل الشتاء عندنا، وقد ذكرت ذلك عندما رأيت شيوخاً مسنين في حي الطويلة هذا عليهم ملابس الصوف.

ويقال مثل ذلك عن الكبيرات من النساء، بل عن النساء المحتشمات المتمسكات باللباس الوطني المغربي الأصيل: يكون على الواحدة منهن عدة ثياب يركب بعضها بعضاً تطل أسافلها من أسافل الأخرى، وذلك ناشيءٌ عن البرودة في الجو، وإن شئنا الدقة قلنا إنه ناشيء عن عدم الحر في الجو، لأن البرد هنا لا يكون بالغاً حتى في الشتاء ولكن الحر لا يوجد حتى في القيظ.

مطار سانية الرمل:

هو مطار صغير لم يهتد إليه سائق الأجرة الذي هو من أهل تطوان إلا بعد أن سأل عنه، وقال: إنه مطار جديد وأن الناس كانوا يذهبون إلى مطار طنجة الذي يبعد عن تطوان خمسة وخمسين كيلومتراً، وسوف نسافر منه إلى الدار البيضاء بإذن الله.

عندما دخلنا إليه عرفناأنه أصغر من الصغير، إذْ ليس فيه أي مقعد داخله وليس فيه غرفة مغادرة ولذلك عندما تسلم موظف فيه مع عامل أمتعتنا لم نرد أن نجلس فجلسنا خارجه في ساحة صغيرة مزروعة بالثيل، وجلس بعض الناس من المسافرين والمودعين على رصيف الشارع، وقد سمي المطار (مطار سانية الرمل) وكتبوا عليه ذلك، لكونه يقع في حاشية حي (سانية الرمل) الذي مر ذكره.

مغادرة تطوان:

في السادسة والنصف قبل المغرب قامت طائرتنا من تطوان إلى الدار البيضاء وهذا هو الموعد المحدد لقيامها في الأصل لم تتأخر عنه، وهي طائرة صغيرة ذات محركين بمروحتين استغرق طيرانها إلى الدار البيضاء ساعة كاملة.

وبقينا في الدار البيضاء عدة أيام سافرنا بعدها إلى جدة عائدين إلى أرض الوطن ولله الحمد.

كتب مطبوعة في الرحلات للمؤلف

١. في إفريقية الخضراء: مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين- طبع بيروت، دار الثقافة، ١٣٨٨هـ/١٩٦٨م.

٢. رحلة إلى جزر مالديف إحدى عجائب الدنيا- الرياض، دار العلوم، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٣. مدغشقر بلاد المسلمين الضائعين- الرياض، النادي الأدبي، ١٤٠١هـ/١٩٨١م.

٤. جولة في جزائر البحر الزنجي أو حديث عن الإسلام والمسلمين في جزر المحيط الهندي- الرياض، المطابع الأهلية للأوفست، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

٥. رحلة إلى سيلان- الرياض، جمعية الثقافة والفنون، ١٤٠٣هـ/١٩٨٢م.

٦. صلة الحديث عن إفريقية مشاهدات وانطباعات وأحاديث عن الإسلام والمسلمين- نشرته دار العلوم في الرياض، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٧. مشاهدات في بلاد العنصريين، رحلة إلى جنوب إفريقية وحديث في شؤون المسلمين- نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٨. إطلالة على نهاية العالم الجنوبي- مكة المكرمة، نادي مكة الثقافي، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

٩. زيارة لسلطنة بروناي الإسلامية- طبع بمطابع الرياض الأهلية للأوفست، عام ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

١٠. شهر في غرب إفريقية مشاهدات وأحاديث عن المسلمين- الرياض، المطابع الأهلية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٤م.

١١. في نيبال بلاد الجبال- رحلة وحديث في شؤون المسلمين- الرياض، مطابع الفرزدق، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١٢. رحلات في أمريكا الوسطى- المطابع الأهلية للأوفست في الرياض، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

١٣. إلى أقصى الجنوب الأمريكي رحلة في الأرجنتين وتشيلي- الرياض، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

١٤. على ضفاف الأمازون، رحلة في المنطقة الاستوائية من البرازيل- نشره النادي الأدبي في أبها، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

١٥. على قمم جبال الأنديز- الرياض، مطابع الفرزدق التجارية، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
١٦. في غرب البرازيل- الرياض، مطابع الفرزدق التجارية ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
١٧. في بلاد المسلمين المنسيين: بخارى وما وراء النهر- طبع في مطابع الفرزدق التجارية عام ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
١٨. بقية الحديث عن إفريقية- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٢هـ/١٩٩١م.
١٩. جولة في جزائر البحر الكاريبي- مطابع الرياض الأهلية للأوفست، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
٢٠. جولة في جزائر جنوب المحيط الهادئ، مطابع الفرزدق، الرياض، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
٢١. داخل أسوار الصين (مجلدان)-مطابع الفرزدق التجارية،الرياض،١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
٢٢. بلاد الداغستان- طبع مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٣هـ.
٢٣. الرحلة الروسية- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ.
٢٤. مع المسلمين البولنديين- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
٢٥. جمهورية أذربيجان- طبع مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
٢٦. في أعماق الصين الشعبية- نشرته مجلة المنهل.
٢٧. بين الأرغواي والبارغواي- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٣هـ/١٩٩٢م.
٢٨. بورما الخبر والعيان- طبع ببيروت عام ١٤١٢هـ.
٢٩. مقال عن بلاد البنغال- طبع بالرياض عام ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
٣٠. ذكريات من يوغسلافيا- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
٣١. كنت في بلغاريا- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
٣٢. في جنوب الصين- طبعته رابطة العالم الإسلامي بمطبعتها في مكة المكرمة عام ١٤١٤هـ.
٣٣. كنت في ألبانيا- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ.
٣٤. ذكرياتي في إفريقية- محاضرة طبعتها رابطة العالم الإسلامي في مكة المكرمة.
٣٥. أيام في النيجر- طبع ببيروت عام ١٤١٤هـ.
٣٦. على أرض القهوة البرازيلية- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٥هـ.
٣٧. نظرة في شرق أوربا وحالة المسلمين بعد الشيوعية- طبع ببيروت عام ١٤١٤هـ.

٣٨. بين غينيا بيساو وغينيا كوناكري- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ.

٣٩. من أنقولا إلى الرأس الأخضر- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ.

٤٠. سياحة في كشمير- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

٤١. يوميات آسيا الوسطى- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٤هـ.

٤٢. نظرة في وسط إفريقية- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١١هـ/١٩٩١م.

٤٣. بلاد القريم- نشرته دار القبلة في جدة.

٤٤. قصة سفر في نيجريا (مجلدان)- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض.

٤٥. حديث قازاقستان- نشرته دار القبلة في جدة (تحت الطبع).

٤٦. المسلمون في لاوس وكمبوديا: رحلة ومشاهدات ميدانية- نشرته رابطة العالم الإسلامي في سلسلة دعوة الحق، وطبعته في مطبعتها عام ١٤١٦هـ.

٤٧. في جنوب الهند (من سلسلة الرحلات الهندية) طبع مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٧هـ.

٤٨. رحلات في أمريكا الجنوبية: غينيا وسورينام، مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٩هـ.

٤٩. إطلالة على أستراليا- طبع في مطابع التقنية للأوفست- الرياض عام ١٤١٧هـ.

٥٠. أيام في فيتنام- نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

٥١. في غرب الهند (من سلسلة الرحلات الهندية) نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها في مكة المكرمة، عام ١٤١٧هـ.

٥٢. إطلالة على موريتانيا — نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٧هـ.

٥٣. حديث قيرغيزستان، دراسة في ماضيها ومشاهدات ميدانية- نشرته دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٥٤. زيارة رسمية لتايوان، نشر دار خضر للطباعة والنشر في بيروت عام ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

٥٥. سطور من المنظور والمأثور عن بلاد التكرور- مطابع النرجس التجارية، الرياض، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٥٦. راجستان: بلاد الملوك (من سلسلة الرحلات الهندية) مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

٥٧. في شرق الهند (من سلسلة الرحلات الهندية) طبع في مطابع التقنية للأوفست في الرياض عام ١٤١٩هـ.

٥٨. العودة إلى الصين (من سلسلة الرحلات الصينية) طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٠هـ.

٥٩. في شرق البرازيل، من سلسلة الرحلات البرازيلية- طبع في مطابع التقنية في الرياض عام ١٤١٩هـ.

٦٠. هندوراس ونيكاراقوا وكوستاريكا (من سلسلة الرحلات في جمهوريات الموز) مطابع التقنية، الرياض، ١٤١٩هـ.

٦١. من بلاد القرتشاي إلى بلاد القبرداي (من سلسلة الرحلات القوقازية) طبع في مطابع التقنية للأوفست، الرياض، ١٤٢٠هـ.

٦٢. بلاد التتار والبلغار (من سلسلة رحلات الشمال) نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته بمطبعتها في مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٦٣. بلاد الشركس: الإديغي- طبع مطابع التقنية، الرياض، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٦٤. مواطن إسلامية ضائعة- مطابع التقنية، الرياض، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٦٥. تائه في تاهيتي- طبعته مطابع التقنية، الرياض،١٤٢٠ هـ.

٦٦. نظرة إلى الفلبين بين زيارتين: رسمية وخاصة، مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٠هـ.

٦٧. ذكريات من الاتحاد السوفيتي، مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٠هـ.

٦٨. نظرة إلى الوجه الآخر من الأرض أو رحلة إلى أبعد مكان: جولات في أقصى جزر المحيط الهادئ الجنوبي، طبع في مطابع التقنية، الرياض، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٦٩. إقليما سمارا وأستراخان (من سلسلة الرحلات في جنوب روسيا)، نشرته دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

٧٠. في إندونيسيا أكبر بلاد المسلمين، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

٧١. قرينادا وسانتالوسيا ودومنيكا (من سلسلة الرحلات الكاريبية) مطبعة العلا، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٧٢. مشاهدات في تايلند، مطابع النرجس في الرياض، عام ١٤٢١هـ.

٧٣. مع العمل الإسلامي في القارة الأسترالية، جولة وحديث في شؤون الإسلام، مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢١هـ.

٧٤. فطاني أو جنوب تايلند، مطابع المسموعة، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٧٥. المستفاد من السفر إلى شاد، مطابع التقنية، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٧٦. في جنوب البرازيل (من سلسلة الرحلات البرازيلية) مطابع التقنية، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.

٧٧. شمال شرق الهند، رحلة في ولايتي بيهار وإترابراديش وحديث عن المسلمين، مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٧٨. بلغاريا ومقدونيا (من سلسلة الرحلات في بلاد البلقان) طبع في مطابع العلا، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٧٩. بلاد البلطيق، طبع في مطابع الجاسر، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٨٠. بيليز والسلفادور (من سلسلة الرحلات في جمهوريات الموز) طبع في مطابع العلا، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٨١. (العودة إلى ما وراء النهر) جولة في آسيا الوسطى، وحديث عن شؤون المسلمين، طبع في مطابع المسموعة، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٨٢. (على سقف العالم) رحلة في التبت، وحديث في شؤون المسلمين، نشره نادي القصيم الأدبي، بريدة، ١٤٢٢هـ.

٨٣. الإسلام والمسلمون في غرب إفريقية، أو بقية البقية من حديث إفريقية، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م.

٨٤. بلاد العربية الضائعة (جورجيا) طبع في مطابع العلا، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٨٥. الاعتبار في السفر إلى ماليبار (من سلسلة الرحلات الهندية)، نشره النادي الأدبي الثقافي في مكة المكرمة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٨٦. ذكريات من خلف الستار العقيدي، رحلة في شرق أوروبا وأحاديث في أحوال المسلمين، طبع في مطابع النرجس، الرياض،١٤٢٢هـ.

٨٧. بالي، جزيرة الأحلام، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٨٨. غايتي من السفر إلى هايتي، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٨٩. إلى جنوب الشمال: بلاد السويد، طبع في مطبعة العلا، الرياض، ١٤٢٣هـ.

٩٠. وراء المشرقين رحلة حول العالم وحديث في أحوال المسلمين، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٩١. إلمامة بجنوب الفلبين لحضور الاحتفال بافتتاح المباحثات السلمية بين الحكومة

الفلبينية وجبهة تحرير مورو الإسلامية، ومشاهدات أخرى، مطابع النرجس عام ١٤٢٤هـ /٢٠٠٣م.

٩٢. رحلة هونغ كونغ وما كاو، طبع في مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٩٣. إلى أقصى الجنوب الإفريقي، مطابع النرجس، الرياض، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٩٤. شمال سيبريا (من سلسلة الرحلات السيبرية) مطابع النرجس، الرياض، عام ١٤٢٤هـ.

٩٥. فوق سقف الصين: رحلة في الشمال الغربي من الصين، وحديث عن المسلمين، طبعته مطبعة العلا في الرياض، عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٩٦. إقليم أورنبورغ (من سلسلة الرحلات في جنوب روسيا) طبع في مطابع العلا في الرياض، عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

٩٧. إلى إريتريا بعد ٣٦ سنة، طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٤هـ.

٩٨. الشرق الشمالي من البرازيل: رحلة في ولايات: برنانبوكو وريوقراندي دي نورتي وبارايبا (من سلسلة الرحلات البرازيلية) طبع في مطابع العلا في الرياض.

٩٩. من غينيا الاستوائية إلى ساو تومي: رحلات في القارة الإفريقية، مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م.

١٠٠. من روسيا البيضاء إلى روسيا الحمراء (من سلسلة الرحلات في القارة الأوروبية) مطابع العلا في الرياض، ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

١٠١. إلى شمال الشمال: بلاد النرويج وفنلندا (من سلسلة الرحلات في القارة الأوروبية)، مطابع العلا في الرياض، ١٤٢٤هـ.

١٠٢. في غرب أستراليا (من سلسلة الرحلات الأسترالية) طبع في مطابع العلا في الرياض، عام ١٤٢٩هـ.

١٠٣. (نظرات في شمال الهند) مجلدان، طبع في مطابع النرجس في الرياض، عام ١٤٢٤هـ- ٢٠٠٣م.

١٠٤. جولات فنزويلية وحديث عن المسلمين في أحد أركان القارة (من سلسلة رحلات في أمريكا الجنوبية)، مطبعة النرجس في الرياض عام ١٤٢٧هـ.

١٠٥. الحل والرحيل في بلاد البرازيل (ثلاثة مجلدات من سلسلة الرحلات البرازيلية)، (تحت الطبع).

١٠٦. في وسط الهند، طبعته مطبعة النرجس عام ١٤٢٦هـ.

١٠٧. قوادي لوب وانتقوا وسان مارتن (من سلسلة الرحلات في البحر الكاريبي) طبع مطابع النرجس عام ١٤٢٩هـ.

١٠٨. في شمال شرق آسيا، رحلة في سيبريا ومنغوليا، طبع مطابع العلا في الرياض، عام ١٤٢٦هـ.

١٠٩. القلم وما أوتي، في جيبوتي، مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٥هـ.

١١٠. خلال أوكرانيا بحثاً عن المسلمين، (من سلسلة الرحلات في بلاد الشمال)، (تحت الطبع).

١١١. مقال في زيارة منطقة الأورال، (من سلسلة الرحلات في وسط روسيا)، طبع مكتبة الطرفين في الطائف عام ١٤٣٠هـ.

١١٢. بورتوريكو وجمهورية الدومنيكان، (من سلسلة الرحلات الكاريبية)، طبع في مطابع النرجس في الرياض، عام ١٤٢٩هـ.

١١٣. جمهورية القبائل الروسية (رحلات في جنوب روسيا)، نشرته مكتبة الرشد بالرياض.

١١٤. في غرب سيبيريا، مشاهدات وأحاديث في شئون المسلمين (الرحلات السيبيرية)، نشرته مكتبة الرشد بالرياض.

١١٥. شمال أستراليا، رحلة وحديث في أحوال المسلمين (الرحلات الأسترالية)- (تحت الطبع).

١١٦. إلمام بالمحيط الهادي من أستراليا إلى جزيرة قوام (الرحلات الأسترالية)، نشرته دار الثلوثية في الرياض.

١١٧. إلى الشرق الأقصى الروسي (الرحلات الروسية)، نشرته دار الثلوثية في الرياض.

١١٨. في أقصى شرق الهند (الرحلات الهندية) طبعته مطبعة النرجس عام ١٤٣٢هـ.

١١٩. جنوب أستراليا (الرحلات الأسترالية)، نشرته دار الثلوثية في الرياض عام ١٤٣٠هـ.

١٢٠. رحلة أخرى إلى الحبشة بعد أربعين عاماً، مطبعة النرجس في الرياض، عام ١٤٣١هـ.

١٢١. قول أوفى، في كوسوفا، نشرته دار الثلوثية في الرياض، عام ١٤٣١هـ.

١٢٢. القول المجسّد من الجولة في الجبل الأسود، تحت الطبع.

١٢٣. رحلة إلى المدينة المنورة قبل ستين سنة: نشرته دار الثلوثية في الرياض عام ١٣٣١هـ.

١٢٤. في أعماق الصين الشعبية: رحلة في مقاطعة منقوليا الداخلية وحديث عن الإسلام والمسلمين: طبعته مطبعة النرجس عام ١٤٣١هـ.

١٢٥. العودة إلى غرب إفريقية، طبعته مطبعة النرجس عام ١٤٣٢هـ.

١٢٦. رحلة من بريدة إلى الظهران قبل ٦٠ سنة، مطبعة النرجس في الرياض، عام ١٤٣٢هـ.

١٢٧. غينيا الجديدة آخر الغينيات زيارة (تحت الطبع).

١٢٨. الإشراف على أطراف من المغرب العربي (وهو هذا الكتاب).

١٢٩. شرق أستراليا (الرحلات الأسترالية) (تحت الطبع).

١٣٠. رحلة الأندلس (تحت الطبع).

مؤلفاته المطبوعة في غير فن الرحلات

١. معجم بلاد القصيم (في ستة مجلدات)-نشرته دار اليمامة بالمطابع الأهلية للأوفست، الرياض، ١٣٩٩هـ، ثم طبع مرة أخرى في عام ١٤١٠هـ.

٢. أخبار أبي العيناء اليمامي- طبع في الرياض وبيروت عام ١٣٩٨هـ.

٣. الأمثال العامية في نجد (خمسة مجلدات) ساعدت دارة الملك عبدالعزيز في الرياض على طبعه، ونشرته دار اليمامة للطبع والنشر عام ١٣٩٨هـ.

٤. كتاب الثقلاء- نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

٥. نفحات من السكينة القرآنية- طبع أكثر من مرة آخرها طبعة لوزارة المعارف لتوزيعها على مكتبات المدارس- نشرته دار العلوم، الرياض، ١٤٠٣هـ.

٦. مأثورات شعبية- نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون في سلسلة الكتاب السعودي.

٧. سوانح أدبية- طبع مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤٠٥هـ.

٨. صور ثقيلة- مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ١٤٠٥هـ.

٩. العالم الإسلامي والرابطة- نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبع في مطبعتها في مكة المكرمة، ١٤١٤هـ.

١٠. نظرة إلى العلاقات العربية مع أهالي جنوب الصحراء، مطابع التقنية، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

١١. المقامات الصحراوية- مطابع التقنية، الرياض، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

١٢. مساعدات المملكة العربية السعودية للمسلمين، وبخاصة الأقليات المسلمة- بمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية- نشرته لجنة الاحتفال بمرور مائة عام على التأسيس، وطبعته في مطابع الناشر العربي، الرياض، ١٤١٩هـ.

١٣. كلمات عربية لم تسجلها المعاجم، أحد بحوث المؤتمر الثاني للأدباء السعوديين، نشرته جامعة أم القرى، مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ.

١٤. المملكة العربية السعودية بين الماضي والحاضر (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة)- نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطابعها في مكة المكرمة، ١٤١٩هـ.

١٥. مدلولات كلمات قضى عليها حكم الملك عبدالعزيز، نشرته الجمعية العربية السعودية للثقافة والفنون (لمناسبة مرور مائة عام على تأسيس المملكة العربية السعودية).

١٦. رابطة العالم الإسلامي إحدى القنوات السعودية لمساعدة المسلمين- نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها بمكة المكرمة، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م.

١٧. الدعاة إلى الله: شرف مهمتهم، وطرق دعمهم، نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها في مكة المكرمة، ١٤٢٠هـ.

١٨. واجب المسلم في بلاد الأقليات، نشرته رابطة العالم الإسلامي، ١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م.

١٩. (العالم الإسلامي: واقع وتوقعات) نشرته مجلة (العربية) التي تصدر في الرياض مصاحباً لعدد ذي الحجة ١٤٢٠هـ منها.

٢٠. الدعوة الإسلامية وإعداد الدعاة، طبعته مطابع الجاسر، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٢١. (حِكَمُ العوام)، طبعت في مطابع الجاسر، الرياض، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م.

٢٢. في لغتنا الدارجة: كلمات قضت، (كتاب لغوي) طبعته بنفقتها ونشرته ضمن منشوراتها دارة الملك عبدالعزيز، الرياض، في مجلدين كبيرين.

٢٣. حكايات تحكى (قصص)، نشره نادي القصيم الأدبي في بريدة، عام ١٤٢١هـ.

٢٤. أثر الأقليات المسلمة في الدعوة الإسلامية، نشرته رابطة العالم الإسلامي، وطبعته في مطبعتها في مكة المكرمة، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٢م.

٢٥. الكناية والمجاز في اللغة العامية، نشرته مجلة الدرعية التي تصدر في الرياض، ١٤٢٣هـ.

٢٦. أماكن قديمة العمارة في القصيم، نشرته مكتبة العبودي في بريدة لصاحبها صالح بن عبدالله العبودي.

٢٧. معجم الألفاظ الدخيلة في لغتنا الدارجة، نشرته مكتبة الملك عبدالعزيز العامة في الرياض في مجلدين- عام ١٤٢٥هـ.

٢٨. المقامات البلدانية، نشره النادي الأدبي في الرياض، عام ١٤٢٦هـ.

٢٩. الأصول الفصيحة للألفاظ الدارجة، أو ما فعلته القرون بالعربية في مهدها (ثلاثة عشر مجلداً) نشرته مكتبة الملك عبدالعزيز العامة في الرياض، عام ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

٣٠. الحوار في الإسلام، نشرته دار الطرفين للنشر والتوزيع في الطائف، عام ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

٣١. دور الأقليات الإسلامية في الدعوة إلى الله، نشرته دار الطرفين للنشر والتوزيع في الطائف، عام ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

٣٢. الأقليات المسلمة: الواقع والمأمول، نشرته دار الطرفين للنشر والتوزيع في الطائف، عام ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

٣٣. العالم الإسلامي: الواقع والمعاناة، نشرته دار الطرفين للنشر والتوزيع في الطائف، عام ١٤٢٩هـ- ٢٠٠٨م.

٣٤. هذا ما أستوحيته من الناس، كتاب أدبي طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٩هـ.

٣٥. جهود خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبدالعزيز رحمه الله في مساعدة الإخوة المسلمين وبخاصة في بلاد الأقليات المسلمة، مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٩هـ.

٣٦. العلاقات بين المملكة العربية السعودية وتركيا، طبع في مطابع النرجس في الرياض عام ١٤٢٩هـ

٣٧. أخبار الملا ابن سيف تنشره دار الثلوثية في الرياض.

٣٨. أخبار قني تنشره دار الثلوثية في الرياض.

٣٩. أخبار مطوع اللسيب نشرته دار الثلوثية في الرياض.

٤٠. مشاهد من بريدة قبل ٧٥ سنة، تنشره دار الثلوثية في الرياض.

٤١. المطوع في باريس، نشره النادي الأدبي في الرياض.

٤٢. الأصدقاء الثلاثة (رواية) طبعتها مطبعة النرجس في الرياض، عام ١٤٣٢هـ.

٤٣. كلمات قضت (في مجلدين كبيرين: معجم بالفاظ اختفت من لغتنا الدارجة أو كادت) نشرته دارة الملك عبدالعزيز في الرياض.

٤٤. معجم النخلة في المأثورات الشعبية، نشرته دار الثلوثية في الرياض، عام ١٤٣١هـ- ٢٠١٠م.

٤٥. معجم المطر والسحاب، نشرته دار الثلوثية في الرياض في عام ١٤٣٢هـ.

٤٦. معجم الأنواء والفصول، نشرته دار الثلوثية في الرياض في عام ١٤٣٢هـ.

٤٧. معجم الديانة والتدين، نشرته دار الثلوثية في الرياض في عام ١٤٣٢هـ.

٤٨. معجم ألفاظ الصيد والقنص، نشرته دار الثلوثية في الرياض في عام ١٤٣٢هـ

٤٩. معجم ألفاظ المرض والصحة في المأثور الشعبي (تحت الطبع).

٥٠. معجم ألفاظ الحرف والصنائع في المأثورات الشعبية (تحت الطبع).

٥١. معجم الحيوان عند العامة، نشرته مكتبة الملك فهد الوطنية في الرياض عام ١٤٣١هـ.

٥٢. الشيخ العلامة عبدالله بن محمد بن حميد كما عرفته في مجلدين: نشرته دار الثلوثية في الرياض عام ١٤٣٢هـ.

٥٣. معجم أسر بريدة في٢٣ مجلداً، نشرته دار الثلوثية في الرياض عام ١٤٣٠هـ.

٥٤. المستدين: قصة طبعت في مطبعة النرجس عام ١٤٣١هـ.

٥٥. الأصدقاء الثلاثة: رواية، طبعت في مطابع الفرزدق في الرياض، عام ١٤٣٢هـ.

٥٦. العلاقات بين المملكة العربية السعودية وتركيا (تحت الطبع).

٥٧. القضاء في المملكة العربية السعودية بين الماضي والحاضر (تحت الطبع).

٥٨. أهمية الوثائق في المحلية في تاريخ الأفراد والأسر (تحت الطبع).

٥٩. الرحلات العالمية وآثارها في الدعوة إلى الله (تحت الطبع).

٦٠. أفكار حول معالجة الزحام الشديد في المسجد الحرام في المواسم (تحت الطبع).

المستودع الدعوي الرقمي
Osoul Center For Studies

https://dawa.center

ISBN-13: 978-6039075639